

وقفات تدبرية
في النصوص القرآنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[وما نوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب]

الإهداء

✓ إلى من كنت أتمنى أن يرى نتاج غرسه ، وحسن كسبه ، إلى من اقتضت حكمته تعالى أن يخرج كتابي الأول ، وهو بين يدي ربه.

إلى روح والدي الغالي الأستاذ الدكتور / رفعت عبد القادر الأشقر .. أهدى هذا الكتاب .. رحمه الله تعالى .. ورفع درجاته في عليين .. وألحقنا به في الصالحين .

✓ إلى من يشرفني أن ترى نتاج ولدها .. إلى من جعل الله تعالى الجنة تحت قدميها .. إلى من أدعوه تعالى أن يبارك لنا في عمرها ، ويرزقنا برها وحسن خدمتها .. إلى العظيمة أُمِّي أهديتها باكورة إنتاجي .

✓ إلى رفيقة عمري .. وشقيقة قلبي .. ونور دربي .. وسندي في حياتي - بعد ربي - ، إلى زوجي الغالية .. أهديتها أول مؤلفاتي .

✓ ثم إلى مسك الختام ، حبيبى وقرة عيني ، إلى من رزقني الله به بعد طول انتظار .. إلى ولدي الغالي وعمري الحالي .. إلى عمر سامي رفعت الأشقر .. أهديه أول مؤلفات أبيه .. عسى الله أن يجعله من أهل القرآن ..

الدكتور

أبو عمر سامي بن رفعت الأشقر

السويس ، المحرم ١٤٣٧هـ

وقفات تدبرية في النصوص القرآنية (الجزء الثلاثون)

الدكتور

سامي رفعت الأشقر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الآداب – جامعة السويس

٢٠١٩م



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

الكتاب : وقفات تدبرية في النصوص القرآنية
(الجزء الثلاثون)

المؤلف : الدكتور سامي رفعت الأشقر

رقم الطبعة : الأولى

تاريخ الإصدار : ٢٠١٩ م

حقوق الطبع : محفوظة للناسر

الناسر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

العنوان : ٨٢ شارع وادي النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر

تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ٠١٢٢/١٧٣٤٥٩٣

البريد الإلكتروني: m.academyfub@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠١٨ / ١٨٩١٢

الترقيم الدولي : 3 - 010 - 831 - 977 - 978

تحذير :

حقوق النشر : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو
اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أى نحو أو
بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو
خلاف ذلك إلا بموافقة الناسر على هذا كتابةً ومقدماتاً.

المقدمة

الحمدُ لله ذي العَرْشِ العَليِّ، والبَطْشِ القويِّ، والعِزِّ الأَبديِّ، والوَعْدِ الوَفيِّ، لا مُعْطَ لما مَنَعَ، ولا رَافِعَ لما وَضَعَ، ولا فَاتِحَ لما أَغْلَقَ، ولا رَاقِ لما فَتَقَ، ولا يَشْغُلُهُ سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا يَذْهَبُهُ عَطَاءٌ عن مَنعٍ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصدور، وَلَهُ مَقَالِيدُ الأَشْيَاءِ وإليه تصير الأمور.....

وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، مُنعمٌ عَجَبٌ بثنائه الألسنُ والأصوات، ومُكرِّمٌ رَجَبَهُ الأحياءُ والأموات، وأشهد أنَّ محمداً عبده الكريم ورسوله الرحيم ونبيُّه الذي لا يَضِيْمُ ما خَفَقَ سَرَابٌ، وَصَفَّقَ شَرَابٌ وَلَمَعَ ضِيَاءٌ، وَهَمَعَ عَمَاءٌ، وَشَرَّفَ وَكَّرَمَ وَبَجَلَ وَعَظَّمَ .

ثم أما بعد

فإن خير ما تصرف فيه الأوقات وتنفى فيه الأعمار هو الحياة مع كتاب الله تعالى: قراءة وحفظاً وفهماً وتدبراً وعملاً وتخلُّقاً ، فهو حبل الله المتين وحجته على خلقه، من اهتدى به هُدى، ومن تمسك به نجا، ومن عمل به ربح، ومن تدبره انتفى الشك والشرك من قلبه، وكان شفاء لما فى صدره من الشهوات والشبهات .

بيد أن كثيراً من المسلمين اليوم قد جعلوا جُلَّ غايتهم قراءة القرآن الكريم والإكثار من ختمه المرة بعد الأخرى دون توقف عند حدوده وتدبر آياته والنظر فى أوامره ومنهياته، مع أن تدبر القرآن والنظر فى معانيه معانيه كان من بين أسباب نزوله للناس، قال الله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾.

بل إن الله ﷻ قد وصف لنا أثر كلامه لو أنزل على جبل شامخ لصار متصدعاً منكسراً من خشية الله، وهو الصخر الأصم فما بالك بالقلب الحى، قال الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(٢١) ﴿﴾ ، كما بيّن الله ﷻ صفات المؤمنين وجعل من بينها تأثر قلوبهم بسماع القرآن وإخباتهم له ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤).

وقد حث القرآن الكريم الناس على تدبر آياته ، فقال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) ، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) ، وقد فهم أسلافنا الصالحون - رحمهم الله تعالى - ذلك فكان تدبر القرآن الكريم وفهم معانيه والعمل بما فيه هو منهج تعاملهم مع كلام الله ﷻ ، قال عبدالله بن عروة بين الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن ؟ قالت: (تدمع أعينهم وتتشعر جلودهم كما نعتهم الله).

وكان الواحد منهم يقوم الليل كله بآية واحدة يقرأها ويردها ويتدبرها فيعيش معها طوال الليل دون سآمة أو ملل ، بل ربما سمع أحدهم آية فيها وعيد شديد أو ذكر لعذاب النار فيسقط مغشياً عليه فهذا أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع رجلاً يتهدد في الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) ، قال عمر: "قسم - ورب الكعبة - حق" ، ثم رجع إلى منزله فمرض شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه ، وقال ابن أبي مليكة: "صحبت ابن عباس رضي الله عنه - يعني في السفر - فإذا نزل قام شطر الليل يرتل القرآن حرفاً حرفاً ويكثر في ذلك من التشجيع والنحيب".

هكذا كان حال أسلافنا مع كلام الله تعالى ، فما حالنا اليوم معه ؟ إن كثيراً منا يحفظ من القرآن الكريم سوراً من سنين طويلة ، ولم يكلف نفسه عناء أن يتوقف - ولو للحظة - ليسأل نفسه عن معنى ما

يحفظه ويردده، فليس من المسلمين أحد إلا وهو يحفظ - حتى قصار السور - كالفلق والعاديات ونحوهما، وهو لا يعرف ما معنى الفلق ولا الغاسق ولا وقب ولا العاديات ولا ضبحاً ولا الموريات ولا قدحاً ولا كنود وكثير غيرها من كلمات وآيات القرآن الكريم التي نردها في الصلاة كل يوم وليلة.

ونقرأها بالسنتنا دون أن نفهم دلالتها أو نتدبر معانيها فكيف يتأتى لنا الخشوع في الصلاة وتنوق حلاوة القرآن والاستمتاع بمعانيه والاستفادة بما فيه ونحن لا نفهم دلالة ما ترده ألسنتنا ؟

ومن ثم ... كان لا بد من إحياء منهج التدبر والفهم في تعامل المسلم مع كتاب ربه ، ليكون خطوة في طريق التطبيق والالتزام بالأوامر واجتناب النواهي، فإننا لن نستطيع تطبيق القرآن الكريم والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه إلا بتدبر معانيه وفهم ما فيه .

وجاء هذا الكتاب يطبق هذا المفهوم - مفهوم التدبر - كخطوة متواضعة في طريق خدمة القرآن الشامخ، مقتصرًا على (جزء عم) لكثرة حفظه من أبناء المسلمين في خطوة - ربما تتبعها خطوات في باقي أجزاء القرآن الكريم - وقد انتهجت فيه طريقة السؤال والجواب عملاً بهدى النبي ﷺ في تعليم الناس من خلال هذا المنهج القائم على طرح السؤال لاستثارة الأذهان وتحفيز السامع للجواب؛ كقوله: (أتدرون من المفلس؟).

وكان البدء فيه (يوم الإثنين) السادس من صفر لعام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين من الهجرة المباركة، الموافق الثالث عشر من ديسمبر ٢٠١٣ م بأرض الحجاز ، ويسر الله تعالى الانتهاء منه (ليلة الثلاثاء) الثالث عشر من شهر رمضان المبارك لعام ألف وثلاثمائة وستة وثلاثين من الهجرة المباركة ، بمدينة السويس بجمهورية مصر العربية ..

والله تعالى أسأل أن يرزقنا في عملنا الإخلاص ، وأن يكتب لهذا العمل عنده القبول ، وأن يجعله نفعاً لى ولوالدى ولأهلى يوم اللقاء ، إنه أكرم مسئول ... وهو حسبى عليه اعتمادى ونعم الوكيل.

المؤلف

دكتور سامي رفعت الأشقر

﴿سورة الناس﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: دلالة تكرار كلمة «النَّاسِ» في السورة خمس مرات: لعل بعض الذين يطعنون في القرآن الكريم من غير فهم ولا وعى يتساءلون عن الحكمة من تكرار كلمة «النَّاسِ» في سورة الناس في خمسة مواضع من ست آيات هي أصل هذه السورة المباركة ، مع أن الثابت في كتب البلاغة أن تكرار الكلمة في أكثر من موضع قريب ينافى البلاغة وحسن البيان.

وهذا كلام معتبر عند البلاغيين لكنه ينتفي إذا كان هناك سبب لهذا التكرار، فما العلة من وراء ورود كلمة «النَّاسِ» في مواضع السورة الكريمة ؟

أولاً : لفظ الناس هم الإنس خاصة وهم جماعة لا واحد لها من لفظها، (قيل الناس لغة مفردة فاشتقاقه من النوس وهو الحركة ناس ينوس نوساً إذا تحرك، والأناس لغة أخرى.. ، فاشتقاقاً من الأنس خلاف الوحشة وذلك أن بعضهم يأنس ببعض) (١).

ثانياً : هذا التكرار فيه إطناب وتكرار بذكر اسم «النَّاسِ» وفيه من الشرف لهم وبيان محبة الله ﷻ وعنايته بهم ما لا يخفى على أحد، فهو ربهم وملكهم وإلههم والقائم على حفظهم ورعاية الصالحين منهم وكل هذه المعاني إنما اتضحت بالإطناب و(بتكرار الاسم) «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)» زيادة في التعظيم لهم والاعتناء بشأنهم ، ولو قال " ملكهم ، إلههم " لما كان لهم هذا الشأن العظيم (٢). ويكفي في شرف الناس أن الله ﷻ كرمهم وقال في ذلك: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ

(١) غريب الحديث، لابن قتيبة، ٦٥٧/٣، مطبعة العاني، بغداد - العراق، ط ١، سنة ١٣٩٧ هـ.

(٢) صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، ٥٤٠/٣، دار الصابوني للطباعة، ط ٩.

مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴿١﴾، ولعل أبرز صور التكريم لهم أن الله ﷻ جعل كلمة «وَالنَّاسِ» آخر كلمة يختم بها الرب ﷻ كلامه: «مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴿٢﴾»، وهنا ملمح عجيب وفقنى الله ﷻ إليه حيث إن مفتاح القرآن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴿٣﴾»، وخاتمته: «مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴿٤﴾»، والعالمين جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله ﷻ، فيشمل عالم الجن، وعالم الطير، وعالم الوحش، وعالم النبات، وعالم الجماد، ويدخل فيه عالم الإنس إجمالاً، ثم يأتى ذكر الإنس منفرداً كآخر كلمة فى القرآن الكريم لتتناسب البداية مع النهاية.

ويكون التفصيل بعد الإجمال وذكر الخاص بعد العام، وبذلك يتحقق هذا الترابط والانسجام بين البدء والختام .

ثالثاً: وفى التكرار كذلك ملمح بلاغى أشار إليه د. السامرائى حيث قال: (وكلمة الناس المتكررة كل منها تدل على معنى مختلف لتتناسب مع كلمة رب وملك وإله.

فالناس الأولى أقل من الناس التي بعدها والأخيرة فقد تدرج معنى كلمة الناس من القلة إلى الكثرة على عكس كلمة الرب والملك والإله فقد تدرج من الكثرة إلى القلة، فالرب هو المرشد الموجه وقد يكون هناك العديد من المرشدين في المجتمع لكن لكل دولة ملك خاص بها والدنيا فيها ملوك كثر ولكن الإله واحد لا شريك له لكل الخلق من الإنس والجن، فالإله إله الخلق جميعاً وناسه كثر، أما الملك فناسه أقل من الإله، وكذلك الرب ناسه أقل لأن الرب هو رب المؤمنين الطائعين فقط وليس كل الناس مؤمنين)﴿٢﴾ وصدق الله ﷻ حين وصف كتابه: «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴿٣﴾».

(١) سورة الإسراء/ من الآية ٧٠ .

(٢) لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل، فاضل السمرائى، ص ١٢٤ دار عمار، الأردن، ط٣،

١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م .

(٣) سورة الشعراء / الآية ١٩٥ .

المسألة الثانية : ما معنى قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾؟

الجواب: الوسواس في لغة العرب من الوسوسة وهو (الصوت الخفي من ريح، والوسواس صوت الحلي والوسوسة الكلام الخفي في اختلاط)^(١)، والوسواس الخناس هو الشيطان .

ومعنى أن الشيطان وسواس أى يلقي الكلام الخفي من الذنوب والأوهام والشبهات التي تصل إلى القلب من غير سماع ، أما كونه خناساً أى من عاداته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه ، قال ابن عباس رضي الله عنه: (في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس. وكذا قال مجاهد، وقتادة)^(٢) .

ويؤخذ من هذا أثر ذكر الله تعالى على سلامة قلب العبد وقوة إيمانه، وأن كيد الشيطان ووسوسته سرعان ما تذهب هباءً بمجرد أن يركن العبد بقلبه ووجدانه إلى ربه، مجرياً ذكر الله على قلبه قبل لسانه، فإن الشيطان عندئذ يخنس ويذهب كيده، ولذا جاء وصف الشيطان بالخناس على وزن فعَّال وهي صيغة مبالغة تفيد كثرة اتصاف الشيطان بهذا الفعل أى (الخنس والنكوص) وفيه بيان لأثر ذكر الله تعالى على الشيطان وسرعة ارتداده على عقبيه عند ذكر العبد لربه وقد صدق فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧٦)﴾^(٣)

المسألة الثالثة: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)﴾ لم خصت

الصدور بالذكر دون القلوب ؟

لعل في ذلك إشارة إلى أن الصدر هو ساحة القلب ومدخله فلا بد لمن

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ٢٥٤/٦، دار صادر، بيروت - لبنان .

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ٥٤٠/٨، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م .

(٣) سورة النساء / من الآية ٧٦ .

أراد الوصول إلى القلب أن يمر إليه من خلال الصدر أولاً، حيث تجتمع الشبهات والشهوات في الصدر أولاً قبل أن تلج إلى القلب، وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله بأن جعل الصدر خطأ للدفاع عن القلب حتى لا يسهل استيلاء الشيطان على قلب العبد وتحكمه فيه، لأن أثر القلب على الجسد عظيم فبصلاحه صلاح سائر الجسد وبفساده فساد الجسد، فالله ﷻ ينبه المسلم إلى أن يحتاط لقلبه فلا يترك مجالاً لوصول الشيطان إلى قلبه بل يواجهه ويحاربه إذا حاول اقتحام صدره وهو بوابة القلب ومدخله، وهو ما يوجب على المرء المسلم تفقد أحواله مع ربه وعدم ترك نفسه من غير محاسبة ولا مراقبة حتى لا يسرع الفساد إلى قلبه، ويمكننا في هذا الموضع الاستئناس بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١).

حيث نهانا ربنا أن نتبع خطوات الشيطان لا الشيطان نفسه، فإنه من أخذ حذر من خطوات الشيطان كان من الشيطان نفسه أبعد، وفيه دلالة على المبالغة في البعد عن وسوسة الشيطان وتجنب مزلقه ومهالكه .

(١) سورة النور / من الآية ٢١ .

﴿سورة الفلق﴾

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿مَنْ شَرَّ مَا خَلَقَ (٢)﴾ هل يخلق الله تعالى الشر ؟
هذه مسألة في غاية الخطورة، حارت فيها كثير من الأفهام وزلت فيها كثير من الأقدام، إذ لا يُعقل أن يوصف الله ﷻ ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا بنسبة الشر إليه، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ في موقف الشفاعة العظمى يُنادى عليه فيقوم على رؤوس الخلائق ملبياً نداء ربه مثلياً عليه بقوله: (لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، المهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحان رب البيت)^(١) كما أن أسماء الله ﷻ الحسنى تشهد بذلك فهي تدل على امتناع نسبة النقص إليه، والشر نقص، والنقص لا يُنسب لمن كانت أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها علا، فمن أسماؤه ﷻ (القدوس)، ومعناه: المنزه عن كل نقص وشر وعيب، ولذا سمى بيت المقدس بذلك لأنه مكان يُتطهر فيه من الذنوب ومن قصده لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه، وسمى جبريل - عليه السلام - بروح القدس لأنه طاهر من كل عيب.

ومن أجود من كتب في هذا الباب الإمام ابن القيم - رحمه الله - حيث قال: (إن الله تعالى لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل، فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته^(٢))، ومعنى ذلك: (أن الشر في مفعولات الله لا في أفعاله) فالشر لا يُنسب إلى الله ﷻ بل يُنسب لمخلوقات الله ﷻ، قال ابن

(١) المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى، ٤٣٠/٢، ورقمه ٣٤٤٢، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م .

(٢) فائدة جلية في قواعد الأسماء الحسنى، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، ص ٢٩، الناشر غراس، الكويت، ط ١، سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .

القيم: (سبحانه الخالق لكل شيء فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب فجعله فاعلاً خيراً والمفعول شر قبيح فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشرّاً وهذا أمر معقول في المشاهد؛ فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللينة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يُمدح به وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يُذم به المحل، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلاً وصواباً، وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرجل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة، فقد وضع الشيء موضعه ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلها) (١) .

وثمة نقطة أخرى متعلقة بهذا الباب ألا وهي أن الشر نسبي بمعنى أن ما يراه غيرك شراً قد يكون عندك خيراً فقطع يد السارق له شر، وعند جموع الناس خير، لما فيه من أمنهم وحفظ أموالهم، وكذا الصائل والقاتل ونحوهما (فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذليل فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه) (٢) .

المسألة الثانية: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا

حَسَدَ (٥)﴾ ما سر الجمع بينهما ؟

الجواب: اقترن الساحر والحاسد في السورة لأن مقصدهما إيذاء الناس

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ص ١٨٠ دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وإلحاق الضرر بهم، والشيطان رفيق الساحر وصاحب الحاسد يحادثهما ويزين لهما سوء أعمالهما ولكن الحاسد تعينه الشياطين دون استدعاء منه لهم، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعين به، فلهذا والله أعلم قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، وكذلك السحر منهما أيضاً، وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب فذكره في سورة الناس .

المسألة الثالثة: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (٥) ما فائدة قوله ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ (٥) في الآية ؟

الجواب: تأمل تقييده ﷺ شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ (٥) لأن أي إنسان عرضة لأن يتسلل الحسد إلى قلبه فهذا الأمر قلما يخلو منه قلب العبد، لكن المؤمن ينظر إلى نعم الله ﷻ على إخوانه من المؤمنين ويتمنى لهم البركة والزيادة وأن يرزقه الله ﷻ مثلهم لينال ما نالوه من رفعة الدنيا وعز الآخرة، وهذا المعنى هو ما عبر عنه قول نبينا ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)^(١) فسماه حسداً وهو بمعنى الغبطة، قال ابن رجب - رحمه الله -: (هذا هو الغبطة وسماه حسداً من باب الاستعارة)^(٢)، وقال ابن عبد البر - رحمه الله -: (ويقال إن الحسد لا يكاد يسلم منه أحد فمن لم يحمل حسده على البغي لم يضره حسده، وروينا عن الحسن البصري أنه قال ليس أحد من ولد آدم إلا وقد خلق معه الحسد، فمن لم يجاوزه إلى الظلم والبغي لم يتبعه منه شيء)^(٣). فمثل هذه الغبطة لا يترتب عليها أذى لأحد بل هي من باب الإعجاب المحمود غير

(١) الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، ٣٩/١، باب الاعتباط في العلم والحكمة، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧ م .

(٢) جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ٦/٣٧، دار المعرفة - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .

(٣) الاستذكار، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، ٢٩٠/٨، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ .

المذموم الذى يدفع صاحبه إلى العمل لينال من الخير مثلما نال صاحبه، أما الحسد المذموم فهو حسد الحاسد إذا حسد وتحقق ذلك الحسد، وترتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا هو الحسد المذموم وهو تمنى زوال النعمة من المحسود .

لطيفتان فى سورتي المعوذتين:

اللطيفة الأولى:

وهي أن فيهما مستعاذ به وهو الله ﷻ ومستعاذ منه وهو ما يُخاف منه الضرر، وقد ورد المستعاذ به في السورة الأولى (الفلق) موصوف بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد، وأما في سورة (الناس) فقد جاء العكس حيث جاء المستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة. ونستفيد من ذلك خطورة الوسوسة حيث احتاج الإنسان إلى الاستعاذة منها برب وإله وملك الناس، فى حين جاءت الاستعاذة من الغاسق والنفاثات والحاسد برب الفلق فقط، والاستعاذة يجب أن تُقدَّر بحجم خطورتها، فكلما كان الخطر عظيماً كان اللجوء والاستعاذة أعظم.

والفلق استعاذة من المخاطر التى تهدد البدن، بينما فى سورة الناس الاستعاذة من خطر وسوسة الشيطان التى تهدد سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين - وإن قلَّت - أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت .

اللطيفة الثانية :

لمّا أمر الله ﷻ قارئ القرآن أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله ﷻ عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، فيكون القارئ محفوظاً بحفظ الله ﷻ الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره.

﴿سورة الصمد﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ ما الفرق بين الأحد والواحد؟
كثيراً ما استوقفني وأنا أقرأ سورة الصمد قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ وسألت نفسي عن سر التعبير بأحد بدلاً من واحد ، خاصة وأن التعبير الثاني قد ورد في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (١). فما الفرق بين أحد وواحد؟ وهل هما اسمان أم صفتان؟ ولم ذكرت كل كلمة في موضعها في القرآن الكريم؟

والجواب:

أولاً: (أحد بمعنى واحد وأصل أحد "وحد" فأبدلت الهمزة من الواو المفتوحة كما أبدلت المضمومة في قولهم وجوه وأجوه ومن المكسورة في قولهم وشاح وإشاح ولم تبدل من المفتوحة إلا في حرفين أحد وأناة من قولهم امرأة أناة وأصلها وناة من الونى وهو الفتور) (٢).

ثانياً: أنكلا الاسمين من أسماء الله ﷻ الحسنى كما ورد في القرآن الكريم وفى سنة النبى الأمين ﷺ فأما الاسم الأول (أحد) فقد ذكر فى القرآن الكريم فى هذا الموضع الذى نحن بصدده الآن من سورة الصمد، كما ذكر فى السنة النبوية فيما أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة ؓ أن النبى ﷺ سمع رجلاً يقول (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فقال عليه الصلاة والسلام: والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى) (٣) .

(١) سورة النساء / من الآية ١٧١.

(٢) التبيان فى تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، ص ٤٨٢، دار الصحابة للتراث بطنطا - القاهرة، ط ١، ١٩٩٢ م .

(٣) صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، ٣ / ١٧٤، ورقمه ٨٩٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ ١٤١٤ هـ.

وأما الاسم الثانى (واحد) فقد ورد فى عدة مواضع فى القرآن الكريم منها: فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٤)، وكذا فى قوله تعالى فى سورة ص: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٥).

ثالثاً: أن (واحد) فى اللغة قد تأتى اسماً وقد تأتى صفة، فنقول: واحد، اثنان، ثلاثة.... قاصداً أسماء الأعداد، فتكون (واحد) عندئذ اسماً، أما إذا قلت: (جاء رجل واحد) فتكون عندئذ صفة للرجل، بيد أن لفظ (أحد) لا يوصف به أحد إلا الله ﷻ دون غيره، لارتباطه الوجدانية فلا يشرك معه فيه غيره، ولا يُنعت به غير الله تعالى، فنقول: (هو الله أحد)، ولا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد .

رابعاً: فى الفرق بين أحد وواحد وجوه ذكرها العلماء، منها :
- لا يوصف غير الله ﷻ بالأحدية فلا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، بل يقال رجل واحد، فأحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيه شئ .

- الواحد يستعمل فى الإثبات، والأحد فى النفي تقول فى الإثبات (رأيت رجلاً واحداً) وتقول فى النفي: (ما رأيت أحداً) فيفيد العموم.
- يتميز اسم (الأحد) بدلالة لا تتوافر فى (الواحد) حيث إن (أحد) تدل على الكيفية والماهية ، بينما تدل (واحد) على العدد .

(١) سورة النساء / من الآية ١٧١ .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٤٨ .

(٣) سورة النحل / الآية ٢٢ .

(٤) سورة الرعد / من الآية ١٦ .

(٥) سورة ص / من الآية ٦٥ .

خامساً: لم خصت (أحد) بالذكر هنا في سورة الإخلاص دون (واحد)؟ لا بد أولاً أن نعلم أن كثيراً من المفسرين على أن اسم واحد هو بمعنى أحد، قال ابن عاشور - رحمه الله - : (أما "أَحَدٌ" فاسم بمعنى واحد. وأصل همزته الواو، فيقال: وحد كما يقال أحد، قلبت الواو همزة على غير قياس لأنها مفتوحة) ^(١) .

لكن قد يكون اسم (أحد) قد جاء في هذه السورة المباركة بدلاً من (واحد) لأن (الأحد) لنفى التقسيم، و(الواحد) لنفى التعدد، فإذا قلت (أحد) فمعناه انفراد الله ﷻ بالألوهية، بخلاف واحد فمعناه نفى التعدد ووجود آلهة أخرى معه، ولعلنا إن أشرنا إلى سبب نزول هذه السورة فقد نعرفلم اختار القرآن الكريم اسم (الأحد) في هذا الموضع دون الواحد ، فقد أورد أهل التفسير سبب نزولها، قالوا: (نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك، أمن ذهب هو أم من نحاس أم من صفر ؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾) ^(٢) .

ومعنى ذلك أن هذه السورة نزلت بياناً ورداً على سؤالهم عن صفة الله ﷻ لا عن عدد الأرباب فكان من المناسب أن يأتى الجواب بأنه ﷻ أحد لأنها تدل على نفى التقسيم، بدلاً من واحد التى تدل على نفى التعدد، والله تعالى أعلم .

سادساً: لا يفوتنى في هذا الباب أن أسوق لطيفة ذكرها الصابونى في تفسيره حيث قال: (هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)، وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٥٣٧/٣٠، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

(٢) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، ١١٠٦/٢، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م .

النقص والعجز ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢)، وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه، ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣)، وأثبتت الرابعة عظمته وجلال قدره، ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال لله، وتنزيهه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص والقبائح (١).

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) ما معنى الصمد ؟

الجواب: قال ابن القاسم الأنباري: (اسم من أسماء الله عز وجل وفي تفسيره ثلاثة أقوال: قال قوم: الصمد الذي لا يطعم كما قال جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (٢)، وقال السدي: الصمد الذي لا جوف له، وقال أهل اللغة أجمعون لا اختلاف بينهم في ذلك الصمد عند العرب: السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم (٣)، ومن أجمل ما قرأت في هذا الباب قول الشنقيطي - رحمه الله - : (قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) قال بعض المفسرين يفسره ما بعده أي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣)، قال ابن كثير: (وهذا معنى حسن) (٤)، وهذا الكلام يتفق مع قول المفسرين عن معنى الصمد أنه الذي يلجأ إليه الناس، وهذا يستلزم استغناؤه عن خلقه، ومن كان والدًا فقد يحتاج إلى ولده عند كبره ومن كان مولودًا فهو لا يستغنى عن والده في صغره، أما ربنا جل وعلا فهو الصمد المستغنى عن سائر خلقه، وخلقه إليه محتاجون فهم يلدون ويولدون، أما ربنا الصمد فهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له من الناس شبيه ولا نظير .

(١) صفة التفسير، ٣ / ٥٣٧ .

(٢) سورة الأنعام / من الآية ١٤ .

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري ٧٩/١، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ٩/١٥٠، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .

المسألة الثالثة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) لم تقدم نفى شبهة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على ﴿لَمْ يُولَدْ﴾؟

الجواب: لعل الأمر في ذلك راجع إلى أن أكثر من يشركون بالله ﷻ ينسبون له - جل وعلا - الولد كقول اليهود والنصارى عنه أن له ولداً، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (١)، وكقول المشركين عن الملائكة إنهم بنات الله، ولم يقل إن الله ﷻ مولود وله والد قد ولده إلا قلة قليلة لم يُسمع بهم فناسب أن تأتي ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نافية لشبهة نسبة الولد إليه مقدمة على ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ وهى شبهة قليلة إذا ما قورنت بالأولى، من باب تقديم الأهم فالمهم .

(١) سورة التوبة / من الآية ٣٠ .

﴿سورة المسد﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ ما الفرق بين تبت

وتب؟

تبت بمعنى هلكت وخسرت، ومنه قول الله ﷻ عن آلهة المشركين: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾^(١)، أى هلاكاً وخسراناً، قال الله ﷻ: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد وقع هذا الهلاك وتحقق، فكأن الأولى ﴿تَبَّتْ﴾ دعاء عليه بالهلاك والثانية ﴿وَتَبَّ﴾ تأكيد لحصول الدعاء عليه وتحققه (ويؤيده قراءة ابن مسعود ﷺ: "وقد تب")^(٢) كما يقول الرجل: (أهلكه الله وقد هلك) .

المسألة الثانية: ﴿تَبَّتْ يَدَا﴾ لم خصت اليد بالذكر دون سائر الأعضاء؟

فى استعمال القرآن الكريم لليد قيل هى بمعنى النفس وكثيراً ما يستخدم العرب كلمة اليد للتعبير بها عن نفس الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾^(٣) أى نفسك، وقيل خصت اليد بالذكر لأن أغلب عمله إنما يكون بيده فنسب العمل إلى اليد من أجل ذلك .

المسألة الثالثة: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ لم ذكره القرآن بكنيته ولم يذكره باسمه؟

أكثر ما كان يحرص عليه العرب الكنية، حتى كان الواحد منهم يكنى ولده وهو طفل صغير لم يبلغ بعد، والكنية معناها ألا يُذكر اسم الرجل أو المرأة بل يُذكر بدلاً منه كلمة أب أو كلمة أم مضافة إلى اسم، فيقال عن عمر أبو حفص، وعن عائشة أم عبد الله، ونحو ذلك، وقد أعرض القرآن الكريم عن ذكر أبى لهب باسمه الحقيقى وكان اسمه عبد العزى بن عبد المطلب وذكره بكنيته أبى لهب والسبب فى ذلك يعود - كما قال المفسرون - إلى معانٍ أربعة :

(١) سورة هود / من الآية ١٠١ .

(٢) البحر المديد، أحمد بن محمد بن عجيبة، ٥٥٠/٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٣) سورة الحج / من الآية ١٠ .

الأول: أن اسمه قبيح وفيه دلالة الشرك فاسمه عبد العزى، والعزى كان صنماً يعبدُه العرب من دون الله قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾^(١)، فأعرض القرآن عن ذكر اسم فيه عبودية لغير الله تعالى تنزيهاً لكتابه عن أن يُذكر فيه اسم يحمل معنى الشرك ودلالته في كتاب التوحيد.

الثاني: أنه قد اشتهر بين الناس بكنيته لا باسمه فأغلب الناس اليوم لا يعرف هذا الأتيم إلا بأبي لهب.

الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عزوجل عن الأشرف إلى الأنقص، إذ لم يكن بد من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يذكرهم بكنيتهم

الرابع: للتوافق والمناسبة بين كنيته ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ ومصيره ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾، قال القرطبي - رحمه الله -: (وكأن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقاً للنسب، وإمضاء للقال والطيرة التي اختارها لنفسه)^(٢)، ولذا كان من السنة أن يُحسن الرجل اختيار اسم ولده وكان النبي ﷺ يعجبه الاسم الحسن ويغير الاسم القبيح، وفي "الأدب المفرد" أن سعيد بن المسيب حدث: (أن جده "حزنا" قدم على النبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: اسمي حزن، قال: بل أنت سهل، قال: ما أنا بمغير اسماً سمانيه أبي، قال بن المسيب: فما زالت فينا الحزونة)^(٣).

المسألة الرابعة: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)﴾ ما الفرق بين

ماله وكسبه؟

قال العلماء في الفرق بين المال والكسب وجوهاً، منها :

(١) سورة النجم / الآيتان ١٩ - ٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/٢٣٧ .

(٣) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، ص٢٩٣، دار البشائر، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ.

- المال هو أصل ماله، وما كسب هي أرباح هذا المال المكتسبة من التجارة، ويؤيد هذا (قراءة الأعمش "وما اكتسب" ورواه عن ابن مسعود) (١) .

- المال هو الماشية وما كسب من نسلها ونتاجها فإنه كان صاحب النعم والنتاج، قال أبو العالية: (إنه أراد أغنامه لأنه كان صاحب سائمة) (٢) .

- المال هو ماله الذي ورثه عن أبيه، والذي كسبه أى تحصل عليه بنفسه.

- المال هي الأموال المعروفة، وما كسب هم أولاده فهم من كسبه ومن سعيه، والدليل عليه قوله ﷺ: (إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه) (٣) .

المسألة الخامسة: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤) ما دلالة حمل الحطب؟

هذه المرأة زوج أبي لهب هي أم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان ﷺ وعمة معاوية بن أبي سفيان ﷺ ومعنى حمالة الحطب تحمّل على معنيين؛ مجازي وحقيقي: فأما المجازي فهي إشارة إلى سعيها بالنميمة بين الناس للوقعة بينهم فصور القرآن هذا الخلق فيها وكأنها تحمل الحطب لإشعال النار، (فالابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: كانت تمشي بالنميمة، يقول العرب: فلان يحطب على فلان إذا وشى وأغزى، قال شاعرهم :

من البيض لم يصطد على ظهر لامة

ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/٢٣٨ .

(٢) النكت والعيون، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، ٦/٣٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) حديث صحيح روي من طرق بألفاظ متقاربة. فأخرجه أبو داود في الإجازات (من البيوع) باب في الرجل يأكل من مال ولده: ٥/ ١٨٢، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في أن الوالد يأخذ من مال ولده: ٤/٥٩٢.

يعني لم يمش بالنمائم^(١)، فالنميمة تشعل الحقد والبغضاء بين الناس كما يشعل الحطب النار، (قال أكثم بن صيفي لبنيه: "ياكم والنميمة فإنها نار محرقة، وإن المنام ليعمل في ساعة مالا يعمل الساحر في شهر")^(٢). أما المعنى الحقيقي: فكما أورد أصحاب السير أن أم جميل كانت تحمل الشوك والأذى فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ حتى يطأ عليه بقدميه فتؤذيه، قال المباركفوري: (كانت امرأة أبي لهب أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب)^(٣).

المسألة السادسة: في السورة إعجاز دال على أن هذا القرآن من عند الله تعالى:

في هذه السورة دليل على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وليس من نسج خيال محمد ﷺ إذ فيه إخبار عن الغيب وتقرير بأن مصير أبي لهب وامرأته النار في إشارة إلى أنهما سيموتان على الكفر ولن يدخلوا في الإسلام وهذا ما حدث منهما إذ ظلا في عداوتهما حتى ماتا على الكفر، فكان مصيرهما النار وبئس القرار والسؤال: لو كان هذا القرآن من تأليف محمد فمن أين علم أن عمه وامرأته سيموتان على الكفر ولن يدخلوا في الإسلام؟ قد يقول البعض إن موت أبي لهب على الشرك أمر متوقع بسبب عداوته وعناده، لكن هذا ليس سبباً يجعل أى عقل بشري يقرر

(١) الكشف والبيان ٣٢٦/١٠، أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) المرجع السابق ٣٢٧/١٠.

(٣) الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، ص ٩٥، دار الوفاء، مصر، ط ١٧، ١٤٢٦هـ.

مصير أى إنسان مهما كانت عداوته، فكم من رجل كان من ألد الأعداء لله ورسوله ثم تغير به الحال وتحول من الكفر لجند الإيمان، ولعل أبرز مثال على ذلك فاروق الأمة أبو حفص عمر بن الخطاب فقد تواترت الوقائع على عداوته وشدة حربه لله ورسوله وأذاه للمؤمنين حتى من الله عليه بالإيمان الذى رفعه إلى مقام الصحبة الشريفة والخلافة الراشدة والجنة الخالدة. أضف إلى ذلك أن الله تعالى صرف عقل أبى لهب عن أن يزعم أنه قد أسلم - حتى ولو ظاهراً - من أجل إحراج الرسول ﷺ وبيان أن القرآن قد أخطأ أو كذب ، لكن حتى هذه لم يوفق إليها عدو الله وصرف الله عقله عنها ، ليتأكد للقاصى والدانى صدق الله وكذب عدوه ... والله الحمد والمنة.

﴿سورة النصر﴾

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ لم استعملت الآية

إذا ولم تستعمل إن ؟

والجواب: إن هذا أسلوب شرط فيه أداة الشرط وهى (إذا)، وفعل الشرط وهو جاء نصر الله والفتح، أما جواب الشرط فهو فسيح بحمد ربك واستغفره، والسؤال هنا لم اختار القرآن استعمال (إذا) ولم يستعمل أداة الشرط (إن)، والجواب: أن بين "إذا" و"إن" فارق فى اللغة حيث تدل "إذا" على تحقق وقوع فعل الشرط بينما "إن" لا تدل على التحقق بل تدل على التشكك في وقوعه، وهذا هو الفرق بين "إن" الشرطية و"إذا" الشرطية .

فعلى سبيل المثال إذا قال إنسان لآخر: إذا طلعت الشمس جئتكم... هذا يعني أن المجيء مؤكد الوقوع، لأن طلوع الشمس لا يتخلف، أما فعل الشرط بعد "إن" فغير مؤكد الوقوع فنقول: (إن جاء زيد أكرمته) لأن مجيئه غير مؤكد فقد يحدث له ما يمنعه، فالفرق بين "إذا" و"إن" أن "إذا" تستخدم للشرط وتعني أن فعل الشرط الذي يأتي بعدها مؤكد الوقوع، بينما يكون فعل الشرط بعد "إن" غير مؤكد الوقوع، كقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١)، لأن الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، وكذا فى قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾^(٢) إشارة إلى أن الأصل فى الزواج هو الديمومة وعدم الاستبدال لكن قد يحدث - وهذا قليل - فاستعملت الآية أسلوب الشرط (إن)، بينما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾^(٣) لأنه من المؤكد عدم استغناء الصحابة ﷺ عن التناجى

(١) سورة الحجرات / من الآية ٦ .

(٢) سورة النساء / من الآية ٢٠ .

(٣) سورة المجادلة / من الآية ٩ .

والتخاطب مع الرسول ﷺ فعبّرت الآية بأسلوب الشرط (إذا) وفي هذا الموضع قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ لأن النصر من الله مؤكّد الوقوع، وقد جاء النصر فعلاً وتحقق وراه الرسول ﷺ في حياته وأقرّ الله به عينه قبل مماته، (ولتحققه عبّر عنه بـ "إذا" إعلماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته) (١) .

المسألة الثانية: ما الفرق بين النصر والفتح ؟

ما عن الفرق بين النصر والفتح ودلالاتهما، فإن النصر والفتح ليسا مصطلحين مترادفين، بل هما مختلفان.

فالنصر: هو الظفر وهزيمة العدو في المعركة، والفتح هو فتح البلاد ودخولها، ومن المنطقي أن يكون فتح البلاد بعد النصر على أهلها ولذا قدم النصر على الفتح، قال الزمخشري : (النصر الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه: نصر الله الأرض أى غاثها، والفتح: فتح البلاد والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة) (٢) وقيل: (النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي له ولأمته، وقيل: النصر هو الظفر بالمنى في الدنيا، والفتح في الآخرة) (٣)، والأرجح وفق السياق هو الرأى الأول، قال الشوكاني - رحمه الله - (الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم) (٤)، ولا يخفى على أحد فائدة إضافة النصر إلى الله ﷻ: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ وما تحمله من دلالة تعظيم هذا النصر ورفعته على ما عداه من انتصارات فهو نصر إلهي

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٨/٨٢٩، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٢ م.

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤/٨١٥، محمود بن عمر الزمخشري دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

(٣) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ٦/٥٨٥، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.

(٤) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ٥/٧٢٤، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

ربانى يخرج عن حدود البشر وإمكاناتهم ، وثمة دلالة أخرى فى نسبة النصر إلى الله ﷻ، ألا وهى أنه نصر الله ﷻ (بجيء به الله: فى الوقت الذي يقدره، فى الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها، وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم فى هذا النصر يد، وليس لأشخاصهم فيه كسب، وليس لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم وأن يقيمهم عليه حراساً ، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس فى دين الله أفواجا .

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم، إن شأنه ومن معه هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار فى لحظة الانتصار^(١).

المسألة الثالثة: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (٣) لم

أمر النبي ﷺ بالاستغفار وهل يتنافى ذلك الأمر مع عصمته ﷺ ؟

لا خلاف فى عصمة الرسول ﷺ وحفظ الله ﷻ له من الوقوع فى المعاصى والآثام، وهذا ما يحدث - عند البعض - إشكالاً مع أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، ولذا قال أهل العلم فى هذه المسألة أقوالاً لبيان المراد من أمر الله ﷻ لنبيه ﷺ بالاستغفار، منها:

- أن هذا الأمر من الله ﷻ هو فى الحقيقة لأمة النبي ﷺ وإن كان موجهاً لشخص النبي ﷺ فهو من باب تعليم الأمة، قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنبِكَ﴾^(٢): (هذا تهييج للأمة على الاستغفار)^(٣)، فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بالاستغفار وقد

(١) فى ظلال القرآن ، ١٢١/٨ ، سيد قطب ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

(٢) سورة غافر / من الآية ٥٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧ / ١٥١ .

عصمه، فما بال المذنبين المقصرين أمثالنا، فنحن أولى بملازمة الاستغفار وتجديد التوبة .

- وقيل إن النبي ﷺ كان يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله ﷻ به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنباً تحتاج إلى استغفار، قال الجزائري: (أي اطلب منه المغفرة لما فرط منكمما هو ذنب في حقك لقربك وكمال علمك، وأما غيرك فليس هو بالذنب الذي يُستغفر منه ويُتاب إلى الله تعالى منه) ^(١) وهذا من عظيم مكانته وشدة خشيته ﷺ ولعلّ أستاذنا هنا في هذا المقام بقول ابن عاشور: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ^(٢).

- كما أن النبي ﷺ إذا ترك الأولى في قضية من القضايا، كمسألة أسرى بدر، فقد يُعد هذا في حقه ذنباً يُؤمر بالاستغفار من أجله وذلك لعظيم مكانته وعلو شأنه.

- وقيل إن الأمر بالاستغفار علته رفع درجاته ﷺ.

- وقيل إن الاستغفار عبادة محضة لا يُشترط لفعالها وقوع الذنب، فهو تعبد يجب إتياءه، لا للمغفرة، بل من باب التعبد المحض.

- وقيل الأمر بالاستغفار بمعنى المداومة عليه .

- وقيل في معنى «وَأَسْتَغْفِرُ» أي: (استغفر لأمتك) ^(٣).

وأياً ما كان المعنى المراد فإن الدرس المستفاد هو مداومة العبد على التسبيح والاستغفار، والتوبة والندم، وله في المعصوم ﷺ الأسوة والقُدوة .

وفي السورة لطيفة يحسن التوقف عندها :

لَمْ فُهِمَ بَعْضُ الصَّاحِبَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنَّهَا نَعَى لِلنَّبِيِّ ﷺ وَإِذَا بَاقْتَرَابَ أَجَلُهُ ؟ ذَلِكَ أَنَّ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ قَدْ حَوَتْ إِشَارَةً إِلَى اقْتِرَابِ

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٦٢٥/٥، جابر بن موسى الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) التحرير والتنوير / ٢٦ / ١٤٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠ / ٢٣٣ .

أجله ﷺ وتهيؤه للقاء ربه ﷻ وهذا ما فهمه بعض ذوى الأفهام النافذة من الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - كأبى بكر وعمر والعباس وابنه وابن مسعود - رضى الله عنهم -، قال القمى: (وقد اتفق أكثر الصحابة على أنها دلت على نعي الرسول ﷺ وفهمه بعض الصحابة منها، وخطب رسول الله ﷺ بعد نزولها فقال: إن عبداً خيرّه الله بين الدنيا وبين لقائه في الآخرة فاختر لقاء الله) (١).

كما توافرت الأحاديث على ذلك ومن ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس ؓ قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: ومارأيت دعاني يوماً إلا ليبريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: "أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا"، وقال بعضهم: "لا ندري"، أو لميقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس، أذلك قولك ؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم) (٢).

وقد دلت هذه السورة على علامة اقتراب أجله ﷺ وهى نصر الله ﷻ لنبىه وفتح مكة ودخول العباد فى الدين أفواجا، فإذا تحقق ذلك فقد أكمل الرسول ﷺ مهمته وأدى ما عليه فأمره الله ﷻ بمداومة التسبيح والاستغفار استعداداً للقاء الرب ﷻ، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (المراد من هذه السورة أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٨٥ / ٦ .

(٢) الجامع الصحيح، ٤ / ١٩٠١، محمد بن إسماعيل البخارى، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م .

دعوتهم إليه أفواجاً فقد اقترب أجلك، فتهياً للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا^(١) ولذا تسمى هذه السورة - كما في كتب المفسرين - بسورة التوديع .

كما أن في السورة ملمحاً آخر ألا وهو أن الأمر للنبي ﷺ بملازمة التسبيح والاستغفار فيه انشغال له ﷺ عن أعباء إبلاغ الرسالة وتعليم الناس (ولا يخفى أن الاشتغال بهذه الأعمال يمنع من الاشتغال بأعباء التبليغ وبأداء ما كان يواظب عليه من رعاية مصالح الأمة ، فكان هذا كالتنبية على أن أمر الرسالة قد تم وكمل بسبب الموت)^(٢).

أما الأمر الأخير فهو أن إشارة السورة إلى النصر المبين والفتح الكبير هي دلالة على تمام الدين وكمال الرسالة وتحقيق الغاية التي من أجلها أرسل الرسول ﷺ، وقد جرت سنة الله ﷻ في كونه أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، قال أبو البقاء الراندى فى قصيدته الرائعة :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانٌ *** فَلَا يُغَرِّ بِطِيبِ الْعِيشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولٌ *** مَن سَرَّهُ زَمَنُ سَاعَتِهِ أَرْزَامَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ *** وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالِ لَهَا شَانُ
وفى ذلك درس للمرء ألا يغتر بما آتاه الله ﷻ وليعلم أن الدنيا دار زوال والآخرة دار بقاء .

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ص ١٩٨، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٨٧/٦ .

﴿سورة الكافرون﴾

وفيها مسألتان :

المسألة الأولى: لم بدأت السورة بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ ولم

تقل: "الذين كفروا" ؟

اختارت السورة النداء عليهم بيا أيها الكافرون بدلا من الذين كفروا لأن هناك فرق بين الصيغتين، لأن هذه السورة قد نزلت فيهم كاملة فكان لا بد أن يكون وصف "الكفر" لهم ملازماً وملاصقاً، فكان استعمال صفة الكافرون أولى في هذا المقام حيث يدل على أن الكفر صفة ملازمة لهم، ثابتة فيهم، وأنهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق؛ لأنهم ليسوا على دين، خلافاً لما كانوا يدعون من أنهم على دين إبراهيم عليه السلام؛ وإنما هم أصحاب ظواهر يهتمهم أن يستروها لأنهم كافرون، ولا التقاء بين الكفر والإيمان في طريق .

بيد أن النداء عليهم بـ "يا أيها الذين كفروا" لا يحمل نفس هذه الملازمة في الصفة حيث يحتمل أن يكونوا قد آمنوا ثم كفروا ، أو كفروا في الماضي وسوف يؤمنون في المستقبل ، أى أن معنى ملازمة الكفر ودلالته أقوى في الوصف الذى استعملته السورة عنه فى "يا أيها الذين كفروا" .

المسألة الثانية: ما الفرق بين ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ و ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ ؟

والجواب: أنالجملة الأولى صياغتها فعلية ﴿أَعْبُدُ﴾ فعل مضارع، والجملة الثانية صياغتها اسمية ﴿عَابِدٌ﴾ اسم فاعل، ومعلوم أن بينهما فرق فى الدلالة وبيانه كما يلى :

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ هذا فعلٌ مضارع، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ هذه اسمُ فاعل، وشتانَ بين الكلمتين، فإذا قلتَ: لا أعبد، فأنا أنفي عن نفسي فعلَ العبادة، ولكن إذا قلتَ: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ ، فأنا أنفي عن نفسي إمكانيَّة العبادة، كأن تقول: فلانٌ

لم يسرق، فأنت هنا نفيت عنه فعل السرقة، أما إذا قلت: ما هو بسارق فقد نفيت عنه إمكانية السرقة، فلا يُعقل أن يسرق، فاسم الفاعل أشد في النفي من الفعل المضارع، فله معنى الاستمرار، مثلاً أنا أكتب، يُمكن أن أكتب مرة في حياتي، فيقال: أنا أكتب، فعل مضارع، أما أنا كاتب، فهي تعني أن مهنتي الكتابة، فربنا عز وجل قال: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ وفي الثانية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ فيصير المعنى: فلا أعبد آلِهَتكم، وليس عندي إمكان إطلاقاً أن أعبدها، لا أعبدها ولن أعبدها! فالإمكانية مُنعدمة، فالأول نفينا به الفعل، وفي الثاني نفينا الإمكانية هذا معنى آخر من معاني التكرار.

وفي السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

حيث يتوقف المسلم المهتم بسنة حبيبه ﷺ ليتساءل عن سر جمع الرسول ﷺ كثيراً بين سورتي "الكافرون" و"الصمد" في كثير من صلوات السنن، ومنها: سنة الفجر، وسنة المغرب، وركعتي الطواف .

والسبب في ذلك راجع إلى دلالة السورتين على التوحيد لله ﷻ وإخلاص المعتقد والعبادة والتوجه له ﷻ، وهذا ما عبّر عنه ابن قيم الجوزية حين أشار إلى أن هاتين السورتين قد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد بدونهما، وهما :

(النوع الأول: توحيد العلم والاعتقاد، المتضمن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، من الشرك والكفر، والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفواً أحد، فيكون له مثل. ومع هذا فقد اجتمعت له جل جلاله صفات الكمال كلها؛ فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق بجلاله من الشريك أصلاً وفرعاً، وشبهاً ومثلاً.. فهذا هو توحيد العلم والاعتقاد.

والنوع الثاني: توحيد القصد والإرادة؛ وهو أن لا يُعبد إلا إياه، فلا يُشرك به في عبادته سواء، بل يكون وحده هو المعبود. وسورة (الكافرون)

مشملة على هذا النوع من نوعي التوحيد، فتضمنت بذلك السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له (١) .

وعلى هذا فإن سورة الكافرون قد حوت التوحيد العملي بينما حوت سورة الإخلاص التوحيد العلمي العقدي، فاستحققتا أن تجمعا معاً في الصلاة، أخرج ابن حبان في صحيحه: باب "ذكر إثبات الإيمان لمن قرأ سورة الإخلاص في ركعتي الفجر"، وساق بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾، فقال النبي ﷺ: "هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ"، وقرأ في الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى انقضت السورة، فقال النبي ﷺ: "هَذَا عَبْدٌ آمَنَ بِرَبِّهِ" (٢).

(١) بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ١ / ١٣٨، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢) صحيح ابن حبان، ٢١٣/٦، باب النوافل ورقمه ١٤١٤.

﴿سورة الكوثر﴾

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: ما المراد بالكوثر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾ ؟

الجواب: الكوثر على وزن فوعل من الكثرة، وقد تعددت أقوال المفسرين في معناه، فالمشهور أن الكوثر نهر في الجنة وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (لما عُرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: "أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ مجوفاً فقلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر) ^(١) وبسنده أيضاً عن عائشة رضي الله عنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾ قالت: "هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه عليهما در مجوف آنيته كعدد النجوم، أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل على حافته قباب الدرّ المجوّف" ^(٢) وعليه قول أكثر المفسرين وقال عكرمة عن الكوثر: (هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة) ^(٣)، و (قال الفراء قال ابن عباس رضي الله عنه: الكوثر هو الخير الكثير) ^(٤)، وقول ابن عباس رضي الله عنه الأخير أعم وأشمل فيدخل تحت معناه كل ما سبق من خيري الدنيا والآخرة من الإسلام والنبوة والذكر الخالد ونهر الجنة وغير ذلك، ولذا روى (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "الكوثر" الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: إن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه) ^(٥).

المسألة الثانية: ما المقصود بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ ؟

في الآية الكريمة وقفات تحسن الإشارة إليها :

(١) صحيح البخارى، ٦ / ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٤ .

(٢) صحيح البخارى، ٦ / ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٠١/٨

(٤) تهذيب اللغة ١٠/١٠٢، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط ٢٠٠١ م .

(٥) صحيح البخارى، ٦ / ١٧٨، ورقمه ٤٩٦٦ .

الأولى: لابد أولاً من الإشارة إلى جمع هذه الآية بين لونين من ألوان العبادة: البدنية وأعنى بها الصلاة، والمالية وأعنى بها نحر الذبائح، وقد حاز نبينا ﷺ فيهما قصب السبق فكانت قررة عينه في الصلاة كما أخبر هو عن نفسه، وكان يكثر من النحر تقرباً إلى الله ﷻ وإطعاماً للناس، فقد روى أنه أهدى مائة بدنة ونحر بيديه منها ثلاثاً وستين بدنة مساوية لعدد سني عمره ، إذ مات ﷺ وله من العمر ثلاثة وستون عاماً .

الثانية: تأمل دلالة قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ (٢) ﴾ وما فيها من دلالة إخلاص العمل لله وحده وقصده بالعبادة وإفرادها له ﷻ، ولم يقل (وانحر لربك) حتى تتوافق أواخر الآيات وتتوحد خاتماتها بحرف الراء (الكوثر، وانحر، الأبر)، وهو ما يدخل في باب مراعاة الفواصل وتوحد الخواتيم وهو لون من ألوان علم البديع في البلاغة .

الثالثة: قوله ﷻ: ﴿وَانْحَرْ﴾ فالنحر هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة بالصدر، واتفق الفقهاء على أن النحر للإبل، والذبح للغنم، أما البقر فمتروك فيهبين النحر والذبح، وأجمعوا على أن ذلك هو الأفضل ولو عمم النحر في الجميع أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزاً ولكنه خلاف السنة.

وقالوا إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر هو طول العنق؛ إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم ببسر، بخلاف النحر في المنحر فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله، أما الغنم فالذبح مناسب لها والعلم عند الله. وقد خص النحر بالذكر هنا دون الذبح حثاً على التقرب إلى الله ﷻ بكرائم الأموال ونفائس النفقات، فالإبل هي أغلى أموال العرب وأنفسها، من باب قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ (١) .

الرابعة: قال كثير من المفسرين في اقتران الصلاة في الآية المباركة بالنحر: إن المقصود هنا صلاة عيد الأضحى لأنها تجمع بين صلاة العيد

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٦٧ .

ثم نحر الأضاحى بالترتيب المذكور فى الآية الكريمة، وأجمع أهل العلم على عدم جواز مخالفة الترتيب المذكور فى الآية الكريمة فصلاة العيد أولاً، ثم النحر ثانياً، وأن من تعجل فنحر قبل الصلاة فلا تجزئه أضحيته وإنما هى شاة لحم قدمها لأهله. وقيل إن المراد فى الآية الكريمة: كل الصلوات وسائر النحر دون تخصيص لصلاة عيد الأضحى، قال الشيخ الجزائرى: (فاشكر هذا الإنعام بأن تصلي لربك وحده ولا تشرك به غيره، وكذا النحر فلا تدبح لغيره تعالى وفي هذا تعليم لأمته، وهل المراد من الصلاة صلاة العيد والنحر الأضحية؟ لا مانع من دخول هذا في سائر الصلوات والنسك) (١).

المسألة الثالثة: ما معنى قوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣) ؟

الجواب: كلمة «شَانِئَكَ» مأخوذة من (الشنآن) وهو البغض وشدة الكراهية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (٢)، قال الزمخشري فى تفسيرها: (لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم) (٣).

أما معنى «الْأَبْتَرُ» فالأبتر مأخوذ من البتر وهو القطع، وبترت الشئ أى قطعتة، وكل أمر انقطع عن الخير فهو أبتر، قال القرطبي: (قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذنب له) (٤) والذنب هو الذيل، وليبان معنى الآية الكريمة يجب الوقوف على سبب نزولها فإن بيان السبب بيان للآية، قال المفسرون: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: "قد بتر فلان"، فلما مات لرسول الله ﷺ ابنه القاسم بمكة وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده، فنزلت هذه الآية لترد عن النبی ﷺ وتدفع عنه، وتبين أن كل كارهى الرسول ﷺ هم المبتورون من الخير المقطوعون عن رحمة الله، قال

(١) أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير، ٦٢٢/٥ .

(٢) سورة المائدة / من الآية ٨ .

(٣) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ١ / ٦١٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/٢٠ .

الداودي (كل شأنئى رسول الله ﷺ فهو أبتر ليس له يوم القيامة شفيع ولا حميم يطاع) ^(١).

وفى السورة ثلاث لطائف يحسن الوقوف عندها :

اللطيفة الأولى: إن المتدبر فى علاقة سورة الكوثر بالسورة السابقة عليها وهى سورة الماعون يجد ترابطاً عجيباً بين موضوع السورتين، بما يدل على إعجاز ترتيب سور القرآن الكريم، فقد ختمت سورة الماعون بقوله ﷻ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ وبدأت سورة الكوثر بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ومنه النهر فى الجنة، أي لئن كان المنافقون يمنعون الماعون فإننا أعطيناك الكوثر، وقد جاءت سورة الكوثر فى مقابل سورة الماعون، فقد ذكر الفخر الرازى أن سورة (الماعون) قد وصفت المنافقين بأربع صفات، ثم ذكر ما يقابلها من أوامر وصفات لسيد الخلق وإمام المرسلين وقُدوة العالمين فى سورة (الكوثر)، فأما صفات المنافقين المذكورة فى سورة (الماعون) فأولها: البخل وهو المراد من قوله: ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣)﴾ وذكر ما يقابلها فى سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي إنا أعطيناك الكثير، فأعط أنت الكثير ولا تبخل بالصفة الثانية للمنافقين هى ترك الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾، وقابلها فى سورة الكوثر بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي داوم عليها، والصفة الثالثة: المراعاة فى الصلاة هو المراد من قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦)﴾ وقابلها فى سورة الكوثر بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لمراعاة الناس، أما الصفة الرابعة: المنع من الزكاة وهو المراد من قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ فذكر فى (سورة الكوثر) فى مقابلها: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي وإطعام الفقراء والمحتاجين. ثم ختمت سورة (الكوثر) بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة فى تلك السورة

(١) الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ٤/٤٤٦ .

سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل وفى الآخرة الثواب الجزيل.

فتأمل - يارعاك الله - هذا التناسب العجيب بين هاتين السورتين الكريمتين .

اللطيفة الثانية: يمكن للقارئ المتدبر فى هذه السورة الكريمة أن يجد فيها ملازمة معنى الوصل والقطع، فقد خُتمت السورة السابقة عليها وهى سورة (الماعون) ببيان صفة المنافقين فى قطع الماعون والمساعدة عن المحتاجين وبدأت سورة (الكوثر) ببيان وصل الله ﷻ لنبيه ﷺ بالخير الكثير والشرف العظيم، كما أن الله ﷻ قد وصل نبيه ﷺ بالكوثر والخير الجزيل، وقطع عدوه فجعله أبتر الخير والذكر فى الدنيا والآخرة، فكأن الله ﷻ يقول لنبيه ﷺ إنا نعطيك ونقطع من يعاديك .

وتأمل أيضاً المناسبة بين النحر الذي فيه قطع حياة - أى حياة الحيوان المنحور - لوصل وإحياء حياة أهم وهى حياة المسكين الجائع ، كما تتوافر دلالة القطع والوصل فى السورة فى قطع أعداء الحق، ليكون فى ذلك وصل لحياة الحق فى قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ .

أما اللطيفة الثالثة: فتكمن فى أن هذه السورة مع قصرها - فهى أقصر سورة فى القرآن الكريم كله - قد حوت جملة من جمال المعاني، وتناسق الكلمات والحروف، واشتمال اللفظ القليل على معانٍ جليلة عظيمة، فلتنظر أولاً إلى حروف السورة على صغرها وكيف أنها متناسقة تكرر فيها لفظ الراء الذي فيه التفخيم، بحيث إذا قرأه القارئ يفخم الصوت من فمه لاسيما فى كلمة الكوثر ، فيشعر بالعظمة والانبهار، وكيف فيه أيضاً القطع الذي يملأ النفس الإنسانية بالشعور بالقوة عند الوقوف على قوله تعالى: ﴿الْأَبْتَرُ﴾.

كما استوعبت سورة الكوثر على صغرها عدداً من الضمائر المتعددة، ففيها مثال على الضمير البارز ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾، وعلى الضمير المستتر

﴿فَصَلِّ﴾ و﴿أَنحَرْ﴾، والضمير المتصل ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾، والضمير المنفصل ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، وضمير المتكلم ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾ وضمير المخاطب ﴿شَأْنِكَ﴾، وضمير الغائب ﴿هُوَ﴾، وضمير المفرد وضمير الجماعة مجتمعين في ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾، كما تعدد المحل الإعرابي للضمائر في السورة فجاء الضمير في محل رفع فاعل وهو (نا) الدالة على الفاعلين أو عظمة وتفخيم الفاعل المفرد في كلمة ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾، وجاء الضمير في محل نصب مفعول به وهو الكاف في ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾، وجاء الضمير في محل جر مضاف إليه في الكاف في كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ .

ومن العجب في هذه السورة المباركة أن الكلمات الدالة على الرب ﷻ جاءت ثلاثة، والكلمات الدالة على حبيبه ﷺ جاءت ثلاثة، والأعجب أن هذه الكلمات الدالة على الله ﷻ ورسوله ﷺ قد جاءت متناسبة مرتبة الحالات الإعرابية: النصب ثم الرفع ثم الجر، فالأولى الدالة على الله ﷻ (نا) في كلمة ﴿إِنَّا﴾ وهي في الأصل مكونة من كلمتين (إن الناسخة، ونا الدالة على الله ﷻ) وهي اسم إن في محل نصب ثم ﴿نا﴾ الدالة على عظمة الله ﷻ في كلمة ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾ وهي في محل رفع فاعل، ثم (رب) في كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ وهي مجرورة بحرف الجر ، أما الكلمات الدالة على نبينا محمد ﷺ فهي الكاف في قوله ﴿أَعْطَيْتَكَ﴾ وهو ضمير في محل نصب مفعول به، ثم الضمير المستتر في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ وهو ضمير مستتر في محل رفع فاعل، وأخيرا الكاف في كلمة ﴿لِرَبِّكَ﴾ وهي ضمير في محل جر مضاف إليه، فاتفقت الكلمات الدالة على الله ﷻ ونبيه ﷺ في الحالات الإعرابية: النصب فالرفع فالجر على التوالي. فسبحان من أحكم آي القرآن العظيم.

﴿سورة الماعون﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣)﴾ لم خص اليتيم بالدع وخص المسكين بالحض؟ ولم قدمت الآية ذكر اليتيم على المسكين ؟

الجواب: يجب أولاً معرفة معنى (الدع) فى قوله تعالى: ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢)﴾، (فالدع من الفعل دَعَّ يدع دعاً أى دفعه) ^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣﴾ ^(٢) أى (يُدفعون فيها دفعاً) ^(٣)، وعلى هذا فإن الدع لا يكون إلا دفعاً بغلظة وعنف، وقد تعددت أقوال المفسرين فى تحديد من نزلت فيه هذه السورة فقليل نزلت فى أبى جهل أو أبى سفيان أو الوليد بن المغيرة (فأبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه، أو أبو سفيان نحر جزوراً فسأله يتيماً لحماً فقرعه بعصاه، أو الوليد بن المغيرة) ^(٤)، ولا يخفى أن الآية تنطبق على كل منافق ومكذب بيوم الدين كان هذا حاله فكما هو معروف أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

أما (الحض) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣)﴾ فهو بمعنى الحث والنصيحة، فهذا الخبيث لا يحث غيره على إطعام المساكين فكيف تظن أنه سيطعمهم بنفسه ؟ وقد صورت الآية شدة بخله وخبث نفسه فى هذه الصورة المعبرة فهو يبخل بالنصيحة على غيره لإطعام المسكين فكيف يُتصور ممن كان هذا حاله أن يطعم المسكين من حر ماله وقد بخل أن يطعمهم من مال غيره ؟ .

(١) مختار الصحاح ٢١٨/١، محمد بن أبى بكر الرازى ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ.

(٢) سورة الطور/ آية ١٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٣١/٧

(٤) تفسير البيضاوى ٥٣٤/٥

وقد ذكر ربنا ﷻك الدع والدفع بعنف مع اليتيم الذى فقد العطف والحنان والرعاية والاهتمام بموت والده ومن يقوم على مصالحه لتبشيع صورة هذا المكذب بالدين، فهو يدع اليتيم الصغير ويدفعه بقسوة وغلظة، ولا يترفق به أو يعطيه من الحنان والرأفة ما هو فى أمس الحاجة إليه، إذ لا والد يحميه ولا قرابة تنتصر له، فهو فى ذل بين الناس لا يملك من يرد عنه أذاهم، وقد جاء بالفعل المضارع (يدع) الذى يفيد التجدد والاستمرار لبيان أن هذا العنف والدع صفة متكررة فى هذا المنافق وسمة ملازمة له فى كل مرة يطلب منه اليتيم العون والغوث، أما من فعل هذا مرة ثم ندم عليه وتاب فإنه لا يدخل تحت هذا الوعيد .

ثم عبّر ربنا ﷻك عن موقف هذا المنافق مع المسكين بامتناعه عن الحض على إطعامه وقد كثر اقتران المسكين بالإطعام فقال ربنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤)﴾^(١)، وقال: ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ (٤٤)﴾^(٢) ، وقال: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨)﴾^(٣)، وفيه دلالة على شدة احتياج المسكين للطعام لعوزه وفقره وحاجته، فالمسكين من المسكنة والعوز والحاجة وأشد ما يحتاجه المرء هو الطعام ففيه قوام حياته، ومن ثم أكثر القرآن من الربط بين المسكين وبين الإطعام .

وأرى أن تقدم ذكر اليتيم على المسكين فى السورة للدلالة على شدة حاجة اليتيم - الذى فقد حنان الأبوة وعطف الوالدين - إلى تعاون المجتمع المسلم معه وتعويضه عما فقده من حب ورعاية تؤثر على سلامة نفسيته وبناء شخصيته، وهذه الخطوة إذا فقدها اليتيم فسيتحول إلى مسكين لا يجد طعام يومه، فكانت أولى خطوات محاربة حاجة المسكين إلى الإطعام هى الاهتمام باليتيم وحسن رعايته ... والعلم عند الله ﷻك .

(١) سورة الحاقة / الآيتان ٣٣ - ٣٤ .

(٢) سورة المدثر / ٤٤ .

(٣) سورة الفجر / ١٨ .

المسألة الثانية: ما سر الربط بين دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين من جهة، والسهو عن الصلاة من جهة أخرى ... في قوله تعالى: ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾؟

والجواب: إن الارتباط بين الخصلتين في هؤلاء المكذبين واضحة، فقد دلت الصفة الأولى على إضاعة حق المخلوق، بينما دلت الصفة الثانية على إضاعة حق الخالق، فكما قصرُوا في شأن المخلوق حيث زجروا اليتيم ولم يحضوا على إطعام المسكين فقد قصرُوا في طاعة الخالق فما صلوا وما زكوا، وياخسارة من أضاع حق العباد ورب العباد .

المسألة الثالثة : لَمْ قَالَ رَبَّنَا : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾ وَلَمْ يَقُلْ (فِي صَلَاتِهِمْ)؟

والجواب: بأن استعمال حرف الجر (عن) في الآية نعمة من الله ﷻ ورحمة بعباده ورفع للمشقة والحرص عنهم فالدلالة كبيرة بين التعبيرين (عن صلاتهم) و(في صلاتهم) فالأولى تدل على أن السهو ليس في أثناء تأدية الصلاة، بل هم يسهون عنها بمعنى يسهون عن فعل الصلاة ، وهذا السهو قد يكون له عدة معانٍ منها (ألا يُبالون بها، لأنهم لا يعتقدون وجوبها) ^(١)، أو يكون السهو عنها يعني (تركها رأساً أو فعلها مع قلة مبالاة بها) ^(٢) ومن بين معاني السهو عن الصلاة ما ذكره ابن عاشور من أنه (يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدّون الصلاة إلا رياء، فإذا خلوا تركوا الصلاة) ^(٣)، وقيل في معنى السهو عنها أي (يؤخرونها عن أوقاتها، وقيل: لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها) ^(٤)، قلت: ويؤكد هذا المعنى قراءة عبد الله (الذين هم عن صلاتهم لاهون) ^(٥) .

(١) البحر المنيد ٥٤١/٨ .

(٢) غرائب القرآن ٥٧٣/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢١١/٢٠ .

(٥) المرجع السابق ٢١١/٢٠ .

وهذا كله بخلاف معنى (فى صلاتهم) التى تدل على السهو فى أثناء تأدية الصلاة مما يحدث لكل الناس من وسوسة الشيطان وأحاديث النفس، ولذا قال عطاء: (الحمد لله الذى قال: ﴿عن صلاتهم﴾، ولم يقلفى صلاتهم)^(١)، ولو قال (فى صلاتهم) لدخل كل المسلمين تحت هذا التهديد والوعيد ولصار حديث النفس للمسلم المصلى فى صلاته مدعاة الهلاك والثبور وهذا لا يكاد ينجو منه أحد، قال الزمخشري: (فإن قلت: أى فرق بين قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥)، وبين قولك: (فى صلاتهم) ؟ قلت: معنى "عن" أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين، ومعنى "فى" أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم)^(٢)، ومما يؤكد أن السهو فى الصلاة لا ينجو منه أحد ما ورد فى الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن بحينة رضي الله عنه أنه قال: (إن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهر لم يجلس بينهما فلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم بعد ذلك)^(٣)، فدلّ هذا على وقوع السهو منه ﷺ فى الصلاة فوقوعه من غيره أكثر احتمالاً، ومن ثمّ شرّع سجود السهو فى الصلاة على النحو الموضح فى كتب الفقه .

المسألة الرابعة: ما المراد بالماعون، فى قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) ؟

والجواب: الماعون عند أكثر المفسرين (اسم جامع لما لا يُمنع فى العادة ويسأله الفقير والغني فى أغلب الأحوال، ولا يُنسب سائله إلى لؤم بل يُنسب مانعه إلى اللؤم والبخل، كالفأس والقدر والدلو والمقدحة

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢١٢ .

(٢) الكشف ٤ / ٨٠٥ .

(٣) أحكام القرآن محمد بن عبد الله بن العربي ، ٨/١٤٩، دار الكتب العلمية لبنان .

والغربال والقدوم ويدخل فيه الماء والملح والنار) ^(١)، فدل هذا على شدة بخلهم وخبت طباعهم حتى أنهم يمنعون عن الناس أدنى خير لا يضيرهم بذله ولا يكلفهم فعله عظيم جهد ولا كثير مال، (قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون هو الماء وأنشدني فيه: "يمج بغيره الماعون مجاً"، ولعله خصه بذلك لأنه أعز مفقود وأرخص موجود، وأول شيء يسأله أهل النار الماء كما قال ربنا: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ ^(٢)، وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء كما قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ^(٣) ^(٤)، ومن بين أقوال المفسرين في الماعون أنها هي الزكاة لأن من دلالة الماعون الشيء القليل، وسميت الزكاة ماعوناً لأنها رُبْع العشر من المال إذا بلغ نصاباً وحال عليه الحول فهي قليل يؤخذ من المال الكثير، وكأن الله ﷻ قد ذكر في هذه السورة حقه ﷻ على عباده في الصلاة، وحق عباده بعضهم على بعض في الزكاة ... والله أعلى وأعلم .

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٧٤/٦

(٢) سورة الأعراف / من الآية ٥٠ .

(٣) سورة الإنسان / من الآية ٢١

(٤) مفاتيح الغيب ١٠٨/٣٢

﴿سورة قريش﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما معنى الإيلاف في قوله تعالى: ﴿إِيْلَافِ قُرَيْشٍ﴾ (١) إيْلَافِهِمْ؟

والجواب: الإيلاف إما أن يكون مأخوذ من (إِلف) بمعنى العهد والأمان وهو مصدر من أَلَفَ بمعنى أَلَفَهُ لأن في العهد ألفة واجتماع كلمة، ويقال له أيضاً إلف وإِلف، ويكون معنى ﴿إِيْلَافِ قُرَيْشٍ﴾ (١) أى العهود التي كانوا يأخذونها إذا خرجوا في التجارات فيأمنون بها، وكانت قريش قد عظمت في قلوب العرب ووقعت هيبتها في نفوسهم بعدما أهلك الله أبرهة وجيشه ودافع عن بيته وحرمه، فكانت العرب تقول عن قريش أنهم أهل الله وساكنو حرمه، وكانت قوافل قريش تسير في بلاد العرب لا يعترضها معترض ولا يغير عليها مغير، ولذا وقعت السورة في المصحف بعد سورة الفيل التي أوردت قصة هلاك أبرهة ليكون إنعام الله ﷻ على قريش متصل في السورتين، فبهلاك أبرهة ارتفعت مكانة قريش وهابها الناس فكان إيْلَافهم وأمنهم على تجارتهم، وكان أول من أخذ العهود والأمان لتجارات قريش هو هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ﷺ (فالإيلاف: الحبل؛ أي العهد الذي أخذه هاشم بن عبد مناف من قيصر - ملك الروم - وأشرف أحياء العرب لقومه بالألّا يتعرض لهم في مجتازاتهم ومسالكهم في رحلتهم) (١)، وهذه منة عظيمة امتن الله ﷻ بها على قريش أن مكنّ لهم وآمنهم في بلادهم وتجاراتهم لمجاورتهم بيته وسكناهم لحرمه ولذا قال ربنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿فَلَوْلا الْبَيْتُ لَتَخطفَ النَّاسُ تِجَارَتَهُمْ وَانْتَهَكُوا حُرْمَتَهُمْ وَسَلَبُوا أَمْوَالَهُمْ، قَالَ ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا

(١) الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، ٥٣/١، دار المعرفة - لبنان، ط ٢.

أَمِنَا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (١) .

وقد يكون الإيلاف مأخوذ من أَلَفَ الشئ يألفه أى اعتاد عليه وصار له عادة، وهى منة امتن الله ﷻ بها على قريش إذ كانوا أصحاب تجارة يطوفون بها فى أرجاء جزيرة العرب فلا يعترضهم أحد حتى اعتادوا السفر بأمان وصارت التجارة فى الصيف والشتاء لهم إلف وعادة لا ينقطعون عنها ولا يحملون لها همًا، فانتسعت تجارتهم وكثرت أموالهم وارتفعت مكانتهم بإنعام الله ﷻ عليهم لمجاورتهم بيته وسكناهم حرمة .

المسألة الثانية: ما أصل كلمة قريش ؟

والجواب: قال أهل اللغة فى أصل كلمة قريش وسبب تسمية القبيلة بهذا الاسم أقوالاً، منها :

- أنها من (تَقَرَّشَ القوم أى اجتمعوا، وقد سميت قريش بذلك لتقرشها أى تجمعها إلى مكة من حوالىها بعد تفرقها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب، وبه سُمى قصى مُجَمَّعًا.

- وقيل سميت قريش بهذا الاسم نسبة إلى قريش بن مَخْلَد بن غالب بن فهر كان صاحب عيرهم فكانوا يقولون قَدِمَتْ عَيْرُ قُرَيْشٍ وخرجت عير قريش) (٢) حتى غلب عليها هذا الاسم فسُمُوا به.

- وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهلَ تجارة ولم يكونوا أصحابَ ضَرَعٍ وزَرَعٍ من قولهم فلان يَتَقَرَّشُ المالَ أى يَجْمَعُهُ .

- أقول: ومن أطرف ما قرأت فى أصل تسميتها قريشاً بأنها مأخوذة من القرش وهى السمكة المفترسة فى البحر التى يهابها الناس ، قال ابن منظور: (وهى دابةٌ فى البحر لا تدع دابةً إلا أكلتها فجميع الدواب تخافها) (٣)، وقد سُميت قريش من القرش المعروف لهيبة العرب لها وتغلبها عليهم .

(١) سورة العنكبوت / من الآية ٦٧ .

(٢) لسان العرب ٦/٣٣٤

(٣) المرجع السابق ٦/٣٣٤

المسألة الثالثة: لم قال ربنا : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)﴾ ولم يقل رب الناس أو رب الكون أو أى وصف آخر؟

والجواب: لبيان مكانة هذا البيت وأن إنعام الله ﷻ عليهم مرتبط بمقامهم بجواره، فلو لا البيت الحرام لاجترأ الناس عليهم ومما يؤكد هذا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١)﴾ .

المسألة الرابعة : لم قدّم ربنا ذكر الإطعام من الجوع على الأمن من الخوف فى قوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ ؟

والجواب:إن السورة لما ذكرت رحلة الشتاء والصيف وهى تجارة قريش فى الشتاء إلى الشام، وفى الصيف إلى اليمن وأن أغلب تجاراتهم كانت طعاماً فناسب ذلك تقديم ذكر ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ على ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ .

كما ناسب تقدم ذكر الشتاء على الصيف مع تقدم ذكر الإطعام على الأمن لما فى الشتاء من برد شديد استلزم أن تكون حاجة الإنسان إلى الطعام فى الشتاء أكثر منه فى الصيف، أما الصيف ففيه يكثر الخوف من قطاع الطرق والهوام والزواحف فكانت حاجة الإنسان فيه إلى الأمن أكثر، فناسب هذا الترتيب والتناسق بين الشتاء والصيف تقدّم الإطعام على الأمن ... والله أعلى وأعلم .

(١) سورة العنكبوت / من الآية ٦٧ .

﴿سورة الفيل﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما دلالة الرؤية في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ ؟

قال جمهور المفسرين: إن الخطاب هنا للرسول ﷺ وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة - لأنه ولد بعدها - لكنه شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، فقام العلم بها مقام المشاهدة، فكأن الله ﷻ يقول له: (إنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة)^(١)، وفي ذلك إشارة إلى أن العلم الحاصل بالتواتر له من القوة والحجية ما يساوى الرؤية البصرية .

كما أن فيها دلالة على تمام التسليم لكلام الله ﷻ وشدة اليقين به، فكأن المؤمن يرى حادثة الفيل ويؤمن بكل ما ورد في قصتها في القرآن الكريم كأنه رآها رؤيا العين أو أشد.

المسألة الثانية: ماسر التعبير عن جيش أبرهة بأصحاب الفيل ؟

هنا وقفة بديعة وهي أن الله ﷻ لم يقل (مُلك الفيل) أو (أرباب الفيل) بل قال أصحاب الفيل ومعلوم أن المرء يصاحب بنى جنسه ومن هم على شاكلته، فكأن الله ﷻ نسبهم إلى الفيل ليبين وضاعة شأنهم وحقارة مكانتهم، وأنهم قد نزلوا من درجة البشرية إلى درجة البهيمية والحيوانية، بل أقل منها فإن الأصحاب ينسبون إلى أعلاهم شأنًا وأرفعهم منزلة، ألا ترى الناس يطلقون على الصحابة (أصحاب محمد ﷺ) فينسبونهم إلى نبيهم وهو أعلاهم منزلة، أما في هذه السورة فقد نسب الله ﷻ جيش أبرهة إلى الفيل فكأن هذا الحيوان كان خيراً منهم وأرشد سلوكاً، ألا ترى أنهم كلما وجهوه جهة الكعبة ليهدمها برك وقعد وكلما وجهوه بعيداً عنها هرول

(١) الكشف ٨٠٥/٤

هارباً، قال الفخر الرازى: (كأنه يقول لهم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) ^(١)، وهم لا يتعظون ولا يعقلون فكان هذا الفيل مع حيوانيته أرجح منهم عقلاً وأحفظ لحرمان الله منهم .

المسألة الثالثة: ما سر إهلاك الله تعالى لجيش أبرهة بالطيور دون غيرها ؟

وهذا سؤال قد يتبادر إلى الذهن حيث كان من الممكن أن يسلب الله ﷻ على جيش أبرهة الأسود فتفترسهم أو الحيات فتلدغهم، أو العواصف فتهلكهم، لكن العجيب أن يسلب عليهم الطيور وهى من ألطف المخلوقات وأكثرها أماناً للإنسان ، لكن هلاك جيش أبرهة جاء منها .

وقد بحثت في علة هذا الأمر في كتب عدة في التفسير فما وجدت لذلك جواباً شافياً إلا ما كان من محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ محمد بنصالح المغامسى إمام مسجد قباء فذكر في ثناياها علة إهلاك الله ﷻ لجيش أبرهة بالطير فكان معني قاله: إن الله ﷻ قد عذبهم بالطير، ولا يوجد أحد يوماً ما خوَّف أحدًا من ذريته أو من قرابته أو من الناس بالطير، لكن لما كان البيت قد جعله الله للناس أماناً خوَّفهم الله ﷻ من حيث يأمنون، فلو قابلتهم سباع البرارى والوحوش الكواسر ربما خافوا منها وهربوا لأنها مظنة القتل والهلاك، لكن أن تظلم طير فلا يمكن أن تكون مظنة الهلاك، لأنه لا أحد يخوَّف أحدًا بالطير، وإنما يخوِّفه بالحيات والعقارب والوحوش فهم لما أتوا لبيت آمن وأرادوا أن يهدموه خوَّفهم الله من حيث يأمنون ... والله تعالى أعلى وأعلم .

المسألة الرابعة: ما معنى «أبائيل»؟

والجواب: أبائيل أى: (جماعات يتبع بعضها بعضاً، يقال جاءت الخيل أبائيل: أي جماعات من هاهنا وهاهناقال النحاس: وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان وبل على فلان : أي تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له) ^(٢).

(١) مفاتيح الغيب ٩٤/٣٢

(٢) فتح القدير ٧٠٥/٥ .

﴿سورة الهمزة﴾

وفيها خمس مسائل :

المسألة الأولى: ما الفرق بين الهمزة واللمزة في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾؟

والجواب: الهمزة واللمزة كلاهما على وزن فُعْلَةٍ وهى احدى صيغة المبالغة وتعنى كثير الهمز واللمز، وقد تعددت أقوال العلماء فى معنيهما والفرق بينهما، فقالوا :

- الهمزة: الذي يغتاب الرجل في وجهه، واللمزة الذي يغتاب من خلفه .

- الهمزة: الذي يهزم الناس بيده، واللمزة : الذي يلمزهم بلسانه .

- الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسيه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه .

- الهمزة: المغتاب، واللمزة: العيَّاب .

قال الفخر الرازى: (واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب) (١) .

المسألة الثانية: ما العلاقة بين الآية الأولى والثانية ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)﴾ ؟

والجواب: إن الله ﷻ لما عاب هذا الهماز اللماز الذى يطعن على الناس وينتقص من أقدارهم وهو في الغالب يرفع نفسه على الآخرين ويرتفع عنهم ، فكأن سائلاً يسأل: ما الذى يدفع إنساناً إلى مثل هذا الخلق؟ والجواب أنه يظن نفسه أفضل من غيره، وإنما يكون ذلك بتملكه المال الذى يُشعره بقيمته، ولذا قال ربنا: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)﴾ فالأغلب فى حال من يملك المال ويكنزه أن يتفاخر بغناه ويحتقر غيره ويطعن فيهم

(١) مفاتيح الغيب ٨٧/٣٢

ويلمزمهم ولا شك أن بعض الناس من الأغنياء فيهم خير عظيم، ولكنهم قلة
لقول الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافِلٌ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى (٧) ﴿١﴾

المسألة الثالثة: لم ذكرت الآية جهنم بهذا الاسم ﴿الْحَطْمَةُ﴾ دون
غيره من الأسماء ؟

والجواب: أن الجزاء من جنس العمل فإنهم لما حطموا قلوب الناس
بالهمز والطعن فيهم وشدة احتقارهم والطعن عليهم عاقبهم الله ﷻ بأن
حطمهم في نار الحطمة التي تتسلط عليهم فتحرق أجسادهم، وتحطم
كبرياءهم ... أعاذنا الله وإياكم من حرها .

(وَأَصْلُ الْحَطْمِ فِي اللُّغَةِ الْكُسْرُ، قَالَ الْمَفْسُرُونَ الْحَطْمَةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ
النَّارِ وَهِيَ الدَّرَكَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ دَرَكَاتِ النَّارِ وَقَالَ مِقَاتٌ: هِيَ تَحْطُمُ الْعِظَامَ
وَتَأْكُلُ اللَّحُومَ حَتَّى تَهْجُمَ عَلَى الْقُلُوبِ) (٢).

المسألة الرابعة: لم وصفت النار بصفة ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ (٧) ؟

والجواب: الأفندة جمع فؤاد وهو القلب، وتبين الآية أن النار تتسلط
على جلودهم فتحرقها ثم تنفذ إلى لحومهم فتهلكها حتى تنتهي إلى أفئدتهم،
ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى
مسه، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه ؟

ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات
المعذب، (قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا
بلغت إلى الفؤاد، خلُقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم) (٣).

وهذا هو المراد من قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ (١٣) ﴿٤﴾، ومعنى
الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد، ولذا لما كان ثابت البناني

(١) سورة العلق / الآيتان ٦ - ٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٨٩/٣٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٥/٢٠ .

(٤) سورة الأعلى / الآية ١٣ .

يقرأ هذه الآية يقول: (تحرّقهم إلى الأبدية وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يظل يبكي) (١).

أما سبب تخصيص الأبدية بذلك فلأنها موطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة، فاستحقت هذه الأبدية التي حملت خبث الفكر وفساد المعتقد أن تتسلط عليها النار وتصل إليها.

المسألة الخامسة: ما معنى ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)؟

والجواب: إن النار مؤصدة أى مغلقة محكمة الإغلاق على الكفار فيها لا يجدون سبيلاً للهرب منها، ولا طريقاً للخروج من جحيمها، (قال ابن عباس: مُّوَصَّدَةٌ مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش، أي أغلقه) (٢)، وقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (٩) العمد والعُمد جمع عمود، قيل: أى فى أعناقهم الأغلال والسلاسل وهم موثقون فى أعمدة يعذبون، (قال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار) (٣)، وقيل: بل العمد الممددة هى لإغلاق أبواب النار وشدة إحكامها، ولذا ورد (في قراءة ابن مسعود عليه السلام: "إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة" وقال عطية العوفي: هي عمد من حديد، وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شددت بأوتاد من حديد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، وعلى هذا فقوله: مُّمَدَّدَةٌ صفة للعمد، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة، والممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير) (٤).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨

(٢) - المرجع السابق ٤٠٩/٨

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن ٦٠٠/٢٤، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠هـ

(٤) معالم التنزيل ٥٣١/ ٨

﴿سورة العصر﴾

وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما دلالة القسم بالعصر ولم أقسم الله تعالى به في هذه السورة ؟

والجواب: إن الله ﷻ أقسم بالعصر وهو خلق من مخلوقاته، وللخالق ﷻ أن يقسم بما يريد من خلقه فخلقه ﷻ من دلائل قدرته، والعظيم لا يقسم إلا بالعظيم، وهنا أقسم الله ﷻ بالعصر والمراد من العصر الزمن والدهر، والسؤال: ولم أقسم الله ﷻ به في هذه السورة على وجه الخصوص ؟

وتكمن الإجابة في ملمح مهم، وهو أن الله ﷻ تحدث بعد ما أقسم بالعصر على أن الإنسان في خسارة وأعظم الخسارة ضياع رأس المال، فما رأس المال الحقيقي للإنسان الذي لا يمكن تعويضه في حال خسارته ؟ إنه العمر المكون من سنين فشهور فأيام فساعات فثواني، أى العصر والزمن، ولذا أقسم ربنا بالعصر على خسارة الإنسان لأعظم ما يملكه ولا يحسن استغلاله وهو عمره الدنيوى الذى يتوقف عليه ربحه الحقيقى أو خسارته الحقيقى فى وقت الحساب الأخرى حيث النعيم الأبدى أو العذاب السرمدى .

أو أن يكون القسم بالعصر هنا بمعنى وقت صلاة العصر المعروفة وهى الصلاة الوسطى التى حثنا ربنا على المحافظة عليها، فى قوله ﷻ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(١)، قال الزمخشري: (أقسم بصلاة العصر لفضلها، ولأنّ التكليف في أدائها أشقّ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم)^(٢) .

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٣٨ .

(٢) الكشف ٨٠٠/٤ .

المسألة الثانية: لم ذكرت السورة التواصى بالحق والصبر؟ وما السر فى تقديم الحق على الصبر؟

الجواب: إن فتنة الإنسان فى دينه وانحرافه عن الطريق المستقيم إنما يكون بتعرضه لمرض الشبهات أو مرض الشهوات، فالشبهات تعرض لحقائق الدين والشبهات تعرض لأخلاقه، وأنجع دواء لهذين المرضين أن تعالج الشبهات باتباع الحق، وأن تعالج الشهوات بالتخلق بالصبر، ولا أنفع للمرء فى دينه ودنياه من التزام الحق والتخلق بالصبر فبهما حياة القلب وسعادة الروح .

وقد تقدم ذكر الحق على الصبر فى السورة الكريمة لأن ملازمة الحق أمر شاق على النفوس - إلا من رحم الله - فاستلزم ذلك أن يذكر الصبر من بعده، حتى يستمسك الإنسان بالحق مهما عرضت له الفتن، ومن هذا الباب وجدنا أن لقمان الحكيم لما وعظ ابنه وحثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علم - بما أعطاه الله من حكمة - أن دعوة الحق صعبة، وطريق الحق محفوف بالمشاق، فذكر بعدها مباشرة وصية ولده بالصبر على ما أصابه ، فقال فيما حكى الله عنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقِ الْمُنْكَرَ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ (١) ... والله أعلم

(١) سورة لقمان / من الآية ١٧ .

﴿سورة التكاثر﴾

وفيها مسألتان:

المسألة الأولى: ما المراد بقوله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ ؟

والجواب: ألهاكم أى شغلكم عما يجب عليكم الانشغال به، وأصل اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمر مهم، والتكاثر هو المفاخرة بالمال والولد ومتاع الحياة الدنيا، قال الفخر الرازى وغيره: (والخطاب للمشركون بقرينة غلظة الوعيد بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)﴾، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)﴾ إلى آخر السورة، ولأن هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ^(١)، ولا يعنى أن يكون الخطاب للمشركون عدم انتفاع المسلمين به، بل هم أحرص ما يكون على عدم الانشغال بأعراض الدنيا الفانية عن الاستعداد للعمل للدار الباقية خوف أن يفاجئهم الموت وهم فى غفلة عن فعل الخير وانشغال عنه .

أما ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ ففيها قولان :

الأول: أنكم داومتم على هذا التكاثر حتى فاجأكم الموت ودُفنتم فى القبور وقُبرتم بها، فما أغنى عنكم تكاثركم ولا تفاخركم، ولا منع عنكم الموت الذى نزل بكم، وعبرَّت الآية عن الدفن فى القبور بالزيارة، والزيارة تعنى عدم المكث فى المكان لفترة طويلة دلالة على أن المدفون فى القبر لن يستقر فيه إلى الأبد، بل هو مقيم فى قبره كما يمكث الزائر فى زيارته وسرعان ما يغادر مكان الزيارة لينقلب إلى بيته ومستقره ، وكذا المقبور فى قبره يمكث فيه ما شاء الله ﷻ له أن يمكث ثم يُبعث منه لينقلب إلى مستقره النهائى إما فى الجنة وإما فى السعير، وعبرَّت الآية عن هذا الأمر بصيغة الفعل الماضى ﴿زُرْتُمْ﴾ مع أنه لم يحدث بعد بل

(١) مفاتيح الغيب ٤٥٧/٣٠

سيزوروها ويقبرون فيها بعد موتهم دلالة على تحقق هذا الأمر وتأكد وقوعه حتى كأنه وقع بالفعل فصار ماضياً مقضياً .

ويتضح من هذا خطأ قول بعض الناس عن الميت الذى تم دفنه: (نُقل إلى مثواه الأخير) لأن القبر ليس مستقره الدائم بل سيمكث فيه كما يمكث الزائر فى مكان زيارته ثم ينصرف عنه إلى مثواه الحقيقى الأخير نسأل الله ﷻ أن يحسن لنا المثوى.

الثاني: أن تكون (حتى) هنا بمعنى الغاية، والمعنى: بلغ بكم التكاثر والتفاخر إلى الحد الذى جعلكم تذهبون للمقابر من أجل التكاثر بأصحابها المقبورين فيها والتفاخر بمآثرهم، لا من أجل الاعتاظ والاعتبار، فتحول غرض زيارة القبور من أمر يذكركم بالموت ويقربكم من العمل الصالح إلى معصية تُضاف إلى سجل معاصيكم وتزيد من شهوة الكبر والعجب فيكم ، ويؤيد هذا المعنى ما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه السورة، فقد ذكر الواحدى وغيره أن سورة التكاثر قد (نزلت في حين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما لحا فتعاندا السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيدياً وعزاً وعزيراً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثروهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، حتى زاروا القبور، فعدُّوا موتاهم فكثروهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية) (١).

المسألة الثانية: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟

الحقيقة كأنه يراها ولا ينكرها أو يكذب بها فهذا هو علم اليقين، فإذا رأى الحقيقة بعينه صارت عين اليقين، ثم إذا عايشها وتلبس بها وتعامل معها صارت حق اليقين، ولعل من أروع ما يُستدل به فى هذا المقام ما ذكره ابن القيم - رحمه الله - فى هذا الباب حيث ضرب مثلاً رائعاً ليوضح به هذه الدلالات الثلاثة، فقال: (وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٣٠٥، دار الباز للنشر والتوزيع، ط ١، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

أخبرك أن عنده عسلاً وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه فازددت يقيناً، ثم ذقت منه، فالأول: علم اليقين، والثاني عين اليقين، والثالث حق اليقين. فعملنا الآن بالجنة والنار علم يقين، فإذا أزلت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق، وبرزت الجحيم للغاوين وعابنها الخلائق فذلك عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حينئذ حق اليقين^(١).

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

أخرج مسلم في صحيحه في كتاب (الأشربة) قصة حدثت للنبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟"، قالوا الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا"، فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته المرأة قالت: "مرحباً وأهلاً"، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان؟" قالت: "ذهب يستعذب لنا من الماء"، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: "الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني"، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: "كلوا من هذه"، وأخذ المدينة فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"^(٢) .

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبي بكر ابن القيم ، ٤٠٣/٢ ، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م .

(٢) صحيح مسلم ، ١٦٠٩/٣ ، كتاب الأشربة ، باب "جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك" ورقمه ٢٠٣٨ .

وفى الحديث دليل على أن كل إنسان سيُسأل بين يدي الله ﷻ عما أنعم به عليه من نعيم الدنيا، لكن شتان بين سؤال الله ﷻ لعبده المؤمن ولعبده الكافر، فالمؤمن سيسأله الله ﷻ عما أنعم به عليه سؤال تعداد وبيان بخلاف الكافر حيث سيُسأل عن النعيم سؤال تقرّيع وامتهان، قال النووى - رحمه الله - فى شرحه للحديث: (وأما السؤال عن هذا النعيم فقال القاضي عياض: المراد السؤال عن القيام بحق شكره، والذي نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم وإعلام بالامتتان بها وإظهار الكرامة بإسباغها، لاسؤال توبيخ وتقرّيع ومحاسبة والله أعلم) (١).

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووى ، ٢١٤/١٣، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ .

﴿سورة القارعة﴾

وفيها خمس مسائل :

المسألة الأولى: لم سمي يوم القيامة بالقارعة ؟

والجواب: القارعة اسم من أسماء يوم القيامة المتعددة، وهى من القرع أى الضرب بالعصا، وكذا من المصيبة العظيمة التى تقرع آذان الناس وتأخذ بعقولهم وتخطف قلوبهم، قال ابن عباد: (وَالْقَارِعَةُ: الشديدة من قَوَارِعِ الدَّهْرِ وهى اسمُ القيامة) ^(١)، وقد سُميت بهذا الاسم بياناً لأهوالها التى تقرع قلوب الناس.

ثم تكرر ذكر اسمها فى قوله ﷻ: ﴿مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)﴾ لتحويل أمرها وتعظيم شأنها، قال العلامة السعدى - رحمه الله -: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وترعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)﴾ ^(٢) كأن العلم بها وتصور ما فيها من أهوال قد تجاوز حدود فهم البشر وتخيل عقولهم، فاحتاجوا إلى شرح وإيضاح فجاءت الآيات بعد ذلك تبين شيئاً من أهوالها .

المسألة الثانية: هل هناك تعارض بين وصف الله تعالى للناس يوم القيامة بالفراش المبيثوث فى هذه السورة، ووصفهم بالجراد المنتشر ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾ ^(٣) فى سورة القمر ؟

والجواب: إن الوصفين مكملان لبعضهما ولا تعارض بينهما على الرغم من اختلاف طبيعة الجراد المنتشر عن الفراش المبيثوث، هذا إذا سلمنا أن الجراد غير الفراش، إذ إن بعض المفسرين يرون أن الفراش هو صغار الجراد وبالتالي تصير دلالتهما واحدة لأن النوع واحد، قال ابن

(١) المحيط فى اللغة، إسماعيل بن عباد ١/١٦٩، عالم الكتاب، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٤هـ.
(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدى، ص٩٣٣، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .
(٣) سورة القمر / من الآية ٧ .

عجبية: (والفراش: صِغار الجراد، ويسمى : غوغاء الجراد، وبهذا يوافق قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (٧) ﴿١﴾).

أما إذا قلنا إن الجراد غير الفراش فيكون الوصفان معبرين عن حالتين مختلفتين للناس بعد البعث والانطلاق من القبور إلى الحساب: فالوصف الأول لهم لحظة خروجهم من قبورهم حيث يتفرقون من الهول والفرع في كل اتجاه كحال الفراش المبعوث أى المفرق يقال بثه إذا فرقه، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة ويؤكد ما ذكرناه قوله ﷺ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨) ﴿٢﴾، فالناس أول ما يُبعثون يتهارجون ويختلطون ويموجون وينتشرون على غير هدى فهذا هو حال الفراش المفرق المبعوث، وعند البعث يقومون جميعاً لا يتخلف منهم أحد - منذ أن خلق الله آدم وبنيه إلى قيام الساعة - فينطلقون في أعداد لا تُعد ولا تُحد، فهذا وصفهم بالجراد لما ينتشر في أعداد هائلة تفوق القدرة على الحصر ... والله أعلى وأعلم . كما أن هناك ملمحاً آخر في وصف الناس يوم القيامة بالفراش المبعوث وهو أن من عادة الفراش في الدنيا التكالب على ضوء النار حتى يسقط بعضها بعضاً فيها ويحترق بلهبها ، فعل وصف الناس يوم القيامة بالفراش المبعوث هو وصف خاص بالكافرين الذين يسقطون في نار جهنم بسوء أفعالهم التي أقدموا عليها في الدنيا وحث بعضهم بعضاً على الكفر وتكذيب الرسل فكان بعضهم يدفع بعضاً بسوء الصحبة وفساد العشرة إلى نار جهنم ... والله أعلى وأعلم .

المسألة الثالثة: لم وصف الله تعالى الجبال في هذه السورة بالعهن المنفوش، بينما اكتفى بوصف الجبال بالعهن فقط دون وصفها بالمنفوش في سورة المعارج فقال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٩) ﴿٣﴾؟

(١) البحر المديد ٨ / ٥٢٠ .

(٢) سورة النبأ / من الآية ١٨ .

(٣) سورة المعارج / الآية ٩ .

والجواب: لأبد من التأمل في السورتين لمعرفة السر في ذلك وهو ما يؤكد أهمية التدبر والتأمل في القرآن الكريم وقد ذكر الدكتور فاضل السمراي - حفظه الله - في علة ذلك وجوهاً، منها :

- (إن الله تعالى لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من "الْقَرْع"، وهو الضرب بالعصا ناسب ذلك ذكر النفس، لأن من طرائق نفس الصوف أن يُقرعَ بالمقرعة ، كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع (وهو من الْقَرْع) وهو فأس عظيم تُحطَم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفس أيضاً فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير.

- إن ذكر اليوم الآخر في سورة القارعة، أهول وأشد مما ذكر في سورة المعارج، فإنه لم يذكر في سورة المعارج إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه، في حين قال في سورة القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)﴾ فكرر ذكرها وعظمها وهولها، فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش، وكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفس كما هو ظاهر.

- ذكر في سورة المعارج أن العذاب ﴿وَأَقِيع (١)﴾ وأنه ليس له دافع ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)﴾، ووقوع الثقل على الصوف من غير دفع له لا ينفسه، بخلاف ما في القارعة فإنه ذكر القرع وكرره، والقرع ينفسه وخاصة إذا تكرر، فناسب ذلك ذكر النفس فيها أيضاً.

- إن الفواصل في السورتين تقتضي أن يكون كل تعبير في مكانه ، ففي سورة القارعة قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾، فناسب كلمة (المنفوش) كلمة (المبثوث)، أما في سورة المعارج فقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)﴾ فناسب (العهن) (المهل).

- ناسب ذكر العهن المنفوش أيضاً قوله في آخر السورة: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١١)﴾ لأن النار الحامية هي التي تُذيبُ الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة، في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَطَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦)﴾، والشوى هو جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في القارعة من كل ناحية. والله أعلم (١).

المسألة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، وقوله:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ هل توزن الأعمال على وجه الحقيقة ؟

والجواب: أنكر بعض الناس وزن الأعمال على وجه الحقيقة، وقالوا إن الوزن المذكور هو مجاز عن الحساب ولم يقتنعوا بكيفية وزن الأعمال والحسنات والسيئات وكلها أمور معنوية غير محسوسة ولا مادية، وهذا جهل منهم بأى القرآن وصحيح السنة وإعمال لعقولهم مع النصوص الثابتة، حيث ثبت في السنة أن الأعمال توزن في الميزان، وقد ورد لفظ الوزن والميزان في القرآن الكريم والسنة المطهرة في أكثر من موضع، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ (٢) وقد دلت السنة على أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان فقد روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن الله سيختص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول له: أتتكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتني الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول:

(١) لمسات بيانية ص ١٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء / من الآية ٤٧ .

لا يا رب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: "فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: "فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يتقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم" ^(١) وانظر وتأمل لفظ الحديث: (فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة) فدل هذا على الوزن بميزان حقيقى له كفتان. وثمة أمر آخر قاله العلماء فى قضية الوزن، حيث قالوا: إن صاحب العمل يوزن مع عمله فى الميزان واستدلوا على ذلك بما ورد فى الحديث (توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع فى كفة) ^(٢)، وفى هذا السياق فائدة جلية وهى أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: "اقروا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ^(٣) ^(٤).

كما وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال نفسها، كما فى صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان" ^(٥)، قال ابن أبى العز الحنفى: (فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: "الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام!")، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال وثبت أن الميزان له كفتان، والله ﷻ أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات ^(٦).

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد، ١١ / ٥٧٠، ورقمه ٦٩٩٤.

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد، ١١ / ٦٣٧، ورقمه ٧٠٦٦.

(٣) سورة الكهف / من الآية ١٠٥

(٤) الجامع الصحيح، ١١ / ٤٦٦، ورقمه ٤٧٢٩.

(٥) صحيح مسلم، ١ / ١٤٠، ورقمه ٥٥٦.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبى العز الحنفى، ص ٤٠٤، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١هـ

المسألة الخامسة: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَأْمُهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾ ؟
والجواب: إن من خفت موازين حسناته، وثقلت موازين سيئاته
فمصيره النار، وفي ﴿فَأْمُهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾ قولان:
الأول: أمه أى: مصيره ومأواه الذى يأوى إليه ويستقر فيه هو النار،
فمن أسماء النار الهاوية أى التى يهوى فيها الكفار، ولذا فسرنا ربنا
بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾.
الثانى: ﴿فَأْمُهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾ أمه أى رأسه ودماعه، هاوية أى ساقطة
من أعلى، والمعنى: أن الكفار يلقون فى النار من مكان عال فيسقطون
على أدمغتهم وأم رؤوسهم، قال ابن كثير: (معناه: فهو ساقط هاو بأم
رأسه فى نار جهنم، وعبر عنه بأمه-يعني دماغه- وروى نحو هذا عن
ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، قال قتادة: "يهوي فى النار على
رأسه"، كذا قال أبو صالح: "يهوون فى النار على رؤوسهم" (١).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٨

﴿سورة العاديات﴾

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى ؟ وعلام أقسم ؟

والجواب: أن الله ﷻ أقسم بالعاديات التي تضح، والموريات التي تقدح، والمغيرات وقت الصباح التي تثرن النقع وتتوسطن به الجمع، أقسم بذلك كله على أن الإنسان لربه لكنود ... فما معنى المقسم به والمقسم عليه ؟

اختلفت أقوال أهل التفسير في المراد من المقسم به وهو العاديات، ومن ثم في معاني الصفات التابعة لها على أقوال، من أشهرها :
إن العاديات هي الخيل التي تعدو أى تجرى بسرعة، والعاديات جمع عادية، وهى اسم فاعل من العدو وهو السير السريع، والعاديات هي: الخيول التي تسرع فى الجرى فتضبح، والضبح هو ترددأنفاسها فى صدورها عند اشتداد جريها .

(وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح "أح أح") (١)، قال صاحب اللسان: (والضَّبْحُ في الخيل أظهر عند أهل العلم، قال ابن عباس ﷺ ما ضَبَحَتْ دَابَّةٌ قط إِلَّا كَلَبٌ أو فرس) (٢) وعلى هذا فقد أقسم الله ﷻ بخيول المجاهدين التي تشدد وتعدو للإغارة على أعداء الله، فيخرج منها صوت الضبح لتسارع أنفاسها من فرط جهدها .

أما الرأى الثانى: فيرى أن العاديات التي أقسم الله ﷻ بها فى السورة هي الإبل، وبوجه خاص هي الإبل التي تحمل الحجيج يوم الحج لأداء مناسكهم، فقد أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس ﷺ (قال: بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل يسأل عن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (١) فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب ﷺ وهو تحت

(١) مفاتيح الغيب ٤٣٩/٣٠ .

(٢) لسان العرب ٥٢٢/٢ .

سقاية زمزم، فسأله عن: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)﴾ فقال: سألت عنها أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي؛ فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحا! إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى؛ قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي (عليه السلام) ^(١)، وعلى هذا فإن الضبح لا يمكن حمله على صوت تردد الأنفاس في صدورهما، لأن الضبح لا يصلح أن يكون في الإبل بل هو في الخيل فقط، وعلى هذا فقد قال بعض أهل اللغة: (من جعلها للإبل جعل ضبحاً بمعنى ضبعاً يقال ضبحت الناقة في سيرها وضبعت إذا مدت ضبعيها في السير) ^(٢).

والراجح أن المراد هو خيول المجاهدين بدليل ما بعدها من الضبح، قال العلامة السعدى: (أقسم الله تبارك وتعالى بالخيول، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات) ^(٣)، ثم قوله ﷻ: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)﴾ والإبراء هو إشعال النار، فوصف الله ﷻ هذه الخيل في شدة عدوها واصطكاك حوافرها بالحجارة فتتقدح منها الشرر، قال الزجاج: (إذا عدت الخيل بالليل أصاب حوافرها الحجارة فانقدح منها النيران) ^(٤)، وهذا يؤكد أن المقصود بالعاديات هي الخيل وليس الإبل إذ ليس للإبل حوافر تقدح بها الشرر، بل لها أخفاف - جمع خف - وهي لا تحدث هذا الأثر في الحجارة عند وقوعها عليها .

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣)﴾ هي الخيل التي يشن بها أصحابها الغارة على أعداء الله ورسوله وقت الصباح، ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا (٤)﴾ أى أثرن

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٥٩/٢٤ .

(٢) لسان العرب ٥٢٢/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٣٢

(٤) فتح القدير ٦٨٥/ ٥

وهيجن بعدوهن وغارتهن النفع - وهو التراب - فعلا وارفع، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥)﴾ أى توسطت تلك الخيول بركابها جموع الأعداء وخيامهم عند الإغارة عليهم .

كل هذا هو المقسم الذى أقسم الله ﷻ به ، فعلام أقسم الله ﷻ ؟
 أقسم ﷻ على أن ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ
 (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) .

المسألة الثانية: ما المراد بالكنود فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى معنى الكنود على أقوال تدور حول الجحود لنعم الله عليه والمنكر لفضله ونعمائه (وعن الحسن أيضاً : هو اللائم لربه، يعد السيئات وينسى الحسنات ، وقال الفضيل : هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة) (١)، قال القرطبي - رحمه الله - : (قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾ هذا جواب القسم، أي طبع الإنسان على كفران النعمة، قال ابن عباس: ﴿لَكَنُودٌ﴾ لكفور جحود لنعم الله) (٢) .
 وقيل إن كلمة ﴿لَكَنُودٌ﴾ ليست بلسان قريش، قال الفخر الرازى: (الكنود بلسان كندة: العاصي، ولسان بني مالك: البخيل، ولسان مضر وربيعة: الكفور) (٣) .

أما قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧)﴾ ففيها قولان :
 الأول: إنه أى الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود .
 الثانى: إنه أى الله ﷻ شهيد على جحود الإنسان، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

المسألة الثالثة: ما المقصود بالخير فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾ ؟

(١) البحر المحيط ٥٠١/٨ .
 (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦٠/٢٠ .
 (٣) مفاتيح الغيب ٦٤/٣٢ .

والجواب : المقصود بالخير هنا المال كما أجمع المفسرون ، فالإنسان يحب المال حباً شديداً ، وقد سمي الله ﷻ المال خيراً ، قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾^(١)، وقد سُمي «خيراً» لأنه لا غنى عنه لصالح دنيا الناس، بل وصلاح أخراهم إذا أحسن أخذه ثم وضعه في مواضع الإنفاق المأمور بها فيكون المال عندئذ خيراً للفرد والمجتمع، ولذا قال رسولنا ﷺ: (نعم المال الصالح مع العبد الصالح)^(٢)، وفي هذا رد على من يتهمون الإسلام بدعوته الناس إلى الفقر وترك الدنيا ، بل الأصل التوسط والاعتدال فيها وأن تكون الدنيا في يد المسلم لا في قلبه، ينفق من مال الله ﷻ الذى اكتسبه من حله على نفسه وأهله، ومواطن الإنفاق من صدقة وزكاة وصلة للأرحام وتفريج للكربات وفك للعانى وإطعام للبائس الفقير .

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

فالنظر فى هذه السورة المباركة يجدها قد رسمت لنا صورة متكاملة الأركان حول مشهد الإغارة على الأعداء وهو مشهد متراكب الأجزاء، متعدد اللقطات، يحمل بين ثناياه الحركات المتفاعلة والأصوات المتناغمة والألوان المتداخلة، فهامى الحركة يشعر بها القارئ فى عدو الخيل وإغارتها وتوسطها خيام الأعداء وإثارتها للفوضى فى المكان، ثم كأن القارئ للسورة يستمع بأذنيه إلى الأصوات الصادرة من ضبح الخيل واصطكاك حوافرها بالصخر عند العدو، ليشاهد بعينه الألوان المتداخلة كاحمرار الشر المتطاير من قدح الخيل للصخر بحوافرها ثم السواد والغبار الذى يلف مكان الغارة جراء النقع الذى يعلو فوق رؤوس الفرسان مع انبلاج أول خيط لضوء النهار .

(١) سورة البقرة / ١٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، باب المال الصالح للمرء الصالح ، ص ١١٢ ، ورقمه ٢٩٩ .

فسبحان مَنْ أبدع لنا هذه الصورة المتكاملة فى تفاصيلها، المنسجمة فى جزئياتها، المبدعة فى رسم كل هذه التفاصيل من حركات وأصوات وألوان للخيول العادية المجاهدة بعنفوانها وقوتها ورشاققتها وخفة حركتها .
ثم ينبغى لنا فى هذا السياق أن نطرح سؤالاً إجابته لنا واضحة مكشوفة إذا كان الله ﷻ قد أقسم بخيول المجاهدين لمكانتها ورفعته شأنها فما بالك بشأن راكبيها ، ومكانة المجاهدين أنفسهم عند الله ﷻ؟
لا شك أن هذه السورة هى أعلى وسام يحصل المجاهد فى سبيل الله عليه من سيده ومولاه الذى امتدح فرس المجاهد وأقسم بالعاديات إشارة إلى شرف الجهاد ومكانة المجاهدين فى سبيل الله ﷻ .

﴿سورة الزلزلة﴾

وفيها مسألتان :

المسألة الأولى: ما الأثقال التي ستخرجها الأرض في قوله ﷻ:
﴿وَأَخْرَجَتُ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ ؟

والجواب: الأثقال (جمع : ثَقْل ، وهو : متاع البيت) ^(١)، جعل الله ﷻ كل ما يُدفن في جوف الأرض أثقالاً لها من الكنوز والموتى (قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكاً للدماء: كان ثَقْلاً على ظهر الأرض، فلما مات حطت الأرض عن ظهرها ثقلها) ^(٢)

وقيل أيضاً: ﴿أَثْقَالَهَا﴾ هي كنوزها التي في باطن الأرض فتلقيها الأرض يوم القيامة على سطحها حتى يمر عليها الناس فلا ينظر إليها منهم أحد لانشغال كل امرئ منهم بنفسه وبعمله .

المسألة الثانية: ما المستفاد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)﴾ ؟

الجواب: إن الأرض تتحدث يوم القيامة (فتشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم) ^(٣)، أما كيف تتطق الأرض وتتكلم فهذا أمر غيبى يؤمن به العبد المؤمن وهو غير مستبعد على قدرة الله القدير ، ثم إن إيمان العبد بأن الأرض ستشهد عليه أو له بما فعله على ظهرها ليدفع العبد المؤمن أن يكثر فيها من أماكن الطاعات كالصلاة في المساجد المتنوعة وكثرة الخطا إلى المساجد، والمتابعة بين العمرة والحج، وصلة

(١) البحر المديد ٥١٤/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٧/٢٠ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٣٢ .

الأرحام، وقطع المسافات لعيادة المرضى وتفقد أحوال الأراامل واليتامى والسعى للإصلاح بين المتخاصمين، والجهاد فى سبيل الله ﷻ، فكل هذا وغيره مما ستشهد به الأرض يوم القيامة، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾^(١) فهذه من آثار العبد، وممشاه على الأقدام ينال بها شهادة الأرض له يوم القيامة .

بل إن الأرض لتبكي على من مات من الصالحين فوق ظهرها لانقطاع عمله الصالح عنها، وتفرح لموت الظالمين المجرمين لتخلصها من شرورهم وفجورهم، ألم يقل ربنا ﷻ عن آل فرعون لما أغرقهم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾^(٢) فدلَّ على أن السماء والأرض تبكي على من كان صالحاً ثم توفاه الله ﷻ.

(١) سورة يس / الآية ١٢ .
(٢) سورة الدخان / من الآية ٢٩ .

﴿سورة البينة﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : ما المراد بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾؟ وما البينة المذكورة في الآية ؟

والجواب: أى لم يزل الذين كفروا من أهل الكتاب أى من اليهود والنصارى والمشركين من سائر أصناف الأمم متمسكين بغيهم وضلالهم ولا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا، حتى تأتيهم البينة وهى الدليل الواضح والبرهان القاطع من عند الله ﷻ ، فما هذه البينة ؟ أوضحها الله ﷻ بقوله: ﴿الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣)﴾ فالبينة التى أقام الله ﷻ بها الحجة على كل الأمم السابقة هى إرساله لرسوله ونبيه محمد ﷺ وإنزاله عليه القرآن الكريم ليتلوه على الناس فيرشدهم به إلى الصراط المستقيم

المسألة الثانية: لم تفرق الذين أوتوا الكتاب بعدما جاءتهم البينة ؟

والجواب: هذا انتقاد من الله ﷻ لهم وفضح لخبث نفوسهم، فالأصل عند أصحاب الفطرة السليمة أن يتوحدوا وتتآلف قلوبهم ويهتدوا بعقولهم للطريق المستقيم، خاصة بعدما جاءتهم البينة الواضحة، يقول العلامة السعدى - رحمه الله - : (ولكنهم لرداعتهم ونذلتهم، لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى)^(١).

وهذا درس لنا فى اتباع الحق خاصة مع ظهور علاماته ووضوح أماراته... نسأل الله ﷻ أن يثبتنا عليه .

المسألة الثالثة: لم وصفت الآية الذين كفروا بأنهم ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)﴾ ؟

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٣١ .

والجواب: ﴿الْبَرِيَّةُ﴾ قرأها نافع (البريئة) بالهمز، وقرأ الباقلون بغير همز، وهو من برأ الله الخلق أى خلقهم وأوجدهم، والسؤال: لم كان الذين كفروا هم شر الخلق على الإطلاق؟ والجواب: لأنهم عرفوا الحق وخالفوه وجاءتهم الآيات البينات الواضحات فأعرضوا عنها، فكانت لهم عقول ما استفادوا بها وأبصار ما رأوا بها نور الله ﷻ، قال الفخر الرازى - رحمه الله - معقباً على هذه الآية: (واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها، شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ، وشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق، وشر من الجهال الأجلاف لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح، واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد) (١).

المسألة الرابعة: نفهم أن الله ﷻ قد رضى عن المؤمنين، فكيف نفهم رضى المؤمنين عن الله تعالى؟

والجواب: الأصل فى الرضا أنها المحبة وانعدام السخط، قال أبو هلال العسكري فى الفرق بين الرضا والمحبة: (قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا: ضده السخط) (٢)، قال الفخر الرازى: (وأصل الرضا أنه ضدّ الغضب، فهو المحبة وأثرها من الإكرام والإحسان، فرضي الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبته في قوله: ﴿يَحِبُّهُمْ﴾، ورضى الخلق عن الله هو محبته وحصول ما أمّله منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع، وعلى هذا فإن رضا الله تعالى عن العبد إنما يكون فى الآخرة، ورضا العبد عن الله تعالى إنما يكون فى الآخرة بما يراه العبد) (٣). وعلى هذا فإن رضا العبد عن الله ﷻ يأتى من رضاه بما يجرى عليه من أحكام الله ﷻ فى الدنيا، قال ابن عجيبة:

(١) مفاتيح الغيب ٤٨/٣٢.

(٢) الفروق اللغوية ٢٥٧/١.

(٣) مفاتيح الغيب ٤٢٨/٤.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية (١)، (قال محمد بن حقيق: "الرضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضا عنه ، فالرضا به رباً ومديراً، والرضا عنه فيما يقضي ويقدر) (٢)، فلما رضوا بأقداره جاءهم من ثوابه ونعمائه ما استراحت به قلوبهم واطمأنت به ضمائرهم فرضوا عن الله ﷻ بما نالوه من نعمة الدنيوية ومنه الأخرية، (حيث بلغوا من الأمانى قاصيها، وملكوا من المآرب ناصيتها، وأُتيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) (٣)، قال السهمي: (إذا كنت لا ترضى عن الله، فكيف تسأله الرضا عنك؟) (٤)، وفي قوله ﷻ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ زاد هذا التعبير حسناً ما وقع فيه من المشاكلة اللفظية .

(١) البحر المديد ٢ / ٣٢٦

(٢) الكشف والبيان ١٠ / ٢٦٢

(٣) البحر المديد ٨ / ٥١٢

(٤) الكشف والبيان ١٠ / ٢٦٢

﴿سورة القدر﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: لم سميت هذه الليلة بليلة القدر ؟

والجواب: ليلة القدر لها أكثر من دلالة، ومنها :

- إن القدر هو الشأن العظيم والمكانة العالية ومنه: فلان ذو قدر أى ذو مكانة بين الناس، فهذه الليلة ذات قدر أى مكانة ترفعها على غيرها من الليالى، ولذا قال ربنا بياناً لمكانتها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾، فهى ليلة ذات قدر نزل فيها كتاب ذو قدر على نبي ذى قدر بواسطة ملك ذى قدر فهى ليلة القدر .

- إن القدر بمعنى القَدَر وجمعها الأقدار ومقادير ، فهذه الليلة تُكْتَب فيها مقادير الخلائق من عامهم هذا إلى مثل هذه الليلة من العام القادم مصداقاً لقول ربنا ﷻ عنها فى سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)﴾^(١) حتى روى عن سعيد بن جبير - رحمه الله - أنه قال: (يُؤَدَّنُ لِلْحُجَّاجِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَيُكْتَبُونَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ فَلَا يُغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا يَزَادُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ)^(٢)، قال الفخر الرازى: (واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة فإنه تعالى قَدَّرَ المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل، بل المراد إظهار تلك الليلة المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ)^(٣) .

- وقيل القدر بمعنى التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(٤) ، وقد سُميت ليلة القدر بذلك لكثرة نزول الملائكة فيها حتى أن الأرض تضيق على أهلها مصداقاً لقول الله تعالى:

(١) الدخان / من الآية ٤ .

(٢) الكشف والبيان ١٠ / ٢٤٨ .

(٣) مفاتيح الغيب ٣٢ / ٢٨ .

(٤) سورة الطلاق / من الآية ٧ .

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ .

المسألة الثانية: كلنا يعرف أن القرآن قد نزل مفراً على مدار ثلاثين سنة، فكيف يستقيم هذا مع ما يُتوهم من أن القرآن قد نزل جملة واحدة في هذه الليلة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١)؟

والجواب: إننا حتى نفهم ذلك فلا بد من الحديث عن تنزلات القرآن الكريم التي ذكرها العلماء في "علوم القرآن"، حيث ذهب أكثرهم إلى أن القرآن الكريم (قد نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا وكان ذلك في ليلة القدر وهو ما ذكرته سورتا القدر والدخان، ثم نزل بعد ذلك من بيت العزة في السماء الدنيا إلى نبينا محمد ﷺ مفراً وفق الوقائع والأحداث وذلك على مدار نيف وعشرين سنة قيل ثلاث وعشرون وقيل خمس وعشرون سنة ، وبذلك يزول الالتباس .

وهناك من العلماء من ذهب إلى أن الله ﷻ كان يُقدّر ما سينزل من القرآن كل عام فيُنزل هذا المقدار في ليلة القدر من هذا العام إلى بيت العزة ثم ينزل مفراً طوال العام، حتى إذا انتهى العام انتهى معه ما قدر الله فيه أن ينزل من القرآن، ثم ينزل مقدار العام الجديد من القرآن في ليلة القدر في العام الجديد ليُحفظ في بيت العزة ثم ينزل هذا المقدار مفراً في العام، وهكذا كل عام، فيكون القرآن الكريم قد نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ثلاث أو خمس وعشرين ليلة قدر، بعدد السنين التي نزل فيها مفراً .

أما الرأي الثالث فيذهب إلى أن القرآن الكريم قد ابتدئ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات (١) .
ولكن الراجح الرأي الأول وعليه قول جمهور العلماء، وترجع علة تعدد نزول القرآن جملة واحدة في ليلة القدر ثم نزوله مفراً في ثلاث وعشرين سنة لإظهار مكانته وفضله على سائر الكتب السابقة .

(١) ويمكن في هذا الشأن مراجعة الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١/١٤٦، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢٢٨.

وفيه أيضا تفضيل نبينا ﷺ على غيره من المرسلين في أن كتابه قد نزل مثل كتبهم جملة واحدة ثم التفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجماً ليحفظه.

المسألة الثالثة: ما معنى أن ليلة القدر خير من ألف شهر ؟

الجواب: أى أن العبادة فيها تعدل عبادة ألف شهر، بمعنى أن الإنسان لو عمل عملاً صالحاً ألف شهر ليس فيها ليلة القدر كانت ليلة القدر خيراً منها لما فيها من الفضل العظيم والثواب الجزيل، فقد ثبت في الصحيحين حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) ^(١) وألف شهر أى ما يساوى ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر كل هذه الفترة لا تعادل فضل ليلة واحدة .

أما عن تحديد فضلها بألف شهر، فقيل: إن المراد ليس الألف شهر على وجه التحديد، وإنما أُطلق الألف وأريد به الكثرة وأراد بألف شهر جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف وتريد به الدلالة على كثرة الأشياء، كما قال ﷺ: «يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرَ أَلْفَ سَنَةٍ» ^(٢)، يعني جميع الدهر.

قال القرطبي: (إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها) ^(٣).

كما روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك فنزلت «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» ^(٣) فهي خير من ألف شهر من التي لبس الرجل فيها سلاحه في سبيل الله ^(٤).

(١) صحيح البخارى ٤ / ٥٧٤ ، ورقمه ١٩٠١ .

(٢) البقرة / من الآية ٩٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٣١ .

(٤) سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين أبوبكر البيهقي، ٤ / ٣٠٦ ، ورقمه ٨٣٠٥ ، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م .

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾

ما المراد بالروح ؟ ولم خص بالذكر مع الملائكة ؟

والجواب: الروح فى أقوال جمهرة المفسرين هو جبريل عليه السلام، فإن قال قائل: أليس جبريل من الملائكة فلم يذكر بعد ذكر الملائكة وهو داخل فى جملتها ؟

والجواب: إن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام للدلالة على أهميته وأن له شأنًا خاصًا يختلف عن غيره من الملائكة لشرفه ومكانته، فكأن جبريل - عليه السلام - ذكر مرتين: مرة عامة فى عموم الملائكة ، ومرة أخرى خاصة بذكره منفرداً بعدهم فى قوله تعالى: ﴿وَالرُّوحُ﴾، ومثاله أيضاً قوله ﷺ فى سورة البقرة: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(١)، حيث أفرد الصلاة الوسطى - وهى العصر - على أرجح الأقوال بالذكر مع أنها من جملة الصلوات التى أمرنا ربنا بالمحافظة عليها فى الآية، بيد أنه ﷺ كرر ذكرها لبيان مكانتها، قال الزمخشري: (وإنما أفردت وعظفت على الصلاة لانفرادها بالفضل)^(٢).

المسألة الخامسة: ﴿سَلَّمَ﴾ ما إعرابها وما المراد منها ؟

الجواب: جاءت كلمة ﴿سَلَّمَ﴾ مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى، وتكون الجملة "هى سلام"، وقيل فى المراد من ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: (إن الملائكة تسلم على المطيعين، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر، فتترادف النزول لكثرة السلام)^(٣)، (قال الشعبي: هو تسليم الملائكة فى ليلة القدر على أهل المساجد منحين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عز وجل)^(٤).

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٣٨ .

(٢) الكشف ٣١٥/١ .

(٣) مفاتيح الغيب ٣٥/٣٢ .

(٤) (باب التأويل فى معاني التنزيل ٢٧٦/٧-٢٧٧ .

الثانى: قيل المراد إن ليلة القدر سلام من الشرور والآفات (فهى ليلة سالمة من كل شر، لا يحدث فيها حدث ولا يرسل فيها شيطان، قاله مجاهد) ^(١).

أما القول الثالث فقيل: إن الله ﷻ لا يقدر فى هذه الليلة إلا كل خير (قال الضحاك: لا يقدر الله سبحانه فى تلك الليلة إلا السلامة ، فأما فى الليالى الأخر فيقضى الله تعالى فيهنّ البلاء والسلامة) ^(٢) .

لطيفة تحسن الإشارة إليها :

بعض القراء عندما يقرأ هذه الآية الكريمة ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾ يقف على كلمة ﴿سَلَامٌ﴾ ثم يبدأ القراءة من أول قوله ﷻ: ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾، ليكون المعنى أن وقت هذه الليلة المباركة ممتد من الليل حتى طلوع الفجر ... والله أعلى وأعلم .

(١) النكت والعيون ٣١٤/٦ .
(٢) الكشف والبيان ٢٥٨/١٠ .

﴿سورة العلق﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: ما دلالة أن تكون سورة العلق أول ما نزل من القرآن

الكريم ؟

والجواب: إن الثابت عند أهل التفسير أن سورة العلق أول ما نزل من القرآن، ومطلعها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ فهي أول ما لامس قلب رسول الله ﷺ من وحى السماء ، ولعل في ذلك بعض الإشارات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

إن في هذه البداية دليل على أن القرآن الكريم ليس من تأليف محمد ﷺ إذ لا يُعقل أن يكون أول ما ينطق به رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب أن يقول لأتباعه: ﴿اقْرَأْ﴾، فكان هذا دليل على أن هذا القرآن من أول وحيه وبدايته إلى نهاية عهده ومنتهاه إنما هو من عند الله ﷻ لا من تأليف محمد .

كما يدل على أهمية العلم والقراءة والكتابة في حياة المسلم وأن طلب العلم وإجادة تحصيله بحسن الخط وإتقان القراءة وجودة الكتابة هو مطلب شرعى حثنا عليه ديننا ودلنا عليه كتاب ربنا ﷻ من أول نزوله .

ثم تأمل ارتباط العلم بالإيمان في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ حيث يرشدنا ربنا إلى أن العلم بدون إيمان أوارتباط بنور النبوة ومنهج الإيمان إنما هو خراب ودمار للبشرية، وما نراه اليوم من ممارسات غير إنسانية في مجال العلم وهذه الاستخدامات غير الأخلاقية التي أدت إلى اختلاط الأنساب وإزهاق الأرواح وضياع الممتلكات إنما هو نتاج العلم بدون إيمان، كما أن الإيمان بدون علم هو إساءة إلى المجتمع المؤمن الذي ينتسب إلى دين جعل العلم عنواناً له، في رسالة إلى أتباعه إلى الحرص على العلم والتمسك بحبال المعرفة والتسلح بالقراءة والكتابة فهما بعد الإيمان ببسم الله ومنهجه وشريعته ضمان لتقدم الأمة ودوام سيادتها .

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) ؟ وما علاقتها بما بعدها ؟

والجواب: إن الله ﷻ الذى خلق الإنسان ويعلم ما فى نفسه يُخبر عن صفة فى هذا المخلوق ألا وهى الطغيان أى مجاوزة الحد فى الكبر والبطر إذا رأى فى نفسه الغنى وشعر باستغنائه عن غيره، عندئذ تتعاضم نفسه ويتفيه على الناس كبراً وإعجاباً بنفسه ، قال ابن عاشور: (أى من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أى أغلب الناس فى ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه) (١)، وقد أوضحت هذه الآية حقيقة نفسية فى أغلب بنى آدم ألا وهى الطغيان فى حال أن رأى نفسه مستغنياً عن غيره، وغيره محتاج إليه، والمعصوم من عصمه الله ﷻ .

ولذا جاءت الآية التى تليها : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (٨) وكأنها تنبيه لهذا الغافل المغرور بأن نهايته المحتومة هى الموت ثم الرجوع إلى ربه الذى أغناه ومن كل خير أعطاه، وما كان هذا من الرب القوى القهار إلا اختبار للعبد الضعيف المحتاج الذى طغى بعباء ربه وإنعامه عليه، وما شعر بعوزة وحاجته وأن ستر الله ﷻ له ممدود وعطاءه له غير محدود، فغره طول الأمل واستغنى بكثرة المال عن ربه الكريم وتكبر على إخوانه من بنى آدم .

(كما أن فيها معنى آخر وهو أن استغنائه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله تعالى فى أهم أموره ولا يدرى ماذا يصيره إليه ربه من العواقب) (٢) .

المسألة الثالثة: ما قصة هذه الآيات: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)﴾ ؟

(١) التحرير والتأويل ٣٩٢/٣٠

(٢) المرجع السابق، ٣٩٢/ ٣٠

والجواب: إن هذه الآيات نزلت في واقعة معينة ذكرتها كتب التفسير ألا وهي ما كان بين عدو الله أبي جهل - لعنه الله - ورسول الله ﷺ فإن عدو الله أراد منع رسول الله ﷺ من الصلاة في المسجد الحرام وقال فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ ف قيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، وعزمليطاً على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال ف قيل له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، قال: فأنزل الله هذه الآيات) (١).

فخاطبه الله ﷻ بهذه الآيات، أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمداً على هذه الصفة من الهدى والأمر بالتقوى والإيمان، أمثل هذا يُمنع عن الصلاة والسجود لله ﷻ فلا يَمْنَع مثل هذا العبد التقى من السجود والصلاة إلا مكذب للحق معرض عن طريق الهداية والرشاد، (فما أعجب هذا ! ثم يقول: ويله ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى، أي يراه ويعلم فعله، فهو تقرير وتوبيخ) (٢).

المسألة الرابعة: بم توعده الله تعالى عدوه "أبا جهل" في هذه السورة؟

الجواب: إن الله ﷻ توعده أبا جهل وكل من يسير على منهجه الضال المنحرف في معاداة الأنبياء والرسل ومحاربة الأولياء والصالحين - فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - كما هو مقرر عند أهل التفسير - فتوعده الله ﷻ بقوله: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾، ولا بد أولاً أن نتوقف عند معاني الألفاظ التي وردت في الآيات الكريمات :

(١) صحيح مسلم ، ٨ / ١٣٠ ، ورقمه ٧٢٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٢٠

فى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعْ بِالنَّاصِيَةِ (١٥)﴾ السفع كما يقول أهل اللغة: سفعت بالشئ: إذا قبضت عليه وجذبتة جذباً شديداً، وقيل: هو مأخوذ من سفعت النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد، أما الناصية فهي شعر مقدمة الرأس، والعرب تعبر عن كرامة الإنسان وحرية بالناصية، فكان العبد عندهم يؤخذ بناصيته وتجز إيداناً بعبوديته وإعلاناً عن استرقاقه، ومن ذلك قول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم * وكانوا يظنون أن لن تجزاً**

فتوعده الله ﷻ بالعذاب المهين يوم القيامة حيث ستجذبه ملائكة النار من ناصيته وتلطمه على وجهه وتدفعه دونما شفقة أو رحمة ليلقى فى النار ذليلاً مهاناً ، وإنما يستحق ذلك فناصيته كاذبة خاطئة، والمعنى أنه كذاب فى قوله خاطئ فى فعله ومعتقده، وقد تذكر الناصية ويراد بها الدلالة على جملة الإنسان، كما يقال: هذه ناصية مباركة، إشارة إلى أن هذا الإنسان مبارك. ثم قال ربنا: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾، لأن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً، فأنزل الله ﷻ الآية ومعناها: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدى فيه القوم أي يجتمعون، فإن فعل ذلك فسندع الزبانية، والزبانية مأخوذة من الزبن وهو الدفع بشدة قال ابن منظور فى اللسان: (والزَّبَانِيَةُ الذين يَزْبِنُونَ الناسَ أي يدفعونهم، قال قتادة الزَّبَانِيَةُ عند العرب الشرطُ وكله من الدَّفْعِ وسُمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها، قال الفراء يقول الله ﷻ: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾، وهم يعملون بالأيدي والأرجل فهم أقوى، قال الكسائي: واحد الزَّبَانِيَةُ زَبْنِيٌّ، وقال الزجاج: الزَّبَانِيَةُ الغلاظ الشداد واحدهم زَبْنِيَّةٌ وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، وهم الزَّبَانِيَةُ (١).

(١) لسان العرب ١٣/١٩٤

المسألة الخامسة: ماذا يُفهم من قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩) ؟

والجواب: المتدبر فى هذه الآية الكريمة يخرج منها بعدة فوائد:
الأولى: الارتباط بين أولها وآخرها فعدم طاعة المؤمن لأصحاب الفجور ومخالفة أرباب البدع والمعاصى سبيل القرب من رب العالمين، ألم تلحظ أمر الله ﷻ لكل مؤمن - متمثلاً فى شخص نبيه ﷺ - بالألا يطيع من يأمره بترك الطاعة والعبادة ، فإنه إن فعل ذلك نال القرب والرضا من رب العالمين، ويؤكد هذا أنه من طلب رضا الناس بسخط الله ﷻ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن طلب رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضا عنه الناس .

الثانية: إن العبد يستعين على هجران أهل المعاصى وأعداء الدين باللجوء إلى الله ﷻ والإكثار من الصلاة والسجود حتى يثبتته الله ﷻ على دينه وألا يُفتن بكثرة الدعاة إلى الفتن، فالثبات من الله ﷻ وليس بقوة إيمان العبد، وصدق الله ﷻ حين قال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِىْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤)﴾^(١)، ولذا كان أكثر دعائه ﷺ (اللهم يا مقبل القلوب ثبت قلبي على دينك)^(٢) .

الثالثة: أن السجود سبيل القرب، فكلما ازداد سجودك ازداد قربك، ولذا لما سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ أن يكون رفيقه فى الجنة، قال له : (فأعنى على نفسك بكثرة السجود)^(٣)، وعلمنا نبينا ﷺ أن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ولذا فمن العجب أن يتسرع المصلى فى رفع رأسه من السجود فإنه إن فعل فإنما يحرم نفسه من أنس القرب وروعة المناجاة ولذة الوقوف بباب من بيده مفاتيح الفرج .

(١) سورة الإسراء / الآيتان ٧٣ - ٧٤
(٢) الأدب المفرد ، ١ / ٢٣٧ ، ورقمه ٦٨٣ .
(٣) صحيح مسلم ، ٢ / ٥٢ ، ورقمه ١١٢٢ .

﴿سورة التين﴾

وفيها خمس مسائل:

المسألة الأولى: ما الذى أقسم به ربنا فى أول السورة المباركة ؟

والجواب: أقسم الله ﷻ بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين ولنا معها وقفات:

الأولى: اختلف العلماء فى المراد بالتين والزيتون، فالبعض كابن عباس قال: إن المراد بهما أعيانهما أى التين الذى نأكله والزيتون الذى نعصره، وجزم ابن القيم أنه المراد فى السورة، بيد أن البعض كابن جرير الطبرى والحافظ ابن كثير يرون أن المراد بهما المواضع التى يُزرعان فيها فالمراد بالتين:مسجد دمشق، والمراد بالزيتون: بيت المقدس، وهى الأرض المباركة أرض الشام التى عاش فيها عيسى بن مريم - عليه السلام - وكذا قالوا عن طور سينين إنه الجبل الذى نبت فيه الشجر والمراد به محل وموقع هذا الجبل الذى كلم الله ﷻ فيه موسى كليم الله واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ ختم هذا القسم بالبلد الأمين وهى مكة المباركة ليكون فى ذلك جمعاً بين محل عيسى وموسى ونبينا محمد ﷺ، وقالوا إنه لا يوجد تناسب بين القسم بالتين والزيتون ثم القسم بطور سينين والبلد الأمين، لكن أكثر المفسرين على خلاف هذا، حيث يرون ما ذهب إليه ابن عباس ؓ بأن القسم بأعيانهما: أى التين الذى نأكله والزيتون الذى نعصره، وبعض المفسرين كالألوسى يرى أنه لا تنافى بين القولين وهذا - والعلم عند الله - هو الأقرب للصواب وأدنى للتوفيق، فيكون القسم بأعيانهما والمراد به البقاع والأماكن .

الثانية: ذكر أهل العلم فى قيمة التين والزيتون أقوالاً كثيرة كلها تدل على أهميتهما وفائدتهما، حتى قال بعضهم عن التين: هو أشبه شئ بفاكهة الجنة،فهى فاكهة مخلص من شوائب التنغيص إذ لايرمى من ثمرتها شئ، فكلها- كل، إذ لا قشر لها يُنزع، ولا نوى يُرمى، ولا بذور تُلقى، بخلاف

غيرها فالتمرة تُرمى نواتها، والبرتقال يُرمى قشره، وقد أبدعها الله ﷻ على قدر لقمة الآكل.

أما الزيتون فهو شجرة مباركة كما قال ربنا: ﴿يُوفَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾^(١)، وكل الزيتون فوائد حتى أن أطباء القلب يوصون باستعمال زيت الزيتون الذى يحتوى على أحماض دهنية غير مشبعة وهو ما يميزه عن بقية الزيوت ولذا يوصى الأطباء باستعماله بدلاً عن أنواع الزيوت الأخرى التى ترفع نسبة الكوليسترول فى شرايين القلب، بينما يعمل زيت الزيتون على تفكيكها وإزالتها كما قال أهل الطب، أورد الفخر الرازى أن (مريضاً لابن سيرين: "رأيت فى المنام كأنه قيل لي: "كل اللامين تشف"، فقال: "كل الزيتون، فإنه لا شرقية ولا غربية")^(٢).

الثالثة: أما طور سينين فهو جبل الطور بسيناء الذى كلم الله ﷻ عنده موسى بن عمران - عليه السلام - والبلد الأمين البلد هو أى مكان مأهول مسكون، والأمين أى الأمن من الأعداء أن يغزوا أهل الحرم، ولا خلاف بين العلماء أن المراد بالبلد الأمين هى مكة المكرمة التى فيها ولد رسولنا - ﷺ - ومنها بُعث، وقد سماها الله تعالى بأمر القرى فى قوله تعالى: ﴿لَتَنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٣)، وحرّمها يوم أن خلق السموات والأرض، هذا كله قسم من الله ﷻ ببعض مخلوقاته والله تعالى أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته وليس لأحد من خلق الله أن يُقسم إلا بالله ﷻ.

المسألة الثانية: علام أقسم الله تعالى ؟

والجواب: أقسم الله ﷻ على أنه خلق الإنسان فى أحسن تقويم، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٤)، قال العلامة السعدى: (أى تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التى ينبغى منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشغولون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق)^(٤)، وقد خلق الله ﷻ

(١) سورة النور / من الآية ٣٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ، ٣٢ / ١٠ .

(٣) سورة الشورى / من الآية ٧

(٤) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ص ٩٢٩

كل كائن حي منكباً على وجهه إلا الإنسان فقد خلقه معتدل القامة مستوياً قائماً على ساقيه، وهذا من ناحية الشكل، وإن كان الواجب عدم التوقف عند حدود المنظر، ورحم الله ابن عاشور حين علق على هذه الآية بكلام نفيس مفاده أن تقويم صورة الإنسان الظاهرة ليس هو المعتبر عند الله ﷻ ولا جديراً بأن يُقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس وإصلاح الغير والإصلاح في الأرض، وإنما الذي نأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١)، وقول رسوله ﷺ (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(٢)، أقول: وأنا أميل إلى ما قاله ابن عاشور بدليل ما بعده من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٥)، فَمَنْ فسر ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾^(٤) بالقوة والفتوة والشباب فسر ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٥) بأنه ارتداد الإنسان إلى أرذل العمر وانتكاس حاله من القوة إلى الضعف ومن الإقبال إلى الإدبار، لكن هذا التفسير لا يستقيم مع الاستثناء في الآية التي بعدها ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلا يعقل أن يُستثنى الذين آمنوا من الوصول إلى أرذل العمر والردة إلى أسفل سافلين، وهذا يدعم القول إن المقصود من الآية هو تغيير الفطرة السليمة التي خلق الله الإنسان عليها، ومن ثبت على هذه الفطرة أمن على نفسه من أن يرتد إلى أسفل السافلين فكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ونال بفضل الله ورحمته الأجر غير الممنون .

المسألة الثالثة: لم قال الله تعالى: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٥) ولم يقل (أسفل

السافلين) ؟

والجواب: قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٥) أكثر عموماً وأقوى شمولاً، فالكافر المنتكس على فطرته سيرتد إلى أسفل من أى سافل وأحط من أى رتبة كانت فى البهائم العجماوات، أو الحشرات الحقيرات، أو الصم الجمادات، ولذا كان التكرير هنا أكثر تعميماً وأقوى دلالة على الانتكاس والانحطاط فى الرتبة .. والله أعلى أعلم .

(١) سورة الروم / من الآية ٣٠ .

(٢) صحيح البخارى ، ١١ / ٥٧٣ ، ورقمه ٤٧٧٥ .

المسألة الرابعة: ما معنى (مَمْنُون) في قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؟

الجواب: الممنون هو اسم مفعول من الفعل منه أى قطعه، ومنه قول ذى الإصبع :

إني لعمرك ما بابى بذى غلق *** على الصديق ولا خيري بممنون
فالأجر غير الممنون هو المتصل غير المقطوع، وهناك معنى آخر للأجر غير الممنون أي هو الذى لا يُمن به عليهم، قال الفخر الرازى: (واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب، لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصاً بالمنة) (١) .

المسألة الخامسة: من المخاطب في قوله تعالى : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ (٧) ؟

والجواب: قد يصلح أن يكون الخطاب للإنسان على سبيل الالتفات والمعنى ما الذى يدفعك للتكذيب بهذا الدين القويم بعد أن رأيت بعينيك كل هذه الأدلة والبراهين، قال الزمخشري: (والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة، وتقويمه بشراً سوياً وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع) (٢) .

وقد يكون الخطاب للرسول ﷺ والمعنى علام يكذبونك يا محمد، والأوفق للسياق المعنى الأول، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن منصور قال: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ (٧) عنى به النبي ﷺ؟ قال: "مَعَاذَ اللَّهِ! عنى به الإنسان"، وهكذا قال عكرمة وغيره (٣) .

(١) مفاتيح الغيب ٣٢ / ١٢ .
(٢) الكشف ٧٨٠ / ٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٣٥ / ٨

﴿سورة الشرح﴾

وفيه ست مسائل :

المسألة الأولى: قضية شرح صدر رسول الله ﷺ :

وهي قضية كثر حولها لغط المستشرقين وأنكرها بعض العلمانيين ممن يقدسون العقل ويرفعون شأنه على النقل، مع أن هذه الحادثة قد أثبتتها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية وأصحاب السير المتقدم منهم والمتأخر حيث أجمعوا على وقوعها للنبي ﷺ يقظة وهو ابن سنتين في بادية بنى سعد عند مرضعته حليلة السعدية، وقد وردت قصة الشرح في صحيح البخارى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظنره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) ^(١).

والذى عليه قول كثير من أصحاب السير أن حادثة شق الصدر حدثت للنبي ﷺ مرتين، الأولى وهو مسترضع في بادية بنى سعد والثانية لتهيئته لرحلة الإسراء والمعراج.

قال أبو حاتم: (شق صدر النبي ﷺ وهو صبي يلعب مع الصبيان وأخرج منه العلة ولما أراد الله جل وعلا الإسراء به أمر جبريل بشق صدره ثانيا وأخرج قلبه فغسله، ثم أعاده مكانه مرتين في موضعين وهما غير متضادين) ^(٢).

المسألة الثانية: هل كان للنبي ﷺ أوزار، وإلا فما معنى قوله تعالى:

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ (٢) ؟

والجواب: معلوم أن الوزر هو الذنب، وقد سبق وأن تعرضنا لقضية هل كان للنبي ﷺ أوزار وذنوب أم عصمه الله ﷻ منها أى قضية (عصمة

(١) صحيح مسلم ١/١٤٧، ورقمه ١٦٢.

(٢) صحيح ابن حبان ٢٤٢/١٤، ورقمه ٦٣٣٤.

الرسول ﷺ) وذلك حين تعرضنا لقوله ﷺ في سورة (النصر): ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣)، والحق أن هذه قضية دار حولها جدل كثير وخلاف كبير بين فريقين: الأول يثبت العصمة التامة ويتأول الآيات التي وردت في عتاب النبي ﷺ في القرآن لينفي عن النبي ﷺ حدوث الذنب، والفريق الثاني ينفي العصمة ويثبت حدوث الذنب للرسول عليهم الصلاة والسلام، والحق - فيما أرى - أن نفرق بين نوعين من العصمة:

الأول: العصمة من أمور التبليغ والرسالة وكبائر الذنوب، والثاني: العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية.

أولاً: بالنسبة للأمر الأول فلا شك في عصمة الرسل - عليهم السلام - فيه، لأن الخطأ في هذا الجانب يقدح في أصل الرسالة وتمام الدين، وقد عصمهم الله تعالى من الخطأ في الإبلاغ عن عمد أو من غير قصد، قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) (١)، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤) (٢)، قال العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسير الآية: (وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرعوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين) (٣) وعلى عصمة الرسل الكرام - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - انعقد إجماع الأمة، قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في (مجموع الفتاوى): (فإن الآيات الدالة

(١) سورة المائدة / الآية ٦٧.

(٢) سورة النكوير / الآية ٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩١٢.

على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ، فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبيه بالغيب وأنه ينبيئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه^(١) .

وكذا القول بعصمتهم من كبائر الذنوب فإن الوقوع فيها لا يليق بأحد الناس فما بالك بخيارهم ومرسلهم سواء قبل البعثة أو بعدها، بخلاف ما حوته كتب التوراة والإنجيل - بعد التحريف - من بلايا وزلات لا تليق بعوام الناس لكن الضالين المكذبين ألصقوها بالأنبياء والمرسلين واتهموهم - كذباً وافتراءً - بالزنا وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق والوقوع في الحرام .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : (إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ... وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول)^(٢)، ولأن صدور الكبائر منهم - حتى قبل بعثتهم - سبيل لطعن أعدائهم فيهم بعد بعثتهم، وحجة للطعن في صدق إيمانهم وحسن إخلاصهم وانصراف الناس عن تصديق دعوتهم، ويكفى للاستدلال في هذا الباب ما عُرِف به نبينا ﷺ بين قومه قبل بعثته بالصادق الأمين .

ثانياً: أما الأمر الثاني وهو العصمة من صغائر الذنوب والأخطاء الدنيوية، فهذه مسألة دار حولها جدل وخلاف، فأكثر من قال بالعصمة التامة وعدم وقوع الخطأ الدنيوي فضلاً عن الديني كان الروافض الشيعة أصحاب المذهب المبتدع، حيث اتخذوا القول بعصمة الأنبياء ذريعة ومدخلاً للقول بعصمة آل البيت ومن ثم القول بعصمة الأئمة الإثني عشر،

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٨ .
(٢) المرجع السابق ٣١٩/٤ .

ثم القول بعصمة معلميهم ورجال الدين فيهم، فأطاعوهم ورفعوا أقدارهم حتى جعلوا أقوالهم وأفعالهم حجة على من خالفهم وخلعوا عليها قدسية القرآن وحجية السنة .

لكن القول المعتبر عندنا وهو مذهب جمهور العلماء إن الأنبياء غير معصومين من الوقوع في صغائر الذنوب، لكن الوحي ينتزل عليهم بالتصحيح والتنبية، والتعديل والتصويب، فيسارعون إلى التوبة والاستغفار ليكونوا بعد الذنب والتوبة منه أفضل وأقرب من حالهم قبله، قال شيخ الإسلام: (وعامة ما يُنقل عن جمهور العلماء أنهم (أي الأنبياء) غير معصومين عن الإقرار على الصغائر، ولا يقرون عليها، ولا يقولون إنها لا تقع بحال، وأول من نُقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولاً لذلك: الرافضة، فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل)^(١)، والأدلة على عدم عصمتهم من الصغائر في القرآن والسنة كثيرة متوافرة، ومن ذلك في قصة آدم - عليه السلام -: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾^(٢)، وقد وصفت الآية ما وقع من آدم - عليه السلام - بالمعصية وبينت أن الله ﷻ وفقه للتوبة حتى تاب من المعصية فتاب الله ﷻ عليه، وكذا في قصة موسى - عليه السلام - لما قتل القبطي فيما ورد في سورة القصص ثم قوله فيما حكاه القرآن عنه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾^(٣)، وفي الآية اعتراف من موسى - عليه السلام - بظلم نفسه بوقوع القتل منه ثم استغفاره لربه ودعاؤه أن يغفر الله ﷻ له فغفر له، ومعلوم أن الغفران إنما يكون من الذنوب

(١) المرجع السابق ٣١٩/٤ .

(٢) سورة طه / الآيتان ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سورة القصص / الآيتان ١٥ - ١٦ .

والمعاصي، أضف إلى ذلك ما ورد في قصة داود - عليه السلام - مع الخصمين اللذين تسورا المحراب، وأنه تعجل في إصدار الحكم دون تثبت ولا سماع لكل أطراف القضية، فلما علم بخطئه تاب إلى الله وخر راکعاً وأناب، فغفر الله له ذنبه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَتَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾^(١)، والمنتبِع لآي القرآن الكريم يجدها قد بعضها قد حوى عتاباً من الله ﷻ لنبيه ﷺ ومن ذلك :

عتاب الله ﷻ له في قضية أسرى بدر حين قبل منهم الفداء، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمُ فِيهَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾^(٢)، وكذا في قضية التحريم إرضاء لبعض نساءه، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)﴾^(٣)، وقضية عبد الله بن أم مكتوم الذي أعرض النبي ﷺ عنه فنزلت سورة (عبس) التي عاتبه الله ﷻ فيها على هذا الإعراض والانشغال عن هذا الرجل المؤمن، قال الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾^(٤).

وأرى لزماً علينا من باب تنمة هذا الموضوع أن نذكر ما قد يقع من الأنبياء - عليهم السلام - من الأخطاء الدنيوية في أمور الحياة المعيشية والحياتية وهي جائزة في حقهم مع تمام عقولهم وسداد تفكيرهم لكن الخطأ

(١) سورة ص/ الآيتان ٢٤ - ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال / الآيات ٦٧ - ٦٩ .
(٣) سورة التحريم / ١ .
(٤) سورة عبس/ الآيات من ١ - ١٠ .

فى هذا الباب قد يقع منهم لعدم إحاطتهم بكل شئون الحياة وتشعب أعمالها من زراعة وصناعة وتجارة وحرب وقضاء ... إلخ .

ويدخل فى هذا الباب ما رواه مسلم فى صحيحه من قصة تأبير نخل المدينة حيث روى مسلم فى صحيحه عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ. يَقُولُونَ يَلْقَحُونَ النَّخْلَ. فَقَالَ: "مَا تَصْنَعُونَ؟" قَالُوا: "كُنَّا نَصْنَعُهُ"، قَالَ: "لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا" فَتَرَكُوهُ، فَتَرَكْتُمْ أَوْ قَالَ: فَتَقَصَّتْ قَالَ: "فَذَكِّرُوا ذَلِكَ لَهْ"، فَقَالَ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ" ^(١). ومعلوم أن هذا إنما يكون فى أمور الدنيا فلا يقدر فى عصمتهم من جهة الإبلاغ والرسالة ... والله أعلى وأعلم .

المسألة الثالثة: ما معنى وصف الوزر بـ «الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ» (٣)؟

والجواب: وصف هذا الوزر بالنقل على كاهل النبي ﷺ، قال الفخر الرازى: (قال علماء اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع، أو البعير إذا أثقله الحمل، فهو مثل لما كان يثقل عن رسول الله ﷺ من أوزاره) ^(٢)، وقال أبو حيان: (والنقيض: صوت الانقضااض والانفكاك) ^(٣)، وفيه دلالة على شدة إيمانه وقوة تعلق قلب نبينا ﷺ بربه حتى كانت صغار الذنوب وكأنها جبل عظيم يحمله فوق ظهره حتى كاد أن ينقض ظهره من ثقله عليه، وإيم الله تلك حال المؤمن الذى ينظر إلى صغار الذنوب وكأنها جبال تهامة حطت على عاتقيه، أما المنافق فينظر إلى كبائر الموبقات وعظائم السيئات وكأنها ريشة يتخفف فى حملها، أو ذبابة وقعت على أنفه فحرك يده إليها فطارت فلا هو شعر بها حين نزلت ولا حين انصرفت ... والله المستعان .

(١) صحيح مسلم، ٤/ ١٨٣٥، ورقمه (٢٣٦٢) .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٢ / ٥

(٣) البحر المحيط ٤٨٤/٨

المسألة الرابعة : كيف رفع الله تعالى ذكر نبيه محمد ﷺ مصداقاً
لقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٤)؟

والجواب: أذكر بعضاً من جوانب رفعة ذكره ﷺ وعلو شأنه، ومن
ذلك :

- أن الله ﷻ قد أخذ العهد له عليه الصلاة والسلام على جميع الأنبياء
 والمرسلين، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
 وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ
 أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
 الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ (١) قال
 ابن كثير: (فالرسول محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء صلوات الله
 وسلامه عليه دائماً على يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي إن وُجد في أي
 عصر لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم
 ليلة الإسراء لما اجتمعوا بببيت المقدس) (٢) .

- إن الله ﷻ جعل النجاة من النار بقول شهادة التوحيد ولا تتحقق
 هذه الشهادة إلا بقولك: (أشهد ألا إله إلا الله، ثم لزماً عليك أن تتبعها
 بقولك (أن محمداً رسول الله).

- إن الله ﷻ قرن اسم النبي ﷺ باسمه فلا يُذكر اسم الله ﷻ إلا واسم
 رسوله معه حين يؤذن المؤذن كل يوم خمس مرات .

- إن الله ﷻ قد أقسم بحياة رسوله ﷺ وهذا القسم بحياة الرسول ﷺ
 خاص بالله ﷻ فله تعالى أن يُقسم بمن شاء من خلقه وليس لأحد من خلقه
 أن يُقسم إلا به ﷻ، قال الله ﷻ مقسماً بحياة نبيه ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
 سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) (٣) .

(١) سورة آل عمران / الآيتان ٨١-٨٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٦٨ .

(٣) سورة الحجر / الآية ٧٢ .

- جعل الله ﷻ طاعة رسوله واجبة وقرنها بطاعته ﷻ في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(١)، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

- إن الله ﷻ قد نادى في كتابه الكريم على جميع المرسلين بأسمائهم مجردة، فقال: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٣)، وعلى نوح فقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾^(٤)، وعلى خليله إبراهيم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾^(٥) وعلى كلمه موسى: ﴿قَالَ أَفْقَهَا يَا مُوسَى﴾^(٦)، وعلى زكريا بقوله: ﴿يُزَكِّرِيَا إِنَّا نَبُشِّرُكَ بِغُلْمٍ﴾^(٧).

وعلى يحيى فقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾^(٨)، وعلى داود فقال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٩) ولكنه ﷻ لما أراد أن ينادى على رسوله محمد ﷺ لم يناده باسمه مجرداً فلم يقل: "يا محمد"، بل ناداه بكل توقيير وتقدير فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(١٠) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾^(١١) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾^(١٢) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْتَرُ﴾^(١٣).

- أضف إلى ذلك أن الله ﷻ لما أثنى على رسله بحسن الأخلاق ذكر كل رسول بصفة خلقية معينة امتدحه بها، فقد أثنى الله على خليله إبراهيم فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(١٤)، وقال عن إسماعيل:

-
- (١) سورة آل عمران / من الآية ٣٢ .
 - (٢) سورة النساء / من الآية ٥٩ .
 - (٣) سورة البقرة / من الآية ٣٥ .
 - (٤) سورة هود / من الآية ٤٨ .
 - (٥) سورة الصافات / من الآية ١٠٤ .
 - (٦) سورة طه / الآية ١٩ .
 - (٧) سورة مريم / من الآية ٧ .
 - (٨) سورة مريم / من الآية ١٢ .
 - (٩) سورة ص / من الآية ٢٦ .
 - (١٠) سورة المائدة / من الآية ٤١ .
 - (١١) سورة الأحزاب / من الآية ١ .
 - (١٢) سورة المزمل / الآية ١ .
 - (١٣) سورة المدثر / الآية ١ .
 - (١٤) سورة هود / من الآية ٧٥ .

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥٤)^(١)، وقال عن موسى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥١)^(٢)، وقال عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾^(٣)، وحين تحدث عن سيدنا محمد ﷺ بين أنه حاز الكمالات كلها، فجمع له كل محاسن الأخلاق، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤)^(٤).

المسألة الخامسة: لم جاءت العسر معرفة بأل، واليسر نكرة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* (٦)؟
والجواب: المتأمل في الآيتين يجد أن كلمة العسر قد جاءت معرفة بأل (*الْعُسْرُ*)، بيد أن كلمة اليسر قد جاءت نكرة (*يُسْرًا*) فما الحكمة من ذلك؟

يرى أهل اللغة أن الكلمة المعرفة بأل إذا تكررت في سياق واحد فهي تكرار والثانية هي عين الأولى كقولك: جاء الرجل، وأخبرني الرجل، فيكون الرجل الأول هو عينه الرجل الثاني الذي تتحدث عنه لكن الأمر يختلف في حال الاسم النكرة - أي غير المعرفة - فإن النكرة متى تكررت وأعيد ذكرها في سياق واحد كانت مختلفة، وكان الثاني غير الأول، تقول: جاء رجل، وأخبرني رجل، فرجل الثانية غير عين رجل الأولى، وإذا طبقنا هذا الكلام على الآية الكريمة فسنجد أن كلمة العسر معرفة مكررة فهي بمعنى واحد، أما كلمة اليسر فهي نكرة مكررة فهما يسران مختلفان، ومن هنا قالوا: (لن يغلب عسر واحد يسرين)، قال العلامة السعدي في تفسيره: (وتعريف "العسر" في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتتكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه بالآلف واللام - الدالة على الاستغراق والعموم - ما يدل على أن

(١) سورة مريم / من الآية ٥٤ .

(٢) سورة مريم / من الآية ٥١ .

(٣) سورة ص / من الآية ٤٤ .

(٤) سورة القلم / من الآية ٤ .

كل عسر، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ، فإنه في آخره التيسير ملازم له^(١).

وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله :

إذا ضاقت بك الدنيا *** ففكر في (ألم نشرح)

فعسر بين يسرين *** متى تذكرهما تفرح

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قد حاصره الروم وضيقوا عليه في الشام، فكتب إليه يُصبره ويقرب إليه الفرج : (سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجاً، ولن يغلب عسر يسرين ...)^(٢).

وهذا درس لكل المكروبين ورسالة لجميع المظلومين بأن يسر الله حاضر وفرج الله قريب، ودوام العسر مع اليسر محال، فالصبر الصبر عباد الله على النوائب والمصائب، فلن يغلب عسر يسرين بإذن الله سبحانه.

المسألة السادسة: بم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله: «إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)»؟

والجواب: إن الله سبحانه قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فيهما بأمرين :

الأمر الأول: النصب بعد الفراغ : ومعلوم أن النصب بمعنى التعب، ومعنى الآية كما ذهب جمهور المفسرين على اختلاف في العبارة: أن الله سبحانه أمر نبيه إذا فرغ من عبادة أن يبدأ في عبادة أخرى، فإذا فرغ من صلاة الفرض قام إلى الدعاء والذكر، وإذا فرغ من الجهاد أسرع للعبادة، وهكذا فحاله بين القلب من طاعة لطاعة ومن عبادة لأخرى، فلا وقت يُضيعه ولا فراغ لا يجد ما يشغله وقيل: (إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علاقتها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ

(١) تفسير السعدي ، ص ٩٢٩ .
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٤٤٦/٢)، والحاكم في المستدرک (٣٢٩/٢)، والبيهقي في الشعب (٢٠٥/٧).

البال^(١)، وديناه ﷺ كانت كلها فى مرضاة الله ﷻ وسعيًا لقضاء مصالح الناس وتبليغهم الرسالة والقيام بمصالح بيته وأمه .

الأمر الثانى: ﴿وَالِى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٨) أى ارغب إلى ربك فى الدعاء والمسألة ولا تلجأ إلى غيره أو تطلب المدد والعون من سواه، واجعل كل عملك خالصاً لله ﷻ رغبة فيه وحده .

وفى قراءة (والى ربك فرغب) ^(٢): أى رغب الناس وحببهم فى الله ﷻ، طلباً لمرضاته وحرصاً على ثوابه وجنته.

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٦٤٢ .

(٢) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازى، ٨/٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

﴿سورة الضحى﴾

وفيه تسع مسائل :

المسألة الأولى: ما الفرق بين ﴿وَدَّعَكَ﴾ وبين ﴿قَلَى﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٣) ؟

والجواب: ودع الشئ أى تركه وأهمله، قال ابن منظور: (وسائر القراء قرأوه "ودَّعَكَ" بالتشديد وقرأ عروة بن الزبير (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) بالتخفيف والمعنى فيهما واحد أى ما تركك ربك) ^(١)، قال العلامة السعدى - رحمه الله - : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أى: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا قَلَى﴾ وما قلاك الله أى: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده) ^(٢)، كما أن التوديع إنما يكون بين المتحابين، بيد أن القلى فهو البغض والكراهة، ولا يكون إلا بين المتخاصمين المتباعدين.

المسألة الثانية: هنا سؤال له علاقة باللفظين: لم ذكر الله ﷻ ضمير المخاطب وهو (الكاف) مع ودع، فقال: ﴿وَدَّعَكَ﴾، ولم يذكره مع القلى فلم يقل: (وما قلاك) بل قال: ﴿وَمَا قَلَى﴾؟

والجواب: هنا إشارة فى غاية الإبداع والإيناس لنبينا ﷺ وهو المخاطب فى الآية بضمير المخاطب (الكاف)، حيث ذكره الله ﷻ مع التوديع وهو لا يكون إلا بين المتحابين، فقال: ودعك، ولم يذكره بالضمير فى القلى وهو لا يكون إلا بين المتخاصمين الكارهين، فنزه الله ﷻ رسوله ﷺ أن يذكر حتى ولو بالضمير فى مثل هذا المقام فقال: ﴿وَمَا قَلَى﴾، وفى ذلك معنى الإكرام لنبينا ﷺ فى الذكر، وفى الحذف أكرمه فى الذكر ﴿وَدَّعَكَ﴾، وفى الحذف ﴿وَمَا قَلَى﴾.

كما جاءت ﴿وَمَا قَلَى﴾ من غير ضمير مراعاة لانسجام الفواصل بين الآيات، (الضحى، سَجَى، وَمَا قَلَى، فَتَرَضَى، فَأَوَى، فَهَدَى، فَأَغْنَى) .

(١) لسان العرب ، ٣٨٠/٨ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٨ .

المسألة الثالثة: لم وجه الله تعالى كلامه لنبيه في قوله: ﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)﴾ ولم يأت الكلام عاماً للناس جميعاً ؟

والجواب: لأن هذا الكلام لا يصلح أن يكون عاماً لعموم الناس فليس كل الناس آخرتهم خير من دنياهم بل إن بعض الناس - عياداً بالله - دنياهم خير لهم من أخراهم كالكفار والظلمة والمجرمين، لذا جاء الكلام خاصاً لنبينا ﷺ ولم يصلح أن يكون خطاباً عاماً لجميع الناس .

المسألة الرابعة: لم لم يحدد العطاء من الله تعالى بل ترك مفتوحاً، في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ ؟

والجواب: إن هذا عطاء ملك الملوك فلا يحده حد، ولا يعده عد، هو عطاء ترك مفتوحاً دلالة على كثرتة وتنوعه وعدم القدرة على حصره ولا تخيله، هو عطاء ملك الملوك يأتي لعبده متنوعاً بين نعم معارف ونعم قرب ونعم دنيا ونعم نفس ونعم دين ... ولا يقف على نعمه أحد .

المسألة الخامسة: ما دلالة قوله: ﴿فَتَرْضَى﴾ بدلاً من فتسعد أو تهناً أو نحو ذلك ؟

والجواب: إن في ذلك إشارة إلى أن أقصى غايات السعادة والعطاء أن يُرزق العبد الرضا، فالفقير مع الرضا غني والغني مع السخط فقير، ولذا جعل الله ﷻ أقصى درجات سعادة المؤمنين في الجنة الرضا بالله وعن الله، فقال ﷻ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١)، وقال عن نفس المؤمن: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨﴾^(٢)، ونحن في حياتنا اليومية نجد أناساً أعطاهم الله ﷻ من كل أصناف الرزق لكنهم حُرِموا نعمة الرضا، فلم يشعروا بما هم فيه من نعم، وعاشوا حياة ملؤها القلق والكمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) سورة البينة / من الآية ٨ .
(٢) سورة الفجر / الأيتان ٢٧ - ٢٨ .

المسألة السادسة: كثيراً ما يتوقف القارئ عند قوله ﷺ ممثناً على رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) فما معنى ضالًّا في الآية؟ والجواب: الضلال هنا لا يمكن أن نفهمه على أنه عكس الهداية، فالأنبياء من هذا الضلال معصومون، وإنما للضلال هنا معان كثيرة ذكرها المفسرون، ومنها:

- أنها بمعنى الغفلة كما قال القرطبي وغيره، والمعنى: (أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهذا أي أرشدك) (١).

- (وقال قوم: ﴿ضَالًّا﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهذا الله ﷻ إلى القرآن، وشرائع الإسلام وهو معنى قوله ﷺ: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (٢).

ومن أجمل ما قرأت في هذا المعنى ما حكاه أبو حيان صاحب "البحر المحيط" من أنه نام متفكراً في معنى هذه الآية فرأى في منامه أنه يقرأ هذه الآية ويفكر فيها، فيقول في منامه: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ أي وجد رهطك، ﴿ضَالًّا﴾ فهذه بك (٣) فيكون وصف الضلال هنا ليس منسوباً للنبي ﷺ بل هو صفة لقومه أي وجد قومك على ضلال فهداهم بك، قلت: والله ما أجمله من تأويل وليس هذا بمستغرب، بل له أمثلة من القرآن الكريم نحو قوله ﷺ: ﴿وَسُئِلَ الْقُرَيْةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (٤) والمعنى - كما أجمع على ذلك أهل اللغة - أي أسأل أهل القرية.

- وقيل للضلال بمعنى الحب، وقد ورد هذا في القرآن الكريم وذلك في قوله ﷺ حكاية عن إخوة يوسف لما قالوا لأبيهم يعقوب - عليه السلام - : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (٥) أي ما زلت ثابتاً على

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ٩٦/٢٠ .

(٢) سورة الشورى/ من الآية ٥٢ .

(٣) البحر المحيط ، ٨ / ٤٨١ .

(٤) سورة يوسف/ من الآية ٨٢ .

(٥) سورة يوسف/ من الآية ٩٥ .

حبك القديم ليوسف، وعلى هذا يكون المعنى فى حق النبى ﷺ ووجدك محباً للهداية فهذاك إليها، وهذا المعنى يليق بمقام النبى ﷺ وهو عكس ما يظنه البعض من أن الضلال بمعنى البعد عن الهداية.

- ومن أكمل المعانى فى هذا الشأن ما ساقه القرطبى - رحمه الله - حين قال: (وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيُهتدى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أى لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديتُ بك الخلق إليّ) ^(١)، أى كما يهتدى المسافرون فى الصحراء بالشجرة الضالة أى الوحيدة المنفردة على الطريق الصحيح .

المسألة السابعة: لم جاء ترتيب الآيات على هذا النحو: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)﴾ ؟

والجواب: إن المتأمل فى هذا الترتيب يجده متناسباً مع متطلبات حياة مراحل نمو الإنسان، فعندما يكون صغيراً قد يفقد أباه فيصير يتيماً محتاجاً ليد العناية والرعاية، وعندما يشب عن الطوق ويبلغ سن التكليف تظهر حاجته إلى الهداية والاسترشاد على طريق الحق، ثم يتخطى مرحلة البلوغ ليدخل فى مرحلة الشباب التى يكون فيها السعى على الرزق وطلب المعاش وفيها تكون حاجة المرء للمال والغنى ، فجاءت الآيات متناسقة مع هذه الحاجات البشرية .

المسألة الثامنة: لم جعلت الآية مع اليتيم القهر، ومع السائل النهر، فقال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)﴾ ؟

الجواب: لا بد أولاً من معرفة معنى القهر ومعنى النهر، فالقهر فى اللغة هو: التسلط بما يؤذى، ولا تقهره بمعنى لا تظلمه بتضييع حقه، ولا تتسلط عليه، أو لا تحتقره أو تغلب على ماله، كل هذه المعانى تدخل تحت كلمة القهر .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٩٨ - ٩٩ .

وأما النهر فهو: الزجر والغلظة في القول، وكلا الفعلين مناسب مع حال المفعول به، فحالة اليتيم وهو الطفل الصغير غير البالغ الذي لا أب له تجعله عرضة لاجتراء الناس عليه بالقهر والتسلط لعلمهم بعجزه عن الدفاع عن نفسه وعدم وجود ولى أمره الذي يزود عنه ويدفع عنه القهر والعدوان، أما السائل الذي يستجدى الناس في الطرقات فهو أحوج ما يكون لإحسانهم وطيب لقياهم والعطف عليه مادياً ومعنوياً فناسبت حالته النهى عن نهره وطرده والإغلاظ معه، ويدخل تحت السائل "طالب العلم" مع معلمه فهو أحوج إلى لين شيخه معه، وعدم الشدة عليه أو الإغلاظ له بالقول، فإن ذلك من آداب العالم مع المتعلم .

قال الثعلبي: (وقرأ النخعي والشعبي: فلا تكهر، بالكاف، وكذلك هو في مصحف عبد الله، والعرب تعاقب بين القاف والكاف، يدل عليه حديث معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة، قال: ما كهرني، ولا ضربني)^(١)، وفى قول الثعلبي: (وكذلك هو في مصحف عبد الله) أي عبد الله بن مسعود فقد وردت هذه القراءة في مصحفه، والكهر هو العبوس في الوجه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه، وفي الآية دعوة إلى الإحسان بالقول والفعل وذلك حال المسلم مع الضعفاء والمحتاجين والله أعلى وأعلم .

المسألة التاسعة: ما التوجيه الذى يدلنا عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١)؟

والجواب: النعمة هي كل خير يصيب الإنسان في دينه ودنياه، ونعمة ربك لفظ عام شامل لكل نعم الله ﷻ على عبده في دينه ودنياه، قال ابن عاشور: (وليس المراد بنعمة ربك نعمة خاصة وإنما أريد الجنس فيفيد عموماً في المقام الخطابي، أي حدث ما أنعم الله به عليك من النعم)^(٢)، وهذه الآية فيها أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يتحدث بنعمة الله ﷻ عليه

(١) الكشف والبيان، أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري، ١٠/ ٢٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٦/٣٠

كالنبوة والقرآن والدعوة إلى الإسلام والإيمان بنبوته، فقد كان يخاطب الناس ويعلمهم الإسلام فيقول لمن يخاطبه: أن تشهد أن لا اله إلا الله وأنى رسول الله كذلك تعريفه الناس بحقه عليهم من الطاعة والتوقير والاحترام، حتى نزلت الآيات مبينة لحقه على أمته - كما فى سورة الأحزاب والحجرات وغيرهما، فتكون الآية الكريمة إرشاداً للعبد المسلم أن يتحدث بنعم الله ﷻ عليه فى دينه ودنياه ، فكيف يفعل العبد ذلك ؟

اختلف العلماء فى هذه المسألة خاصة مع ضعف إيمان كثير من الناس وعدم أمنهم من ديبب الرياء والفخر وظن الناس بهم مظنة الغرور والترفع عليهم بالحديث عن نعم الله ﷻ عليهم، فذهب بعض السلف إلى أن التحدث بالنعمة تكون للنقة من الإخوان ممن يثق به، ونقل الطاهر بن عاشور عن ابنالعربي المالكي - رحمه الله - قوله: (إن التحدث بالعمل يكون بإخلاص من النية عند أهل النقة فإنه ربما خرج إلى الرياء وإساءة الظن بصاحبه) ^(١)، وذكر الفخر والقرطبي وابن عاشور وغيرهم عن الحسن بن علي قوله: "إذا أصبت خيراً أو عملت خيراً فحدث به النقة من إخوانك" قال الفخر: (إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء وظن أن غيره يقتدي به) ^(٢)، أما فى أمور الدنيا فمن الحديث بالنعمة إظهارها بالملبس والمركب قال النبي ﷺ: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" ^(٣)، فيظهرها العبد بلبس الجديد من الثياب، النقى من غير فخر ولا بطر، ولا يكون من مكافأة نعمة الله ﷻ على العبد المسلم أن يُخالط الناس بالثوب القدر والهيئة المنفرة، وكذا فى اتخاذ مركبة صالحة له تيسر له سبيل الانتقال إلى مطالب العلم ومواطن الرزق فيكون ذلك من باب التحدث بنعمة الله ﷻ على العبد وإظهارها، بيد أننا نجد فى هذا الزمان بعضاً من

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٣٨١ .

(٢) مفاتيح الغيب ، ١ / ٤٧٢٨ .

(٣) الجامع الصحيح سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى، ١٢٣/٥، ورقمه ٢٨١٩، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

الناس ممن تملكتم وساوس الشيطان وسيطرت على نفوسهم مخاوف
الحسد وضياع النعمة منهم بكلام الناس فأخفوها وبالغوا في كتمان نعم الله
عليهم، فلا تلقاه إلا عابس الوجه مهموماً يسبقك بالشكوى قبل أن تسأله
عن حاله، مظهراً ما به من بلايا ساتراً ما ينعم فيه من نعم وعطايا ، فهو
إلى جحود نعم سيده عليه أقرب من شكرها، ومن الكذب على الناس
ألصق من الصدق معهم ولا يزال هكذا حاله حتى يفضح الله أمره ويكشف
ستره فيعلم الناس حقيقته فيستوحشونه وينفضون عنه، وايم الله أن هذا
ليس من خلق المسلم الواثق بربه الشاكر لمولاه .

﴿سورة الليل﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى في أول السورة ؟ وعلام أقسم ؟
والجواب: من المعلوم أن أسلوب القسم يتكون من أربعة أركان وهى:
الأول أداة القسم، والثانى المقسم، الثالث المقسم به، الرابع المقسم عليه
فأما الأداة فهى الواو وهى حرف القسم وأداته، وأما المقسم فهو الله
ﷻ، وأما المقسم به فهو ثلاثة أشياء: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١)﴾ أى عمّ
ظلامه الخلائق، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢)﴾ أى ظهر نوره للخلق فاستضاءوا
به وانتشروا في مصالحهم ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)﴾: هنا معنيان: إذا
كانت ﴿مَا﴾ موصولة كان هذا قسم من الله ﷻ بنفسه الكريمة ، فهو يقسم
بنفسه القادرة الحكيمة والموصوفة بأنه خالق الذكور والإناث، وإن كانت
﴿مَا﴾ مصدرية كان قسماً من الله ﷻ بخلقه وللذكر والأنثى (وكمال حكمته
في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً
وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة
الشهوة، وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين)^(١).
يتبقى لنا الركن الرابع وهو المقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ
لَشَتَّى (٤)﴾ فقد أقسم الله ﷻ بالليل والنهار وقدرته بخلق الذكر والأنثى
على أن عمل العاملين وسعى المكلفين مختلف باختلاف نياتهم وإيمانهم
وقربهم أو بعدهم من منهج الله ﷻ وهدى رسوله ﷺ.

ولذا جاء التقسيم بعد ذلك فى هذه السورة المباركة بين فريقين: ﴿فَأَمَّا
مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥)﴾، و﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨)﴾.

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِّلْغُورَى (٧)﴾
و﴿فَسَنِّيَرُهُ لِّلْغُورَى (١٠)﴾ على قضية هل الإنسان مسير أم مخير ؟

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٦ .

والجواب: لا بد أولاً أن نعلم أن معنى اليسرى كل معانى الخير وقيل الثواب وقيل الجنة، والعسرى عكس ذلك، وأما تيسير الله ﷻ العبد اليسرى وكذا تيسيره للعسرى فلها علاقة بمعنى اليسرى ومعنى العسرى، فمن رأى أن اليسرى هى الجنة فيكون تيسير الله ﷻ العبد اليسرى بأن يدخله الجنة بسهولة ويسر وإكرام، وأما من فسر اليسرى بأعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على المؤمن فلا يعتريه كسل ولا رياء، وكذا يمكن القول فى تيسير العسرى للعبد الكافر الذى اختار طريق العصيان فأوكله الله تعالى لنفسه وتركه لشيطانه فجعل المعصية أرجح وأحب وأيسر إليه من الطاعة. وليس فى هذا دليل على إجبار الله ﷻ للعبد، بل إن الله ﷻ قد بين فى هذه السورة أن العبد التقى أعطى واتقى وصدق وأقبل على الله ﷻ بكل جوارحه فلما علم الله ﷻ منه الإقبال عليه أعانه ويسر له أسباب الطاعة وأعانه عليها ثم تقبلها منه - بلطفه وكرمه - وأثابه عليها الرضا والجنة، والعكس صحيح فالعبد الشقى أعرض عن الطريق وتكذب السبيل وأخذ إلى الأرض واتبع هواه فلما علم الله ﷻ منه هذا الصدود وذلك الإعراض أوكله إلى نفسه ونزع عنه توفيقه فكانت أسباب المعصية وطريق النار أيسر إلى قلبه وأحب إلى نفسه من جهاد الهوى والتزام طريق الهدى وقد قال ﷻ: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (١).

المسألة الثالثة: دار خلاف بين علماء السنة وبين جهال الرافضة (الشيعة) حول قوله تعالى: «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى» (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) ... فما سبب هذا الخلاف؟

الجواب: أجمع المفسرون على أن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى أبى بكر الصديق رضي الله عنه وخالفهم فى ذلك الروافض الشيعة، حيث قالوا: إنها نزلت فى على بن أبى طالب رضي الله عنه فما الأرجح من القولين؟

الراجح عند أهل العلم أنها فى أبى بكر ويستدلون على ذلك بدليل عقلى لطيف ألا وهو: أن الله ﷻ حدد الأفضلية عنده بالتقوى، فقال: «إِنَّ

(١) سورة فاطر / من الآية ٤٣ .

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ^(١)، وهنا وصفت الآية المذكور بأنه الأتقى أى أتقى الناس - بعد الأنبياء- ومن ثم يكون هذا الموصوف هو خير الأمة بعد نبيها ﷺ وهو ما عليه إجماع الأمة بأن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق، لكن هنا يعترض الروافض فيقولون بل إن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو على بن أبى طالب ، وبالتالي لا بد من الرجوع إلى الآية التى بعدها حتى تفصل فى هذا الخلاف وتحدد من المقصود هل هو أبو بكر أم على ؟

فلو نظرنا إلى الآية التى بعدها لوجدناها تصف هذا التقى المذكور فى الآية بأنه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتْبَٰغًا وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢٠) فهذا الوصف الذى تحدثت عنه الآيتان ينطبق على أى من الصحابييين الكريمين ؟

هو - بلا شك - لا ينطبق إلا على أبى بكر الصديق وحده من دون الخلق أجمعين، فما لأحد من الناس فضل على أبى بكر، بل لأبى بكر الفضل على الناس جميعاً حتى رسول الله ﷺ لم يكن له على أبى بكر فضل دنيوى بل فضل دينى، وكان لأبى بكر فضل سبق إليه وإنفاق ماله عليه والهجرة معه، ولكن لرسول الله ﷺ الفضل على الناس جميعاً بأن هداهم الله ﷻ إلى الدين به .

أما على بن أبى طالب فكان فضل النبى ﷺ عليه دنيوياً ودينياً، حيث كان النبى ﷺ يربيه فى حجره صغيراً وينفق عليه من ماله ويكسوه ويطعمه من طعامه، وكان الرسول منعماً عليه نعمة دنيوية يجب جزاؤها فلا يصلح أن ينطبق عليه وصف هاتين الآيتين .

ولذا أجمعت الأمة المسلمة أن أفضلها بعد نبيها هو أبو بكر الصديق، إذ له الفضل على الناس جميعاً، بإنفاق ماله على النبى ﷺ، والذود عنه، والسبق فى الإسلام إليه حتى كان أول من أسلم من الرجال، فرضى الله

(١) سورة الحجرات / من الآية ١٣ .

تعالى عنه وأرضاه، بيد أن بغض الشيعة لأبى بكر وعمر وتكفيرهم للأصحاب الرسول ﷺ هو الذى دفعهم إلى رد الآية ودفع فضلها عن أبى بكر الصديق وقد خابوا وخسروا .

قال الصابونى: (ونحن مع حبنا لعلى وتكريمنا له، نقول: لا يمكن حمل هذه الآية على على ﷺ لأن الله تعالى ذكر في وصف هذا الأتقى وصفا لا ينطبق عليه، وهو قوله: (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) أى ليس لأحد عليه نعمة حتى يكافئه عليها، وعلى كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه، وكان ﷺ منعماً عليه نعمة يجب عليه شكرها والجزاء عنها، أما أبو بكر ﷺ فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل كان أبو بكر ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبى بكر الصديق ﷺ لا في على ﷺ، وأن (أبا بكر) هو الذى اشترى بلالا وأعتقه، لا على رضى الله عنهما جميعاً، ورزقنا شفاعتهما ومحبتهما، فكل الصحابة عظماء أجلاء، ولا يجوز أن نغمط أحداً فضله ولكن الحق أحق أن يقال ويتبع !)

ثم إن سبب نزول الآية يبين أنها نزلت فى أبى بكر حين عاتبه أبوه على أنه ينفق ماله فى عتق العبيد والجوارى من الضعفاء الذين أسلموا فعذبهم المشركون، وقال له: "لو اشتريت بهذا المال رجالاً أشداء يدافعون عنك ويحمون ظهرك"، فرد عليه الصديق بقوله: "ما منع ظهري أريد وما أريد إلا وجه الله تعالى" فنزلت الآية، وقال الفخر الرازى والقرطبى وابن كثير وغيرهم: (أن بلالاً كان (عبداً) لعبد الله بن جدعان فسلح على الأصنام فشكا إليه المشركون فعله فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: "أحد. أحد"، فمر به رسول الله ﷺ وقال له: "ينجيك أحد أحد"، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالاً يُعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: "ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده"، فنزل ﴿وَمَا

لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)، وقال ابن الزبير وهو على المنبر: " كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: "يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك"، فقال: "ما منع ظهري أريد" فنزلت هذه الآية).

وإننا نشهد الله ﷻ أنا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسائر الصحب الكرام والتابعين الأعلام ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا بهذا الحب يوم اللقاء، ونشهد الله ﷻ أنا نكره من يكرههم ونعادي من يعاديهم .

لطيفة تحسن الإشارة إليها :

ورد ذكر أبي بكر الصديق ﷺ في سورة الليل في ثلاثة عشر موضعاً حاولت حصرها فيما يلي: بضمير الغائب وتقديره "هو" في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾، ثم بالضمير نفسه في ﴿وَاتَّقَى﴾، وكذا في قوله: ﴿وَصَدَّقَ﴾، ثم بالضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به ﴿فَسَيُسْرُهُ لِيُسْرَى﴾ (٧)، ثم بالضمير المستتر تقديره "هو" في محل رفع فاعل وذلك في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾، ثم بالاسم الظاهر ﴿الْآتَقَى﴾، وبالضمير الفاعل المستتر وتقديره " هو" في قوله تعالى: ﴿يُوتِي﴾، ثم أُشير إليه بالضمير المتصل بالاسم في قوله: ﴿مَالَهُ﴾ وبالضمير المستتر وتقديره (هو) والذي هو ضمير مبنى في محل رفع فاعل وذلك في الفعل ﴿يَنْزَكِي﴾، ثم بالضمير المتصل بالظرف في كلمة ﴿عِنْدَهُ﴾، ثم بالضمير المضاف إلى كلمة "رب" في قوله: ﴿رَبِّهِ﴾، وأخيراً بالضمير المستتر المبنى في محل رفع فاعل ﴿يَرْضَى﴾.... والله أعلى وأعلم .

مع التنبيه على أن هذه الآيات وإن كانت قد تحدثت على أبي بكر الصديق - رضى - لكنها صالحة للتطبيق على كل من اتصف بصفاته وتخلق بأخلاقه وسار على دربه، فإن العبرة كما قال أهل التفسير بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. والله أعلم .

﴿سورة الشمس﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى ؟ وعلام أقسم ؟

الجواب: إن الله ﷻ أقسم في هذه السورة بأشياء، وهى :

- «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا»: والضحي هو ارتفاع الشمس من أول النهار .

- «وَالْقَمَرَ إِذَا تَبَيَّهَا»: أى القمر إذا تبع الشمس فى المنازل والنور .

- «وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّيَهَا»: أى النهار إذا انتشر ضوءه فعم الأرض وكشف ما فيها .

- «وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا»: أى الليل إذا غطى ظلامه وجه الأرض .

- «وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا»: إذا كانت ما موصولة كان الله تعالى يقسم بنفسه فهو باني السماء ، وإذا كانت ما موصولة فالقسم بالسماء وإحكامها وإتقان بُنيانها .

- «وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّاهَا»: أى الأرض وامتدادها واتساعها لتشمل كل الخلائق وتجرى فيها كل المنافع.

- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا»: أى النفوس التى أودعت فى الخلائق - عاقلة وغير عاقلة - وفيها سر حياتهم.

قال الصابونى: (قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء (الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية) إظهاراً لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارة إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها، وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها)^(١).

أما المُقسَم عليه فهو قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)» فالله ﷻ يقسم على فلاح من طهر نفسه من دنس المعاصي

(١) صفوة التفاسير ٤٩٣/٣ .

وأخلصها الله ﷻ، وعلى خيبة وخسارة من حقر نفسه بالكفر والمعاصي وأوردها موارد الهلكة، وأصل التدسية الإخفاء والمعنى خاب من أخفى نفسه بالمعاصي ... عياداً بك اللهم .

وذهب بعض المفسرين إلى أن جواب القسم محذوف، قال ابن عجيبة: (وجواب القسم محذوف، والتقدير: ليهلكنَّ الله مَنْ كفر من قریش ويُدْمَدَم عليهم كما دمدم على ثمود) (١) .

المسألة الثانية: ما الدرس العقائدى المستفاد من قوله ﷻ: ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨)؟

والجواب: إن هذه الآية الكريمة من بين أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإنسان مخير وليس مسيراً؛ أى أن الله ﷻ أعطاه حرية اختيار طريقه: إما طريق التقوى، أو طريق الفجور، ولم يجبره الله ﷻ على طريق معين ويدفعه فيه وإلا كان الإنسان مسيراً مجبراً، وفى ذلك ظلم لأصحاب النار إذ إنهم - على هذا المعتقد الفاسد - مسلوبو الإرادة، وفى ذلك اتهام لمقام الله ﷻ بالظلم، والظلم نقص، والله ﷻ منزه عن كل نقیصة .

فالآية دليل على أن الله ﷻ أوضح الطريقين لعباده، بإنزال الكتب وإرسال الرسل ومنحهم العقل الذى يعرفون به ما فيه صلاحهم وفسادهم، قال ابن عجيبة - رحمه الله - : ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) أي: ألهمها طاعتها ومعصيتها ، وأفهمها قبح المعصية وحسن الطاعة ، أو عرّفها طرق الفجور والتقوى، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين، ويحتمل أن تكون الواو بمعنى "أو" كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) (٢)، أي: ألهم مَنْ أراد شقاوتها فجورها فسعت إليه، وألهم مَنْ أراد سعادتها تقواها، فسعت إليه (٣) .

(١) البحر المديد ٨ / ٤٧٥ .

(٢) سورة الإنسان / الآية ٣ .

(٣) البحر المديد ٨ / ٤٧٥ .

المسألة الثالثة: ما المثل الذى ضربه الله تعالى فى هذه السورة لمن

خاب وخسر نفسه ؟

والجواب: إنه مثل (ثمود) قوم صالح - عليه السلام - التى كذبت رسول الله وحادت عن طريقه «بَطْغَوْهَا» أى بسبب طغيانها واعتدادها بقوتها وغناها، فاتفقوا على قتل الناقة وهى آية الله ﷻ إليهم، وأسرع لهذا الفعل الدنى «أَشَقَّهَا» وهو أشقى القوم وأشدهم إجراماً، قال المفسرون: هو قُدار بن سالف قام إلى الناقة فعقرها، ولم يعتبروا بنصيحة رسولهم صالح - عليه السلام - لما قال لهم: «نَاقَةٌ لِلَّهِ» وقد جاءت ناقة منصوبة على أنها مفعول به لفعل محذوف والتقدير: اتركوا ناقة الله، قال الزجاج: (منصوب على معنى: ذروا ناقة الله) ^(١) «وَسُقِيَهَا» شربها، أي: ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، لكنهم كذبوه وخالفوا أمره وعقروا الناقة، فماذا كان الجزاء ؟

قال الله تعالى: «فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)» أى أنزل عليهم العذاب، قال البيضاوى: (فأطبق عليهم العذاب وهو من قبيل قولهم: "ناقة مدمومة" إذا ألبسها الشحم، «بِذُنُوبِهِمْ» أى بسببه، «فَسَوَّاهَا» أى: فسوى الدمدمة بينهم أو عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير) ^(٢)، (قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشتراك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها) ^(٣)، وقيل لها معنى آخر وهو من التسوية أى سوى الله بهم الأرض .

المسألة الرابعة: ما المراد بقوله تعالى: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)» ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى المقصود بالآية، فقال بعضهم هو الله ﷻ، وقال بعضهم: بل هو صالح - عليه السلام - وقال آخرون:

(١) تفسير البغوى ٨ / ٤٤٠ .

(٢) تفسير البيضاوى ٥ / ٤٩٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٤١٤ .

بل هو أشقى ثمود عاقر الناقة، وعلى هذا ستتعدد المعانى مع تعدد الفاعل، فإن كان المقصود هو الله ﷻ فالمعنى أن الله ﷻ دمر ثمود وسوى بهم الأرض وهو فعل الملك الجبار المتصرف فى خلقه بما يشاء ولا يخاف ﷻ شيئاً من عواقب فعله فهو ﷻ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣)^(١)، وإذا كان المقصود هو صالح - عليه السلام - فيكون المعنى (ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك)^(٢) أما إن كان المقصود هو عاقر الناقة فالمعنى أنه أقدم على فعلته الشنعاء وجريمته النكراء دون مبالاة بوعيد صالح لهم ولا اكتراث بعاقبة هذا الفعل .

(١) سورة الأنبياء / الآية ٢٣ .
(٢) مفاتيح الغيب ، ٣١ / ١٧٨ .

﴿سورة البلد﴾

وفيها سبع مسائل:

المسألة الأولى: ما معنى النفى "بلا" فى قوله تعالى : ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)﴾ ؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى معنى "لا" فى هذا القسم، وقد أحسن القرطبى حين جمع أقوال أهل العلم فيها، فذكر منها :
إنها زائدة - وهو قول الأخفش وغيره - والمعنى: أقسم بهذا البلد، وهو قول مردود عليه من أغلب أهل اللغة ، قال القرطبى: (فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به)^(١).

وقيل هى ليست للنفى وإنما هى بمعنى الإثبات، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة الحسن والأعمش وابن كثير " لأقسم "من غير ألف بعد اللام إثباتاً، قال الشنقيطى: (يشهد لهذا الوجه قراءة قنبل: "لأقسم بهذا البلد" بلام الابتداء وهو مروى عن البزى والحسن)^(٢) ، وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى " ألا "، وقيل بل هى بمعنى النفى الصريح والمراد: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، أى لا أقسم بهذا البلد بعد خروجك منه، كما قيل إن " لا " ليست متعلقة بنفى القسم فى أول السورة، بل لها ارتباط بكلام سابق فهى رد لكلام المشركين ثم جاء القسم من الله ﷻ، وهذا اختيار ابن العربي، لأنه قال: (وأما من قال إنها رد، فهو قول ليس له رد، لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد، فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتداء القسم)^(٣)، فالنفى هنا رد لما توهمها الإنسان المغرور بالدنيا، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتداء القسم .

المسألة الثانية: ما البلد المُقْسَمُ بها وما معنى: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)﴾ ؟

والجواب: أجمع المفسرون على أن البلد المذكورة هنا هى مكة المكرمة، وقد أقسم الله ﷻ بها لشرفها وعظيم مكانتها، وهو ما يتفق مع

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) أضواء البيان ، ٨ / ٣٧١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدَ مَا وَلَدَ (٣)﴾، وهو قسم كما يرى كثير من المفسرين بآدم أبى البشر وذريته من بعده، فيكون الله ﷻ قد أقسم بأم القرى وأصلها وأصل البشر وأبيهم. ثم خاطب الله ﷻ رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)﴾، وفى معنى الآية أقوال:

الأول: أى أن الله ﷻ حرّم مكة وجعلها حرماً آمناً، ولم يحلها إلا لنبيه ﷺ حيث أحلها الله ﷻ لنبيه ﷻ فى فتح مكة ساعة من نهار، قال المفسرون: (وَأَنْتَ - يا محمد - حَلٌّ - حلال - بهذا الْبَلَدِ (تصنع ما تريد من القتل والأسر، وذلك أَنَّ الله ﷻ أحلَّ لنبيه ﷻ مكة يوم الفتح حتى قاتل وقتل، وأحلَّ ما شاء وحرّم ما شاء، وقتل ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابه وغيرهما ثم قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فأحلَّ دم ابن خطل وأصحابه وحرّم دار أبي سفيان، ثم قال ﷺ: (إنَّ الله ﷻ حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلي أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا نختلي خلالها ولا نفر صيدها ولا يحل لقطتها إلا المنشد) (١).

الثانى: إن هذه الآية تتحدث عن أهل مكة الذين استحلوا حرمة الرسول ﷺ واعتدوا عليه وعلى أصحابه فى هذا البلد الحرام، قال الزمخشري: (إن مثلك على عظم حرمتك يُستحل بهذا البلد الحرام كما يُستحل الصيد فى غير الحرم، عن شرحبيل: "يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك" وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم فى عداوته) (٢) أما الثالث: فيرى أن معنى ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ من حلّ بالمكان أى نزل فيه، وكأنها بشارة للرسول ﷺ بأنه سيرجع لمكة ويفتحها، وينزل بها عزيزاً

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٥٩ .
(٢) الكشف ٤ / ٧٥٧ .

منتصراً، بعد أن أخرجه قومه منها، ونظيره قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٌ﴾^(١)، ويكون المعنى عندئذٍ نقسم بهذا البلد حال كونك مقيماً ومستقراً فيه .

المسألة الثالثة: ما علاقة القسم بالبلد ، بقوله تعالى: ﴿وَأنتَ حلٌّ بهذا البلد﴾ (٢)؟

والجواب: أن الله ﷻ لما عظم مكة وبين حرمتها بالقسم بها زادها إعظماً ببيان أنها بلد أشرف الناس وسيد ولد آدم، وذلك أن شرف المكان بشرف السكان، قال البقاعي: (فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد)^(٢).

المسألة الرابعة: كيف خلق الإنسان في كبد ؟

الجواب: الكبد هو المشقة العنت والنصب، (قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعن ابن عباس: في شدة خلق حمله وولادته ورضاعه وفصاله ومعاشه وحياته وموته)^(٣)، ومن أجمل ما قرأت من أقوال المفسرين في بيان حالة الكبد والمشقة التي هي مرتبطة بالإنسان منذ خلقته إلى بعد موته وحسابه ما قاله بعض العلماء: (إن أول ما يكابد قطع سرتة، ثم إذا قمت قماطاً وشدّ رباطاً يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع ولو فاتته ضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشدّ من اللطام، ثم يكابد الختان والأوجاع، ثم المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيئته، ثم يكابد شغل التزويج، وشغل الأولاد والخدم وشغل المسكن والجيران، ثم الكبر والهرم، وضعف الركب والقدم، في مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وهمّ الدين، ووجع السنّ، وألم الأذن، ويكابد محناً في المال والنفس من الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ثم يكابد بعد

(١) سورة القصص / من الآية ٨٥ .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٢٦/٨ .
(٣) الكشف والبيان ١٠ / ٢٠٧ .

ذلك مشقة الموت، ثم بعده سؤال الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقرّ به القرار: إما في الجنة، وإما في النار (١) وفي ذلك دليل قدرة الله ﷻ وعظمته، وافتقار جميع الخلق إليه مهما علا شأنهم وكثرت أموالهم .

المسألة الخامسة: ما المراد بالنجدين، في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠)؟

والجواب: قال بعض أهل العلم: إن النجدين هما الطريقان أى طريق الخير وطريق الشر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) (٢)، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (٣) .

وقال بعض أهل العلم: إن النجد في اللغة هو المكان البارز المرتفع ومنه سُميت نجد لارتفاعها، (قال قطرب: والنجد هو الطريق المرتفع فأرض نجد هي المرتفعة، وأرض تهامة هي المنخفضة) (٤) فالنجدان هما النديان لأنهما بارزان مرتفعان في صدر المرأة، ولما كان الله ﷻ في الآيات قبلها يمتن على عباده بتسوية خلقتهم وحسنها وجعل العينين واللسان والشفنتين لهم، كان الحديث في هذه الآية عن المولود أول ما يولد فيهديه الله ﷻ لثدى أمه دون تعليم من أحد له فيلنقمه ليأخذ منه غذاءه، وهى منة من الله ﷻ على خلقه كافة .

المسألة السادسة: في قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) ما المراد بالعقبة ؟ وكيف يقتحمها الإنسان ؟

الجواب: العقبة هي عقبة كئود صعبة تحول بين الإنسان والجنة، وقيل هو مثل ضربه الله ﷻ لمجاهدة الإنسان لنفسه ودفعها في أعمال البر والبعد عن الشهوات وعلى الإنسان أن يقتحمها ليعبر منها إلى الجنة.

(١) السراج المنير ٤ / ٣٩٣ .
(٢) سورة الإنسان / الآية ٣ .
(٣) سورة فصلت / من الآية ١٧ .
(٤) النكت والعيون ٦ / ٢٧٨ .

أما عن كيفية عبورها واقتحامها :

فقد بيّن الله ﷻ أن اقتحامها إنما يكون بخمسة أمور :

الأول: ﴿فَكُ رَقَبَةً (١٣)﴾ أى عتق الرقاب أى تحرير الرقيق والإماء وقد صار هذا اليوم منعماً ويحتمل أن يكون المراد أن يعتق الإنسان رقبته من النار بفعل الطاعات وترك المنكرات، وبه قال جمع من المفسرين .

الثانى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾، وهى وصية من الله ﷻ لمن أراد أن يقتحم العقبة ليصل إلى الجنة، فعليه بإطعام الطعام وهو من أعظم الأعمال فى رمضان أو فى غير رمضان، وهذا الإطعام إنما يزيد ثوابه ويعظم أجره إذا كان ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ والمسغبة هى المجاعة وشدة الجوع إما لغلاء أو لقطط، وفى هذا اليوم تكون حاجة الناس إلى الطعام أكبر والبذل به حال وجوده أشق على النفس وأصعب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾^(١)، فالطعام قليل واليوم يوم مجاعة وشدة، ثم الإطعام يكون ليقيم فقد أباه وولى أمره، وهو يتيم قريب ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أو لمسكين محتاج فقير معدم ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، قال الفخر: (أى لصق بالتراب من فقره وضره فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه)^(٢) وهذه الآية تدلنا على أن العبد كلما اجتهد فى إيصال الصدقة لمن كان فى غاية الاحتياج إليها كلما عظم ثوابه وارتفعت درجته، فهذا الذى ينفق إنما ينفق طعاماً فى يوم مجاعة عزّ فيه الطعام وندر، ثم هو ينفق هذا الطعام العزيز فى هذا اليوم العصيب على يتيم لا يجد من يقوم على أمره ثم هو يتيم تجمع به صلة القرابة ليكون الأجر أضعافاً مضاعفة، أو يطعم به مسكيناً جائعاً جعل التراب فراشه وغطاءه من شدة الفقر والعوز.

(١) سورة الإنسان / من الآية ٨ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٦٩ .

الثالث: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أى وهو مع ذلك حريص على الإيمان يفعل الخيرات مع إيمان قلبه، إذ لا يصلح العمل دون إيمان ولا اتباع ولا إخلاص لله رب العالمين .

الرابع: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أى أوصى بعضهم بعضاً بالالتزام منهج الصبر وطريقه، والتمسك بأنواعه حال شهوة المعصية، وثقل الطاعة، وألم الأقدار والمصائب .

الخامس: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أى بالرحمة، (قال ابن عباس: كل ما يؤدي الى رحمة الله تعالى) ^(١)، أى أوصى بعضهم بعضاً برحمة الفقراء والمساكين، قال الجزائرى: (بمثل هذا تجتاز العقبة وينجو المرء من عذاب الله، وفي مثل هذا تتفق الأموال لا أن تتفق في الدسائس والمكر بالصالحين وخداع المؤمنين) ^(٢).

المسألة السابعة: ما الزيادة التى أضافها وصف النار بالمؤصدة ؟

والجواب: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ اسم مفعول من أوصد الباب بالواو أى أغلقه، أو أصدده بالهمزة وهما لغتان، قال الفخر الرازى: (قرأ الجمهور: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ بواو ساكنة بعد الميم من أوصد بالواو، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم من ءأصد الباب، بهمزتين بمعنى وصدّه) ^(٣).

وفى هذا زيادة العذاب عليهم وقطع لحبل الأمل فى نفوسهم فلا منجى ولا مهرب من النار، فهى (مطبقة لا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد) ^(٤) .

وهنا لطيفة تحسن الإشارة إليها: الناظر إلى خاتمة سورة البلد ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ (٢٠)﴾ يجد بينها وبين خاتمة سورة (الهمزة) ﴿إِنَّهَا

(١) المحرر الوجيز ٤٥٧/٥ .
(٢) أيسر التفاسير ٥٧٥/٥ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٥٥/١٦ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٤ .

عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ (٩)﴾ مشابهة، بيد أن خاتمة (الهمزة) وردت فيها زيادة ﴿فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ٩﴾ والتي لم ترد في سورة البلد فما العلة في ذلك ؟

أجاب على هذا السؤال د. السامرائي فقال: (كل تعبير هو أليق بمكانه من نواح منها :

- أنه توسع في سورة الهمزة في ذكر صفات المعذب وتوسع في ذكر العذاب، فذكر في صفات المعذب أنه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)﴾ في حين أنه لم يزد في سورة (البلد) على ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولما توسع في ذكر المعذب توسع في ذكر عذابه، فناسب ذلك ذكر الزيادة في سورة الهمزة دون سورة البلد .

- ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر جمع المال وعدده كي يحفظه من النقصان فكما حفظ المال وأغلق عليه الأبواب، أُغْلِقَتْ عَلَيْهِ أبواب جهنم واستوثق منها بأن مُدَّتْ عَلَيْهَا الأعمدة، في حين أنه ذكر في سورة البلد أنه أَهْلَكَ مَالًا لِبَدَا، فذلك أَهْلَكَ المال وأنفقه، وهذا جمع المال وحفظه، فناسب ذكر الحفظ وشدة الاستيثاق في سورة الهمزة الاستيثاق من غلق باب النار عليه، والجزاء من جنس العمل .

﴿سورة الفجر﴾

وفيها احدى عشرة مسألة :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى في أول السورة وما المُقسَم عليه؟
والجواب: أقسم الله ﷻ في هذه السورة بأربع أشياء من خلقه، وهى :
- ﴿وَالْفَجْرِ (١)﴾: قال بعض المفسرين هى صلاة الفجر فى كل الأيام، قال الماوردى: (وهو انفجار الصبح من أفق المشرق، وهما فجران: فالأول منهما مستطيل كذنب السرحان يبدو كعمود نور لا عرض له، ثم يغيب لظلام يتخلله، ويُسمى هذا الفجر المبشر للصبح ، وبعضهم يسميه الكاذب لأنه كذب بالصبح وهو من جملة الليل لا تأثير له في صلاة ولا صوم، وأما الثاني فهو مستطيل النور منتشر في الأفق ويسمى الفجر الصادق لأنه صدق عن الصبح) ^(١)، (وقال قتادة: هو أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة) ^(٢)، (وفي بعض التفاسير: أن الفجر: الصخور والعيون تنفجر بالمياه) ^(٣).

قلت: والأرجح القول الأول خاصة لتعلقه بما بعده من قسم بالأزمنة والمواقيت .

- ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ (٢)﴾: اختلف المفسرون فى تحديدها فقال بعضهم هى عشر ذى الحجة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي والحلبي وغيرهم، وقال بعضهم: هى الأيام العشر من رمضان وقيل الأيام الأواخر منه، وقال بعضهم: العشر الأولى من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء .

- ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ الأصل فى اللغة إن الشفع العدد الزوجى الذى يقبل أن يُقسَم على اثنين، والوتر عدد فرد لا يقبل القسمة

(١) النكت والعيون ٦ / ٢٦٤
(٢) الكشف والبيان ١٠ / ١٩١ .
(٣) المرجع السابق ١٠ / ١٩١ .

على اثنين، وقد تعددت أيضاً أقوال المفسرين فى بيان معنى الشفع والوتر فقال بعضهم: الوتر هو الله ﷻ إذ لا شريك له ولا ثانى له فهو واحد أحد أما الشفع فهم جميع خلقه، وذهب بعضهم إلى أن الوتر هو آدم عليه السلام حيث خلقه الله ﷻ بيده فرداً واحداً فهو أبو البشر، والشفع هى حواء أم البشر حيث شفع الله ﷻ آدم بها فصارا معاً اثنين، وقيل بل هى الصلوات منها شفع كالفجر ومنها وتر كالمغرب، و(قال عكرمة: "عرفة وتر، ويوم النحر شفع عرفة يوم التاسع، والنحر يوم العاشر")^(١)، وقيل غير ذلك من أقوال لا تخرج عما ذكرناه... والعلم عند الله ﷻ .

- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ (٤): والأصل يسرى أى يسير ويذهب، ومعلوم أن الليل لا يسير ولا يذهب وإنما يُسار فيه والمعنى إذا سار فيه أهله، وقال ابن عباس عليه السلام: إذا يسر أى إذا أظلم، وقيل بل الليل يذهب (لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك فينتقل من أفق إلى أفق، ومنه قولهم جاء الليل وذهب النهار)^(٢) .

فهذه هى الأشياء الأربعة التى أقسم بها الله ﷻ، فما المُقسم عليه ؟
والجواب: إن المفسرين قد اختلفوا فى تحديد المُقسم عليه، فقال بعضهم: إنه لم يُذكر صراحة فى السورة الكريمة بل هو محذوف وتقديره (ليعذبين) وذلك بدلالة ما جاء بعده من حديث الله ﷻ عن إهلاكه لعاد وثمود وفرعون، (وقال ابن الانباري: إن المُقسم عليه هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ١٤، وقال مقاتل فى قوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ (٥) ﴿إِنْ هَلْ﴾ هنا بمعنى إن، والتقدير: إن فى ذلك قسماً لذي حجر، وهى المُقسم عليه)^(٣) .

(١) الدر المنثور للسيوطى ٨ / ٥٠٤، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٩٣ م .

(٢) النكت والعيون ٦ / ٢٦٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٤٣

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (٥)؟

الجواب: الحِجْر هو العقل، وسُمي العقل حَجْرًا لأنه يحجر صاحبه ويمنعه من الوقوع في المنكرات والمهالك ومنه سُمي الحَجْر لامتناعه بصلايته، ومنه حجر الحاكم على فلان أي منعه وضبطه عن التصرف، ولذلك سُميت الحُجْرَة حجرة لامتناع من فيها بها، وقد ورد في بعض كتب التفاسير تفسير الحجر بالحلم، أو الستر عن الناس والحق أن كلها معاني تدور في إطار العقل ولا تتعارض معه، فعقل المرء يجعله حليماً غير مجاهر بعيوبه أمام الناس فيستر نفسه بستر الله ﷻ عليه .

ومعنى الآية يقول تعالى ذكره: (هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مُقنع لذي حجر؟، وإنما عني بذلك: إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه مما هو أغلظ منه في الإقسام) (١) .

المسألة الثالثة: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للمكذبين الذين أهلكهم، فمن هم ؟

الجواب: ضرب الله ﷻ ثلاثة أمثلة للطغاة الكافرين الذين أهلكهم الله ﷻ وجعلهم للعالمين آية، وهم :

المثال الأول: هو قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ حيث ذكر الله ﷻ لنبيه كيف أهلك عاداً وهم قوم هود - عليه السلام - ﴿إِرَمَ﴾ اختلف أهل التأويل في معناها، فقال بعضهم: هي اسم بلدة اختلفوا كذلك في تحديدها فقال بعضهم هي الإسكندرية وقال آخرون هي دمشق، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ هو اسم رجل كان من نسله قبيلة عاد فهو جداهم الأكبر وإليه يُنسبون، وقال آخرون: بل ﴿إِرَمَ﴾ بمعنى الهالك والعرب يقولون: " أَرَمَ بنو

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ٢٤ / ٤٠٢ .

فلان: أى هلكوا، ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قيل أى أجسامهم طويلة طول العمدة، (وقال بعضهم: بل قيل لهم: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا أهل عَمَدَ، يبحثون عن مواضع المطر، وينتقلون إلى الكلاً حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم (فكانوا عرباً سيارة بينون بيوتهم على الأعمدة على عادة العرب)^(١).

يقول صاحب الظلال: (وقيل: إنها من العرب العاربة أو البادية وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن، وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها)^(٢) وعلى هذا فالعماد في الآية إما أن يُراد به طول أجسامهم أو عماد خيامهم التي ينتقلون بها بحثاً عن مواطن القطر ومواضع الرعى، وقد وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ أى لم تعرف الأرض لهم مثيلاً.

قال البغوي: (أى لم يُخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾)^(٣)/^(٤).

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)﴾ وهم ثمود قوم صالح - عليه السلام - ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أى كانوا يقطعون الصخر وينحتون في الجبال بيوتاً مصداقاً لقول الله ﷻ: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢)﴾^(٥) وقد قيل: إن ثمود أول أُمم البشر الذين نحتوا الصخر والرخام .

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ وهو ملك مصر وقد اختلف المفسرون في المراد من الأوتاد، فقال بعضهم إن المراد

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٢٢/٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٤ / ٨ .

(٣) سور فصلت / من الآية ١٥ .

(٤) معالم التنزيل ٤١٨ / ٨ .

(٥) سورة الحجر / الآية ٨٢ .

بها الجيوش والجنود التي تشد ملكه كما تشد الأوتاد الخيمة، أو سمي الجند أوتاداً (لكثره المضارب التي كانوا يضربونها ويوتّدونها في أسفارهم) ^(١)، وقال مجاهد وغيره : "كان يعذبّ الناس بالأوتاد وكان إذا غضب على أحد مدّه على الأرض وأوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض" ^(٢)، وأياً كان المعنى المراد من الأوتاد فإنها تدل على البطش والقوة والملك العضود الذي لم يغن عن فرعون وجنده من عذاب الله وانتقامه شيئاً .

المسألة الرابعة: لم استعمل القرآن الكريم لفظ السوط كأداة للعذاب

دون غيره من الأدوات ؟

والجواب: لعل ذلك من وجوه :

الأول: أن العرب كانت تعذب بالضرب بالسياط، فخطبهم القرآن وتوعدهم بما يفهمونه، قال القرطبي: (وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب) ^(٣) .

الثاني: جاء استعمال القرآن الكريم للفظ السوط للدلالة على اختلاط العذاب بلحمهم ودمائهم وأعصابهم، فأصل السوط في اللغة من الخلط، فالعرب يقولون: ساط يسوط سوطاً إذا خلط الشيء بعضه ببعض فهو سائط قال ابن منظور: (وسمي السوط سوطاً لأنه إذا سيط به إنسان أو دابة خلط الدم باللحم وهو مشتق من ذلك لأنه يخلط الدم باللحم ويسوطه) ^(٤)، ومن ذلك قول كعب بن زهير رضي الله عنه في قصيدته المشهورة (بانث سعاد) وفيها :

لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دَمِهَا * فَجَعَّ وَوَلَعَّ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أى كأن هذه الأخلاق قد سيطت بدمها أى اختلطت به وامتزجت معه .

الثالث: أشار الزمخشري إلى معنى بديع يفهم من ذكر السوط في الآية، وهو أن السوط أقل أداة تُستخدم في التعذيب، فكان الله ﻋَﻠَﻴْكَ قد عذبهم

(١) الكشف والبيان ١٩٧/١٠ .

(٢) المرجع السابق ١٩٨/١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤٩/٢٠ .

(٤) لسان العرب ٣٢٥/٧ .

بأقل أدوات العذاب مقارنة بما ينتظرهم من عذاب الآخرة وما فيها من نار الجحيم، وماء الحميم، والزقوم، وحر السعير، والغسلين، والأغلال والمهريير قال الزمخشري: (وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به، وعن عمر بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها) (١) .

المسألة الخامسة: ما الدلالة الإيمانية التي يمكن للعبد أن يستفيد منها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾؟

والجواب: المرصاد من (رصد تقول: رَصَدْتُهُ إذا قعدت له على طريقة تترقبه وأرصدت له العقوبة إذا أعددت لها وحقيقته : جعلتها على طريقة كالمترقبة له) (٢) (وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفوتونه) (٣) .

وفي الآية تهديد للكافرين المعاندين وتثبيت لقلوب المؤمنين، وبيان قدرة الله ﷻ على الظالمين وأنهم لا يفوتونه ولا يعجزونه، فتبث الآية الأمل في قلوب المظلومين المضطهدين من أجل دينهم .
كما تنمى الآية عند المؤمن مفهوم المراقبة لله ﷻ والحذر من عقابه وعدم الاغترار بستره، فإنه ﷻ يمهّل ولا يهمل، وإذا أخذ العبد الظلوم لم يفلته، فإن الحليم إذا غضب لم يقف لغضبه شيء، فنسأل الله ﷻ العفو الجميل والستر العيم .

المسألة السادسة: كيف أوضحت الآيات حال الإنسان الجحود في حالة السراء، الجزوع في حالة الضراء ؟

الجواب: تحدثت الآيات عن حالتين للإنسان لا يخلو منهما بحال :
الأولى: حالته عند الغنى والإكرام فيظن بنفسه الخير والقرب من الله ﷻ، ويعتقد أن هذا الغنى والمال دلالة على الرضا من الله عليه، قال الله

(١) الكشف ٤ / ٧٥١ - ٧٥٢ .

(٢) الفائق في غريب الحديث للزمخشري، ٦٢/٢، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٥٦/٩ .

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿فَاعْتَدِ هَذَا الْعَبْدُ أَنْ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .

الثانية: عند المنع والفقر يعتقد هذا العبد أن هذا التضيق دليل الإهانة واليعد عن الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦).

وما علم هذا المسكين أنه مخطئ في الحكم والتقدير، فقيمة العبد عند الله ﷻ لا تتوقف على عرض الدنيا الزائل فإن الله ﷻ يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، يقول صاحب الضلال معلقاً على تقييم هذا الإنسان: (غير أن الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله . . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالين؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!) (١).

وهذه السورة المباركة مكية فقد نزلت في مجتمع المشركين الذين يُعلون من قيمة الدنيا ويرفعون من شأن أصحابها ويبنون معيار التفاضل فيما بينهم على ما يتحصله المرء من هذا النعيم الزائل ويرون أن الفقير لو أحبه الله لأغناه وأن الغني ما أغناه الله إلا لأنه يكرمه ويحبه، وهذا معيار المشركين في كل زمان ومكان حتى قال صاحب الجنتين المنكر للبعث والنشور وهو يحاور أخاه المؤمن الفقير فيما حكاه القرآن عنه : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)﴾ فقد ظن هذا المغرور بدينه أنه لولا حب الله له ما أعطاه هاتين الجنتين في الدنيا وأنه مستحق لهما في الآخرة بالضرورة .

(١) في ظلال القرآن ٣٥/٨ .

ونلاحظ هنا فى الآيتين التعبير القرآنى الحكيم عن المنح والمنع، والبسط والقبض، والغنى والفقر بالابتلاء، قال الله ﷻ فى حال المنح: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وقال فى حال المنع: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ فلفت الأنظار إلى أن الحالتين ابتلاء، قال الله ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾^(١)، فالإنسان فى ابتلاء دائم بالمنح والمنع فالله ﷻ يعطى العبد ليرى ماذا سيفعل فى هذه النعم ويختبر شكره وتواضعه، ويبتليه بالفقر والتضييق ليرى صبره ورضاه بقضاء الله وقدره ، فحال العبد بين نعمة فيشكر وبين نقمة فيصبر .

المسألة السابعة: ما معنى التراث؟ ولم جاء القرآن الكريم مع التراث بالأكل اللّم ومع المال بالحبّ الجم، فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لِّمًا (١٩) وَتَحِبُّونَ أَمْالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾؟

الجواب: التراث هو الميراث الذى يرثه الورثة من قريبهم الميت، والأكل اللّم هو الأكل الشديد الجامع الذى لا يترك شيئاً، فذمهم الله ﷻ بأكلهم الميراث بالباطل وذلك بأكلهم نصيبهم من الميراث مع نصيب غيرهم، أو لأنهم كانوا لا يورثون النساء والأطفال ويأكلون نصيبهم من الميراث، أو لأنهم كانوا يأكلون الميراث وهم يعلمون أن المتوفى قد جمعه من حلال ومن حرام فيجمعون الحلال مع الحرام ويأكلونه دون تحرج ولا تأثم ، ويجوز أن تكون الآية ذمّاً للوارث الذى يرث المال من غير كد ولا تعب فيسرف فى إنفاقه، قال الزمخشري: (ويجوز أن يذمّ الوارث الذى ظفر بالمال سهلاً مهلاً، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف فى إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوراث البطالون)^(٢)، ولذا ناسب الميراث أن يأتى معه الأكل الجم الواسع الذى لا يفرق بين حلال وحرام .

(١) سورة الأنبياء / من الآية ٣٥.

(٢) الكشف ٤ / ٧٥٤ .

أما المال فقد جُبِلَ الإنسان على حبه جباً جماً أى حباً شديداً كثيراً مع الحرص عليه والشره فيه والبخل به، وتلك عادة الإنسان التي جُبِلَ عليها، مؤمن كان أو كافر، فالمؤمن يحب المال ليقضى به مصالح دنياه ويُعين به إخوانه وينفق منه على الفقراء والمحتاجين، والكافر يحب المال ليتكاثر به وينفقه في شهواته وقضاء ملذاته .

المسألة الثامنة: ما الدلالة العقديّة من قوله تعالى: ﴿وَجَائِءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾؟

الجواب: دار خلاف بين أهل السنة من جانب، وبين المعتزلة والقدرية من جانب آخر حول الجنة والنار هل هما موجودتان الآن، أم أن الله ﷻ سيخلقهما يوم القيامة، فأهل السنة والجماعة يرون أن الجنة والنار موجودتان، وأنهما لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، قال: (حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: "بل ينشئهما الله يوم القيامة!")، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مدداً متطولة !!

فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدّعوا من خالف شريعتهم^(١)، ومن بين ما يستدل به أهل السنة من نصوص على وجود الجنة والنار وأبديتها قوله ﷻ عن الجنة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾^(٢)، وقوله ﷻ عن النار: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (٢١) لِلطَّاغِينَ مَأْأَباً (٢٢)﴾^(٣)، وقد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٦١٥/١ .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٣٣ .

(٣) سورة النبأ / الآيتان ٢١-٢٢ .

رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره: (ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)^(١) فدل هذا وغيره من الأحاديث على وجود الجنة والنار.

وفى هذه الآية من سورة الفجر ﴿وَجَايَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ دليل على وجودها وقدمها وأنها ستأتي يوم القيامة ليراها الناس، ولو كانت منعدمة لكانت الآية (وخلقت جهنم) لكن الآية تدل على مجيء جهنم لأنها مخلوقة وموجودة منذ القدم .

المسألة التاسعة: ما الدرس المستفاد من قول الإنسان يوم القيامة:
﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤)؟

الجواب: إن الإنسان يوم القيامة ستتكشف له الحقيقة؛ فيرى حقيقة الدنيا الزائلة، وزخرفها الفانى الذى طالما أضاع وقته واستفرغ فيها جهده مفرطاً فى جنب الله ﷻ، قد يجمع المال من حلال ومن حرام ثم يتركه لورثته، وقد يقترض من الربا لإرضاء زوجه وبنيه ثم يموت ويحاسب على الربا وورثته يتمتعون بماله، قد يقتل من أجل منصب أو جاه ثم يزول جاهه ويضيع منصبه، وينزل إلى قبره وحيداً منفرداً لتستبين له الحقيقة، بأن ما عاشه فى هذه الدنيا ليس هو الحياة، بل الحياة الحقيقية هى التى سيقدم عليها ولم يعد لها عدتها بل كان مشغولاً عن حياته الحقيقية بزيغ الدنيا، فيقول عندئذ متحسراً: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤)، ولكنه ندم وقت لا ينفع الندم ... نسأل الله ﷻ العفو والعافية ... وقد أحسن من قال وتنسب لعلى بن أبى طالب عليه السلام:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت * أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها *** إلا التى كان قبل الموت يبنها**

(١) صحيح البخارى ٣ / ١٢١٧ ورقمه ٣١٦٤ ، صحيح مسلم ١ / ١٤٨ ورقمه ١٦٣ .

فإن بناها بخير طاب مسكنه * وإن بناها بشر خاب بانيها**
 وفى تحسر المفرطين الظالمين رد على أصحاب الضلال من الجبرية
 وغيرهم الذين قالوا بأن الإنسان فى هذه الدنيا مجبر مسير لا مخير، حيث
 دلّ تحسرهم على أن اختيار الحق كان متاحاً لهم فى الدنيا وأنهم ليسوا
 بمجبرين على فعل المنكرات واختيار طريق الشرك والظلمات، بل
 أعطاهم الله ﷻ حرية الاختيار وأرسل لهم الرسل وأنزل لهم الكتب لكنهم
 تتكبوا طريق الهداية واتبعوا طريق الغواية بمحض اختيارهم وكامل
 إرادتهم بدليل تحسرهم على تركهم شيئاً كان بإمكانهم الأخذ به والنجاة من
 خلاله لكن شهواتهم وعنادهم ورفقاء السوء معهم أوردوهم موارد الهلاك
 ... نسأل الله ﷻ الثبات على دينه حتى الممات .

**المسألة العاشرة: ما معنى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ (٢٥) ولا
 يُوَثِّقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٦)؟**

الجواب: ذهب جمع من المفسرين كالقرطبي والفخر الرازى وغيرهما
 إلى أن المراد أنه فى يوم القيامة لا يعذب مثل عذاب الله أحد، ولا يوثق
 كوثاقه أحد، فالضمير هنا - أى الهاء- يرجع إلى الله ﷻ وهو قل ابن
 عباس والحسن. وفى قراءة الكسائى بفتح الذال (يعذب) وبفتح الثاء (يوثق)
 أى لا يعذب أحد فى الدنيا كعذاب الله ﷻ الكافر يومئذ، ولا يوثق كما
 يوثق الكافر، قال القرطبي:

(والمراد إبليس، لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً لأجل
 إجرامه، فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير، وقيل: إنه أمية بن
 خلف، حكاه الفراء، يعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا
 يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد، لتتأهيه فى كفره وعنده، وقيل:

أى لا يعذب مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء، والعذاب بمعنى التعذيب،
 والوثاق بمعنى الإيثاق.

المسألة الحادية عشرة: فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبْدِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) تساؤلات مثل: من النفس المطمئنة؟ ومتى سيُنَادى عليها بهذا النداء؟ وما معنى النداء عليها بـ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وما معنى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾؟ وفيمن نزلت؟

والجواب: تعددت أقوال المفسرين فى تعريف النفس المطمئنة، وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو النفس المؤمنة بالله ﷻ المستعدة للقاءه، قال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله، وقال مجاهد: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة، وقيل: المطمئنة بذكر الله ﷻ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) ^(١)، وقيل: المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث والثواب، وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بُشِّرَتْ بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع.

أما متى سيُنَادى عليها بهذا النداء فالأرجح أنه يكون عند الموت وخروج الروح المؤمنة حيث تبشرها الملائكة بالروح والريحان وبرب راضٍ عليها غير غضبان فتخرج الروح المؤمنة وقد اطمأنت إلى موعود الله لها وتسيل برفق وسهولة من جسد صاحبها، قال ابن كثير: (وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك هاهنا) ^(٢)، وقد سمعت رجلاً ألمانيا قرأ هذه الآية فكانت سبباً فى إسلامه، حيث قال وهو يبكى: (كثيراً ما توقفت عند هذه الآية، وكنت أتساءل: من هم هؤلاء السعداء

(١) سورة الرعد / آية ٢٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٠٠/٨ .

الذين سيُنَادى عليه بهذا النداء العذب عند احتضارهم؟ إنهم نفر قليل كُتبت لهم السعادة، فهل يا ترى ستكون نفسى إحدى هذه الأنفس؟). ومعنى النداء عليها بـ «أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ» فالرب هنا قيل هو صاحب هذه الروح فهو ربها أى صاحبها، فتؤمر الروح بالعودة إلى جسد صاحبها وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا، قال الضحاك وغيره فى الآية: (يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد فيأتون الله كما خلقهم أول مرة)^(١).

وقيل: بل المراد ارجعى أيتها الروح إلى موعد ربك، وموعد النفس المطمئنة هو الجنة، ولذا قال بعدها: «فَادْخُلِي فِي عَبْدِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)» .

وهناك قول ثالث لا يخلو من وجاهة؛ وهو قول الألوسى حين قال: «أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ» والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرب الأمر بالرجوع إليه ﷻ فى كل أمر من الأمور، والمراد بالأمر بالدخول فى العباد الأمر بالدخول فى زمرة العباد الخالص الذين ليس للشيطان عليهم سلطان بالإكثار من العمل الصالح)^(٢) وعلى هذا فيكون النداء للنفس أن تلتزم طريق الله، وتسير على نهجه وهداه، ولا تغفل عنه فى ساعة من ليل أو نهار، بل ترجع إليه ﷻ فى كل أمورها، وتتوكل عليه فى كافة شئونها، فتكون عندئذٍ فى زمرة عباد الله الصالحين؛ الذين لا يغفلون عن أمره ولا يعتمدون إلا عليه ﷻ .

وأما النداء على النفس المطمئنة وأمرها أن تدخل فى عباد الله فى قوله: «فَادْخُلِي فِي عَبْدِي (٢٩)» فقيل: أى ادخلى جسد عبدى؛ ويشهد لذلك قراءة ابن مسعود: (فى جسد عبدى)، وقيل: بل المراد التزمى أيتها النفس الطيبة صفوف عبادى المؤمنين، قال الألوسى: «فَادْخُلِي فِي عَبْدِي (٢٩)» أى فى زمرة عبادى الصالحين المخلصين لى، وانتظمى فى سلكهم

(١) تفسير الطبرى ٤٢٥/٢٤ .

(٢) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ١٣٢/٣٠ .

وكوني في جملتهم، ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ عطف على الجملة قبلها داخلية معها في حيز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيب ما قبلها من غير تراخ، وكأن الأمر بالدخول في جملة عباد الله ﷻ الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجلوس الصالح؛ والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية، ولفضل الأولى على الثانية قدّم الأمر الأول وجيء بالثاني على وجه التتميم^(١)، وفي ذلك إشارة إلى أهمية اختيار الجار قبل الدار، فإن هذه النفس قد اطمئنت أولاً بحسن الجوار مع المؤمنين، ثم اطمأنت بحسن الدار في جنات النعيم، ونظيره في القرآن قول امرأة فرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(٢) فقدّمت جوار الله بقولها: ﴿عِنْدَكَ﴾ ثم ذكرت الدار فقالت: ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فذكرت الجار قبل الدار .

وأما فيمن نزلت ... فجمهور المفسرين على أنها نزلت في عثمان بن عفان ؓ حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس، أو أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ؓ، وقيل نزلت في خبيب بن عدي ؓ الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال: "اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك" فحوّل الله ﷻ وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله بعد، لكننا لا نحصرها في هؤلاء الصحابة الكرام بل هي صالحة للتطبيق على سائر الأنفس المؤمنة المطمئنة في كل زمان ومكان، لأن العبرة عندنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(١) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٣١/٣٠ .
(٢) سورة التحريم / من الآية ١١ .

﴿سورة الغاشية﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: ما الغاشية ولم سميت بذلك ؟

والجواب: الغاشية اسم فاعل على وزن فاعلة من الفعل الثلاثي غشى، وقيل: فى معنى الغاشية إنها اسم من أسماء يوم القيامة، وقيل: هى اسم من أسماء نار جهنم، فأما أنها من أسماء يوم القيامة فإنه لا يخفى على أحد أن للقيامة أسماء متعددة مذكورة فى القرآن الكريم كالقارعة، والصاخة، والطامة، والحاقة، والغاشية، والساعة، ويوم الآزفة، ويوم التناد، يوم الحسرة، ويوم التغابن، ويوم الخروج، ويوم الوعيد، وغيرها من الأسماء التى تدل على شرف المسمى وعظيم خطره، وقد سميت القيامة بالغاشية لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك لأنها ترد على الخلق بغتة، كما أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين، والقول الثالث إنها تغشى الناس بالأهوال.

أما من قال إن الغاشية هى اسم من أسماء نار جهنم، فقد سُميت النار بالغاشية لأنها تغشى وجوه الكفرة وأهل النار، قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (٥٠)﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾^(٢) وهناك قول يرى أن الغاشية تدل على أهل النار لأنهم يغشونها ويقعون فيها .

المسألة الثانية: فى قوله ﷻ: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خُشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ كيف تكون هذه الوجوه عاملة ناصبة ثم تصلى فى النهاية ناراً حامية ؟

والجواب: إن هذه النفوس هى نفوس الكفار وأهل الضلال المستحقة للعذاب يوم القيامة وأما كونها عاملة ناصبة ثم تصلى ناراً حامية ، ففيه وجوه :

(١) سورة إبراهيم / من الآية ٥٠ .
(٢) سورة الأعراف / من الآية ٤١ .

إما أن تكون هذه النفوس والأبدان قد اجتهدت في الأعمال لكنها عملتها على غير شرع الله أو من غير إخلاص في العمل فتعبت من غير فائدة ورُدَّت عليها وأُحبط ثوابها، ولذا اشترط العلماء لقبول العمل شرطين وهما موافقة الكتاب والسنة والإخلاص فيه، وبدون أحدهما أو كليهما لا يقبل العمل بل يُرد على صاحبه، فهذا الشرطان للعمل كالجنحين للطائر لا يرتفع في السماء إلا بهما وبدون أحدهما يسقط ويقع.

وتتطبق هذه الآيات على الرهبان والأخبار الذين أعرضوا عن الدخول في الإسلام وانعزلوا عن الناس في الصوامع والبيع طلباً لعبادة الله، فصاموا نهارهم، وسهروا ليلهم، وأتعبوا أبدانهم، لكنهم في كفر وضلال؛ ويوم القيامة هم من أهل النار؛ يصلون فيها ناراً حامية مع ما بذلوه في الدنيا من نصب وتعب.

أورد القرطبي أنه (لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل^(١)، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى فقل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾^(٢)، أو أن تكون هذه الآيات وصفاً لحال أهل النار في عذابهم يوم القيامة، فهي (تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرها السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دابة في صعود من نار، وهبوطها في حور منها)^(٣)، (قال سعيد عن قتادة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣)﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وقال الحسن وسعيد بن جبیر: لم

(١) التقهل: رثاء الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيئ الحال، مثل المتقل.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٧/٢٠ .

(٣) الكشف ٧٤٤/٤ .

تعمل الله في الدنيا ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم، وقال الكلبي: يُجْرُونَ على وجوههم في النار^(١).

المسألة الثالثة: بم وصفت الآيات شراب وطعام أهل النار؟ ولم قُدِّم

ذكر الشراب على الطعام؟

الجواب: أوردت الآيات وصف شراب أهل النار وطعامهم فقال:

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)﴾، فشرابهم الحميم الآنى، أى الذى بلغ الغاية فى الحرارة، قال ابن منظور: (وأنى الحميم أى انتهى حره، ومنه قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ عَانَ (٤٤)﴾)، وفي التفسير: ﴿مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥)﴾ أى تنتهى حرها، فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت.

ولما ذكر الله ﷻ شراب أهل النار ذكر طعامهم؛ فأما طعامهم فهو محصور مقصور على الضريع، وهو عند عامة المفسرين: "نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنع"، وهذا القول هو جماع أقوال المفسرين مع اختلاف يسير فى وصف الضريع .

بيد أن القارئ للقرآن يتوقف عند ذكر القرآن مسمى آخر لطعام أهل النار ألا وهو (الغسلين) وذلك فى قوله ﷻ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطُونَ (٣٧)﴾^(٢)، وقال هنا فى (سورة الغاشية): ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦)﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع بينهما أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، قال الكلبي: الضريع فى درجة ليس فيها غيره، والزقوم فى درجة أخرى .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٧ .
(٢) سورة الحاقة / الآيتان ٣٦-٣٧ .

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ وصفت الجنة فى هذه الآيات بأوصاف ... فما معناها ؟

الجواب: وصفت الآيات الجنة بسبع أوصاف :

أولاهما: بأنها عالية أى مرتفعة ، قال ابن عاشور: (لزيادة الحسن لأن أحسن الجنات ما كان فى المرتفعات، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾^(١)، وقيل وصف الجنة بالعالية لا يقتصر به العلو الحسى المكانى فقط، بل يشمل العلو بمعنى الرفعة والرقى، فهى عالية القدر رفيعة الشأن ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثانيها: أنك لا تسمع فيها شيئاً يؤذى سمعك، فاللاغية مصدر بمعنى اللغو من الكلام الذى لا فائدة منه ولا نفع فيه، (وهذا تنبيه على أن الجنة دار جد وحقيقة، فلا كلام فيها إلا لفائدة؛ لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا يلذ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخلقي، ولا ينطقون إلا ما يزيد النفوس تركية)^(٢) .

ثالثها: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢)﴾ أى أن عيونها تجرى من غير توقف وهذا أدعى لنقاوة مائها وحسن شرابها، فإن الماء الجارى أنظف وأطيب من الراكد .

رابعها: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣)﴾ السرر جمع السرير وقد وصفت بأنها مرفوعة أى (رفيعة السمك أو المقدار ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربّه من الملوك والنعيم)^(٤)، فالرفع هنا رفع قدر ومكان وحال .

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٥/٣٠ .

(٣) المرجع السابق ٢٦٦/٣٠ .

(٤) البحر المديد ٤٥٠/٨ .

خامسها: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ (١٤) الفرق بين الكوب والكوز أن الكوب من غير عروة يمسك بها الشارب، على عكس الكوز، (وهي أكواب موضوعة أي مُعدّة للشرب فهي موضوعة على حافة العيون الجارية كلما أراد أهل الجنة الشرب وجدوها مملوءة بالشراب، وقيل بل هي موضوعة في أيديهم لا يتركونها لفرط حسناتها وجمالها لكونها من ذهب أو فضة أو من جوهر وكونهم يتلذذون بالشراب منها، وقيل موضوعة أي موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر كقوله: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (١٦) (١) (٢).

سادسها: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥) وهي الوسائد، ومفردها نمرقة أي وسادة، وهي وسائد مصفوفة أي مرتبة واحدة إلى جنب الأخرى، بحيث إذا أراد الواحد أن يجلس جلس على نمرقة منها وأسند ظهره على أخرى وتوسد الثالثة، وهذه الوسائد مصفوفة مرتبة سلفاً بحيث لا يحتاج المؤمن إلى بذل جهد في ترتيبها وإعدادها للجلوس عليها.

سابعها: ﴿وَزَرَائِبٌ مَبْنُوتَةٌ﴾ (١٦) جمع زربية وهي البسط التي تُفرش على الأرض، ومبنوثة أي منتشرة في المكان كله ومتفرقة في المجلس، (وقيل: بعضها فوق بعض، قاله عكرمة، وقيل: كثيرة، قاله الفراء) (٣).

المسألة الخامسة: لم حثت السورة الإنسان على التدبر في خلق الإبل دون غيرها من الحيوانات ؟

الجواب: استدلت الآيات بعظيم إبداع الله في خلقه بالإبل دون غيرها من الحيوانات، وذلك لأمر، منها:

أولاً: أن الإبل هي من أنفس أموال العرب وكرائمها حيث تفاخروا بجمالها وتكاثروا بامتلاكها، وقد يرى البعض أن الفيل فيه من العجب ما يضاهي البعير لكن الله ﷻ ذكر الإبل دون الأفيال لأن الأفيال لم تكن

(١) سورة الإنسان / من الآية

(٢) راجع مفاتيح الغيب ١٤٢/٣١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٤/٢٠ .

موجودة فى بلاد العرب، وليس لهم بها معرفة؛ ولذا خافوا من جيش أبرهة وهابوه لما جعل الفيل فى مقدمة جيشه، ونزلت سورة من القرآن باسمه، فضلاً عن أن البعير يؤكل لحمه ويشرب لبنه ويستخدم وبره وهو ما لا يتوافر فى الفيل.

ثانياً: اجتمعت فى الإبل قوة الخلقة وسهولة الانقياد قال ابن كثير: (فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها فى غاية القوة والشدة، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتتفاد للقائد الضعيف)^(١) قال القرطبي: (ثم ذكر الإبل أولاً؛ لأنها كثيرة فى العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه قد سخرها الله للصغير، يقوده، وينيخه، وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهوبارك؛ فينهض بثقل حملها، وليس ذلك فى شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً منخلقه، مسخراً لصغير من خلقه ليدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته .

ثالثاً: وإذا نظرنا إلى أوجه الإعجاز الإلهي فى خلق الإبل، والتي جعلت القرآن الكريم يدعونا إلى النظر فى عظمة هذا الخلق البديع نجد أن قدرة الله ﷻ وحكمته تتجلى فى كل جزء من أجزاء جسم الجمل، والتي تتمثل فيما يلي:

١- خف الجمل الموجود فى نهاية القدم مخلوق بصورة بديعة، حيث يتألف من أصبعين اثنتين لكل منهما ظفر مفلطح كبير، وتحتهما وسادة عريضة من جلد لحمي؛ تيسر للجمل السير السهل على الأرض الصخرية الزلقة أو الرمال المتحركة دون أن تغوص القدم فيها، والتي تتميز بها طبيعة الصحارى والجبال، خاصة وأن الجمال تحمل أوزاناً ثقيلة إلى جانب وزن جسمها الضخم، والوبر الموجود على الخف يساعد الجمل على تحمل حرارة الأرض الرملية، كما أن أخفاف البعير كلها مواد عازلة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٧/٨.

للكهرباء تحميه من الصواعق الكهربائية التي تحدث بين السحب، وارتفاع الجمل يصل إلى نحو المترين من عند الكتفين، ويرجع ذلك إلى طول أرجلها التي تبعد جسمها عن سطح الأرض لتتقي حرارتها.

٢- وجه الجمل طويل بارز، وأنفه يشبه الشق، يفتحه الجمل ويغلقه حسب ظروفه، وهذا يساعده على منع دخول الرمال في أنفه عند أكله لطعام موجود على الرمال. كما أن شفة البعير العليا غليظة حساسة ومشقوقة إلى نصفين ليتمكن من تحريكهما ورفعهما إلى أعلى ليتحاشى أذى النباتات الشوكية عندما يتناولها فلا تلحق به ضرراً.

٣- وعينا الجمل تنفتحان بزاوية مائلة تغطيها رموش طويلة وتستقران داخل تجويف قوي، ولعينيه أجفان طويلة جداً، وبهذه الصفات يستطيع الجمل مقاومة العواصف الرملية.

٤- ومن عجائب خلق الله في الجمل أن الأنف يفتح وينغلق متى شاء البعير، وفتحته محسوبة بمقدار، وهو عبارة عن مصفاة هواء من النوع الممتاز الدائم، كما أن في أنفه جهازاً عجيبياً يسمى جهاز التيار العكسي الذي يساعده على الاقتصاد الشديد في ضياع ماء البدن أثناء التنفس، حيث يتفرد الجمل بأن الغشاء المخاطي في أنفه جاذبٌ للرطوبة، فالهواء الذي يدخل أنف الجمل جافاً يتشبع بالرطوبة التي يهبها له غشاء الأنف، حتى إذا مرّ بالأنف وهو خارج عاد غشاء الأنف فاجتذب جلّ ما فيه من ماء بحيث لا يضيع من ماء جسمه إلا النزر اليسير، وكلما اشتد القيظ (شدة الحر) ازداد جذب غشاء الأنف للرطوبة واقتصاده في الماء.

٥- أما سنام الجمل فهو مستودع ضخم للشحم يفيدته وقت الحاجة، وهو كتلة من أنسجة دهنية ومياه مُستقلبة (متحولة) عن مواد أخرى، وبذلك يكون السنام مستودعاً للماء والغذاء معاً!! ومن حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أي حيوان آخر، ويكفي

دليل على ذلك أن نقارن بين الجمل والخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء ١١ كجم من الدهن في إليته، نجد أن الجمل يختزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف (أي نحو ١٢٠ كجم)، وهي كمية كبيرة بلا شك يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثاني أكسيد الكربون.

ولذا يتميز الجمل بقدرة هائلة على البقاء بدون ماء لفترة طويلة؛ حتى أنه يستطيع أن يقضي حوالي شهراً ونصف بدون ماء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال وتفقده الكثير من وزنه، وبالرغم من هذا فإنه يمضي في حياته صلباً لا تخور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعيب منه عباً حتى يطفئ ظمأه كما أن الدم يحتوى على أنزيم البومين بنسبة أكبر مما توجد عند بقية الكائنات وهذا الإنزيم يزيد في مقاومة الجمل للعطش وتعزى قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح فيبول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم.

ومن العجيب أيضاً أن الجمل لا يقتصد في الماء فحسب، لكنه يولد الماء أيضاً!، فقد زوده الخالق سبحانه بجهاز لتوليد الماء، حيث تتفكك الشحوم المتراكمة في سنام الجمل إلى محاصيل نهائية، من أهمها الهيدروجين الذي لا يلبث أن يتحد بالأوكسجين الآتي مع هواء التنفس فيؤلفان "الماء" الذي يحتاجه الجمل.

٦- رقبة الجمل الطويلة ليست عبئاً عليه، فهي تتحرك وتلتف في كل اتجاه بكل سهولة ويسر، وتساعد الجمل على الوصول إلى أغصان الشجر المرتفعة، وتمكنه من الأعشاب والحشائش على سطح الأرض، ويضع رأسه على جسمه عندما تشتد الرياح لينقي شدتها وما تحمله من تراب وغبار.

٧- الإبل تتعايش مع ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة فليدها منظم بيولوجي للحرارة يساعدها في السيطرة على درجة الحرارة والبقاء على قيد الحياة رغم التذبذب الشديد في مستوى بلازما الدم، ففي الشتاء يكثر الوبر ويتلبد على جسمه فيقيه ويحميه من البرد، وفي الصيف يسقط الوبر لتتم عملية التبريد بالتعرق، فالعرق يخرج من مسام الجسم بدقة محسوبة، ويتحكم الجمل في درجة حرارة جسمه حسب ظروف الجو مما يمكنه من العيش في الصحراء وتحمل تقلبات الجو المختلفة.

٨- والجمل ليس له مرارة مما يساعده على تناول كميات كبيرة من الغذاء ولساعات طويلة، وهذه الخاصية تساعده على تكوين كميات كبيرة من احتياجات الشحوم والدهون، وبصفة خاصة في السنام لتساعده على تحمل الظروف الشاقة في مواسم الجفاف والمجاعة.

٩- وإذا نظرنا إلى الجمل باعتباره وسيلة للسفر والترحال وحمل الأثقال والأمتعة، سنجد أن الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يستقر عليه الهودج أو المحمل، لأن جسم الجمل في المشي شبه مستقر لكونه يتميل إلى الأمام وإلى الخلف ولا تتحرك سوى قوائمه بحركة متوازية، ويمتص الجسم ضربات الأرجل على الأرض فلا يحس الراكب إلا بالتمايل فقط، لذلك تسهل إقامة الهودج على الجمل، ولا يمكن هودجة الحصان أو البغل.

١٠- أضف إلى ذلك إلى أن الجمل وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلدقوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كله، حتى أنه لو جثم به فوقحيوان أو إنسان طحنه طحنًا وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها على هذا الحيوان العجيب، حيث إنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له فلا يبالى بها ولا يصيبه منها أذى، والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزوداً

بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

١١ - مقارنة بين قدرات الإبل والإنسان:

ولعل في المقارنة بين بعض قدرات الإبل والإنسان ما يزيد الأمر إيضاحاً بالنسبة لنموذج الإبل الفريد في الإعجاز فقد أكدت تجارب العلماء أن الإبل التي تتناول غذاءً جافاً يابساً يمكنها أن تتحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف لمدة أسبوعين أو أكثر، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف تصيبها بالهزال لدرجة أنها قد تفقد ربع وزنها تقريباً في خلال هذه الفترة الزمنية؛ ولكي ندرك مدى هذه المقدرة الخارقة نقارنها بمقدرة الإنسان الذي لا يمكنه أن يحيا في مثل تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين؛ فالإنسان إذا فقد نحو ٥% من وزنه ماء فقد صوابه حكمه على الأمور، وإذا زادت هذه النسبة إلى ١٠% صُمّت أذناه وخطى وهذى وفقد إحساسه بالألم (وهذا من رحمة الله به ولطفه فيقضائهما إذا تجاوز الفقد ١٢% من وزنه ماء فإنه يفقد قدرته على البلع وتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه .

وعند إنقاذ إنسان أشرف على الهلاك من الظمأ ينبغي على منقذه أن يسقوه الماء ببطء شديد تجنباً لآثار التغير المفاجئ في نسبة الماء بالدم؛ أما الجمل الظمآن إذا ما وجد الماء يستطيع أن يعب منه عباً دون مساعدة أحد ليستعيد في دقائق معدودات ما فقد من وزنه في أيام الظمأ .

وثمة ميزة أخرى للإبل على الإنسان، فإن الجمل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بسبب استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده على الدم، أما الإنسان الظمآن فإنه أية محاولة لإنقاذه

بشرب الماء المالح تكون أقرب إلى تعجيل نهايته، وأعجب من هذا كله أن الجمل إذا وضع في ظروف بالغة القسوة من هجير الصحراء اللافتح فإنه سوف يستهلك ماءً كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء مع هواء الزفير حتى يفقد نحو ربع وزنه دون ضجر أو شكوى . والعجيب في هذا أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه ولم يستنفذ من ماء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبدداً لها من سطح جسمه، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعاً فجائياً لا تتحملها أجهزته، وخاصة دماغه، وفي هذا يكون حقه.

وكل ما ذكره العلم الحديث غيض من فيض وقليل من كثير في جوانب القدرة الإلهية والإعجاز الرباني في خلق الإبل، وقد صدق الله ﷻ حين قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) ﴿١﴾.

المسألة السادسة: ما الدرس المستفاد للدعاة إلى الله ﷻ من قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ ؟

الجواب: هذا أمر من الله ﷻ لكل الدعاة إليه - متمثلين في شخص سيد الدعاة ﷺ أن يثبتوا على درب الدعوة وتذكير الناس بالله ﷻ وتعليمهم شريعته، وهذا دورهم فعليهم الدعوة وليس عليهم إدراك النتائج ولا إدخال نور الهداية إلى القلوب، فإن هداية القلوب بيد خالقها، ولذا فيجب على الداعية ألا يحزن وألا ييأس إذا لم تتجح دعوته مع بعض الناس؛ وليجرب مع غيرهم عسى الله أن يفتح به قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذاناً صماً .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات قد نزلت قبل نزول آيات القتال، فلما نزلت آيات القتال نسختها، لكن الإمام الزركشي صاحب البرهان رد على هذه الأقوال، فقال: (يتبين لنا ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الأمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف؛ وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما

(١) سورة الإسراء / من الآية ٨٥ .

لعلة توجب ذلك الحكم؛ ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً^(١).

ثم قال: (وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رافة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقة، فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب أو الإسلام، أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب، ويعود هذان الحكمان - أعني المسألة عند الضعف والمسايفة عند القوة - يعود سببهما وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته^(٢)).

والمراد أن هذه الآيات ليست منسوخة، فإن نسخها يعني إبطال حكمها إلى يوم القيامة، فحكمها ما زال موجوداً ويصلح للأخذ به في مثل الظرف والحالة التي نزلت فيها هذه الآيات؛ ألا وهي حالة الضعف وتسلب الكفار على المسلمين .

(١) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٣ .

﴿سورة الأعلى﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ وصف الرب في هذه الآيات بأربعة أوصاف ... فما هي ؟

الجواب: وصفت هذه الآيات الكريمات الرب ﷻ بصفات عظيمة تدل على عظيم قدرته وكمال ملكه ألا وهي :

أولاً: أنه الرب الأعلى؛ فلفظ ﴿الْأَعْلَى﴾ اسمٌ يُفيد الزيادة في صفة العلو؛ أي: الارتفاع، والارتفاع معدودٌ في عُرْف الناس من الكمال، فلا يُنسب العلو بدون تقييد إلا إلى شيءٍ غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضلٌ عليه أفاد التفضيل المطلق، كما في وصفه - تعالى - هنا، فهو ﷻ الأعلى بإطلاق .

ثانياً: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق المخلوقات فسواها أي أنقنها وأحسن خلقها، وهذا كلام إما أن يراد به خلق الإنسان على الخصوص، أو خلق الكائنات على العموم، فإن أراد به الإنسان على وجه الخصوص فيكون معنى التسوية هنا: خلق الإنسان مستويًا القامة، معتدلاً، قادراً على القيام، والسير على قدمين، منتصب الظهر، معتدل القامة، عكس غيره من الكائنات فكلها تسير على أربع من غير اعتدال ولا قدرة على القيام، وإن كان الكلام على العموم أي جميع الحيوانات قال: (إن المراد إنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات، وحواس)^(١) .

ثالثاً: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال الفخر الرازي عن هذه الآية: (يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدّر السموات، والكواكب، والعناصر، والمعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، بمقدار

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٦ .

مخصوص من الجثة والعظم، وقدّر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات، والألوان، والطعوم، والروائح، والأوضاع، والحسن، والقبح، والسعادة، والشقاوة، والهداية، والضلالة، مقداراً معلوماً على ما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) (١)، وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين (٢) .

وفي مجموع أقوال المفسرين ما يدل على قدرة الله ﷻ في أن قدّر أرزاق الخلائق ثم هداها للحصول عليها والوصول إليها، ولذا قيل: (قيل: قدّر الأرزاق، وهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش) (٣) .

رابعاً: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٥) وهو مثل ساقه الله ﷻ لبيان قدرته وعظيم صنعه، قال صاحب التبيان في الآية الكريمة: (وفيه قولان: أحدهما: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) ﴿أحوى أي: أخضر غص يضرب إلى السواد من شدة الخضرة والري، فجعله بعد خضرته غثاء أي يابساً، والغثاء ما يبس من النبات فحملته الأودية والمياه، والقول الثاني: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ أي يابساً، ﴿أحوى﴾ أسود من قدمه واحتراقه ، أي فكذلك يميّتكم بعد الحياة) (٤) .

فالله ﷻ قد ساق هذا المثل لبيان قدرته على إماتة الأحياء ثم بعثهم كما يحدث مع المرعى الأخضر اللين الذي يتحول حاله إلى اليبس والجفاف .

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وهل يجوز أن ينسى الرسول ﷺ كباقي البشر ؟

والجواب: إن النسيان من الرسول ﷺ لشيء من القرآن الكريم على نوعين: أحدهما: نسيانه الذي يَنْذَرُهُ عَنْ قُرْبٍ، وَذَلِكَ قَائِمٌ بِالطَّبَاعِ

(١) سورة الحجر / الآية ٢١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٧ .

(٣) معالم التنزيل ٨ / ٤٠٠ .

(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٤٥٩، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا - القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م.

البشريّة، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السَّهْوِ (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنْسَوْنَ)، وَالثَّانِي: أَنْ يَرْفَعَهُ اللَّهُ عَنْ قَلْبِهِ عَلَى إِرَادَةِ نَسْخِ تِلَاوَتِهِ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿سَقُرْتُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

وعلى هذا فإن النسيان الفطري البشري قد يقع منه ﷺ وهذا لا حرج فيه لأنه لا يمس الدعوة ولا يخل بما أمره الله ﷻ بإبلاغه، أما ما أمر بإبلاغه للناس فأهل السنة على أنه لا يلحقه شيء من النسيان بل هو محفوظ بحفظ الله منه؛ إلا أن يكون شيئاً قد أراد الله ﷻ نسخه وهو المراد في هذه الآية الكريمة .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية أيضاً قد نزلت تطمئن الرسول ﷺ بثبوت القرآن في قلبه وعدم ضياع شيء منه أو تفلته، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكان حريصاً كل الحرص على تتبع الوحي من جبريل - عليه السلام - فكانت هذه الآية وعد من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه يقرئه القرآن ولا ينساه الرسول، وكان الرسول ﷺ يتعجل إذا جاء جبريل - عليه السلام - يُلقِي عليه الوحي فقال الله ﷻ له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴿١﴾ فصار النبي ﷺ ينصت، حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه؛ وقد اطمأن إلى عدم ضياع شيء منه .

المسألة الثالثة: ما الدرس المستفاد للدعاة من قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٩) ؟

الجواب: تتصح الآية الكريمة الدعاة إلى الله أن يُذَكِّروا الناس إن وجدوا للتذكرة والنصيحة فائدة ستعود على المنصوح، وكأنها تدعونا إلى التصرف وفق منهج فقه الواقع ومتغيرات الحياة والأحوال، وأهمية مراعاة قاعدة المفاصد والمصالح المترتبة على التذكرة والنصيحة، لأن مدار كثير من الأعمال الدعوية مبني على هذه القاعدة .

(١) سورة القيامة / الآيات من ١٦ - ١٩ .

فمتى تغلب جانب المفسدة وكان من النصيحة الضرر فالامتناع عنها هو الأوجب، لأن الله تعالى أمرنا بأن نذكر إن كان في التذكير منفعة، وبمفهوم المخالفة إن لم تنفع التذكرة فالأوجب تركها.

المسألة الرابعة: علام يعود الضمير (ها) في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١)﴾؟

الجواب: نتحدث الآية عن الاستفادة من الذكرى واتباع النصيحة، فهذا الطريق سيبتعد عنه الأشقى أى الكافر لأنه أشقى من الفاسق، فالكافر يتجنب الذكرى وينفر منها .

المسألة الخامسة: لم وصفت النار بالكبرى ؟

الجواب: وصف الله ﷻ النار جهنم بأنها الكبرى حتى لا يتوهم متوهم أن نار الآخرة مثل نار الدنيا، بل هى النار الكبرى إذا قورنت بغيرها من نيران الدنيا، وقد صدق فيها قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ: (ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)^(١)، فالنار الكبرى هى نار جهنم، والنار الصغرى هى نار الدنيا .

وقال الزمخشري: ﴿النَّارَ الْكُبْرَى (١٢)﴾ هى: "السفلى من أطباق النار"^(٢)؛ أى أن النار الكبرى هى درجة من درجات جهنم، فالنار دركات أعادنا الله منها .

المسألة السادسة: علام يعود اسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ فى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾؟

الجواب: أشارت الآية إلى أن بعض ما ورد فى هذه السورة الكريمة قد ذكر من قبل فيما نزل على الرسل السابقين إبراهيم وموسى، قال الفخر الرازى: (والإشارة بكلمة ﴿هَذَا﴾ إلى مجموع قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)﴾

(١) صحيح البخارى ٣ / ١١٩١ ، ورقمه ٣٠٩٢ .
(٢) الكشف ٧٤١/٤ .

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)»، فإن ما قبل ذلك من أول السورة إلى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَى (١٤)»، ليس مما ثبت معناه في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام^(١). وفي ذلك دليل على أن بعض ما ورد في القرآن قد نزل على بعض الرسل السابقين، ولذا أورد الإمام السيوطى فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) أنواعاً من علوم القرآن الكريم ذكر فى النوع الخامس عشر (ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ)، وقد ساق فى هذا النوع ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (إنه - يعني - النبي ﷺ لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥)»^(٢)، وحرزاً للأُميين... الحديث)^(٣).

(وأخرج ابن الضريس وغيره عن كعب قال: فَتَحَتِ التَّوْرَةُ: بـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)»^(٤) وختمت: بـ «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا (١١١)»^(٥) (٦). أما وصفه للصحف بالأولى فليس المراد منه أن هذه الصحف هى أول ما نزل، بل المراد بالأولية هنا أسبقية هذه الصحف للقرآن فى وقت النزول، أى أنها نزلت قبله لكنها ليست أولى كلام الله نزولاً فقد روي أن بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليهم صحف، فهو كوصف (عاد) بـ «الأولى» فى قوله: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠)»^(٧).

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٧/٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب / الآية ٤٥ .

(٣) صحيح البخارى ٤ / ١٨٣١ ، ورقمه ٤٥٥٨ .

(٤) سورة الأنعام/ الآية ١ .

(٥) سورة الإسراء / الآية ١١١ .

(٦) الإتقان فى علوم القرآن ١/١٤٤، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، القاهرة، طبعة سنة ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م .

(٧) سورة النجم / الآية ٥٠ .

﴿سورة الطارق﴾

وفيها سبع مسائل :

المسألة الأولى: ما المراد بالطارق في قوله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١)؟

والجواب: إن هذا السؤال قد أجاب الله ﷻ عنه فيما جاء بعد ذلك من آيات فقال ﷻ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (٢) فأجاب أن الطارق هو ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٣)، وعلى هذا فمعنى الطارق: (النجم؛ سُمي بذلك: لأنه يَطْرُق - أي يطلع - ليلاً، وكلُّ من أتاك ليلاً فقد طَرَقَكَ، والثاقب: المضئ) (١).

فائدة لا بد منها :

وهنا فائدة لا بد من التوقف عندها ألا وهي إن من شروط المفسر الحق أن يكون حافظاً للقرآن، ملماً به، عارفاً بمعانيه؛ لأن من أولى خطوات التفسير أن يبحث المفسر عن معنى الآية في القرآن نفسه، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، (فما جاء مجملاً في موضع جاء مبيناً في موضع آخر، وقد تأتي الآية مطلقة أو عامة ثم ينزل ما يقيدتها أو يخصصها؛ وهذا هو الذي يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن) (٢)، لعل من أبرز ما يبين ذلك تفسير القرآن وبيانه للكلمات التي تلقاها آدم - عليه السلام - من ربه فلما قالها تاب الله عليه، وهي المذكورة في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ۖ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)، فإن هذه الكلمات جاءت مبهمة في سورة البقرة ، أما سورة الأعراف فقد بيّنت هذه الكلمات وذكرتها بنصها وذلك في قوله ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤)؛ وتفسير القرآن

(١) غريب القرآن ١/ ٥٢٣، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م.

(٢) مباحث في علوم القرآن ص ٣٤٦، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٢٠٠٠ م.

(٣) سورة البقرة / الآية ٣٧.

(٤) سورة الأعراف / الآية ٢٣.

بالقرآن هو أول ما يجب على المفسر اتباعه، فإن لم يجد المفسر ما أراد تفسيره في القرآن الكريم بحث عنه في السنة المطهرة، فإن لم يجد في السنة بحث عن التفسير فيما ورد من أقوال الصحابة الكرام عليهم السلام فإنهم أعلم هذه الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم .

المسألة الثانية: ما الحافظ الذي أشارت إليه الآية: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾ ؟

والجواب: فإن المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾: إلا عليها حافظ من الملائكة، وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في فتح الباري.

وفي التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ومعناه عند الجمهور: أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ؛ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحفظة)^(١) . ولا مانع من إطلاق الحفظ على الملائكة، فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠)﴾^(٣) وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾^(٤)، وقد ذكر ابن كثير في التفسير: (أنهم أربعة بالليل، وأربعة بالنهار، فاثنتان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنتان من ورائه وأمامه يحرسانه)^(٥) .

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه، وقال علي عليه السلام: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك يحفظه في نومه

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ، ٣ / ٣٠٧ .

(٢) سورة الرعد / من الآية ١١ .

(٣) سورة الإنفطار / الآية ١٠ .

(٤) سورة الأنعام / من الآية ٦١ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٤٣٧ .

ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراعى
إلا شيئاً أذن الله فيه فيصيبه^(١).

المسألة الثالثة: ما معنى الدافق والصلب والترائب التى وردت فى
قوله: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾؟

الجواب: وصفت الآية الكريمة أصل خلق الإنسان من الماء الدافق
وهو ماء الرجل "المنى" وهو ماء دافق أى متدفق قال الطاهر بن عاشور:
(ومعنى دافق خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل)^(٢)،
والدفع أيضاً هو الصب، يقال: دفقت الماء أى صببته، ووصف ماء
الرجل بالدافق بمعنى المدفوق لأنه يُصَبُّ فى رحم المرأة، وقيل إن المراد
ليس ماء الرجل بل ماء الرجل وماء المرأة معاً، قال الثعلبى: (وأراد **مِنْ**
مَّاءٍ): ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الولد مخلوق منهما، ولكنه جعله ماء
واحداً لامتزاجهما)^(٣).

أما **«الصلب والترائب (٧)»** فالصلب هو الظهر، وهو عظم الفقار
المتصل فى وسط الظهر، أما الترائب فهى جمع مفرد لها: تريبة، وقد
اختلف العلماء فى تحديد الترائب اختلافاً كبيراً، (فقال ابن عباس: موضع
القلادة، وعن الوالى عنه: بين ثدي المرأة، وعن العوفى عنه: يعنى
بالترائب اليدين والرجلين والعينين، وبه قال الضحاك وعن ابن علية عن
أبى رجاء قال: سئل عكرمة عن الترائب فقال: هذه ووضع يده على
صدره بين ثدييه. سعيد بن جبير: الجيد، ابن زيد: الصدر، مجاهد: ما بين
المنكبين والصدر، سفيان: فوق الثديين، يمان: أسفل من التراقي، قتادة:
النحر جعفر بن سعيد: الأضلاع التى أسفل الصلب، ليث عن معمر بن

(١) جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن فرج بن رجب، ص ١٨٦، دار المعرفة، بيروت، ط١،
١٤٠٨هـ.

(٢) - التحرير والتنوير ، ٣٠ / ٢٣٣ .

(٣) - الكشف والبيان ١٠ / ١٧٩ .

أبي حبيبة المدني قال: عصارة القلبومنه يكون الولد، والمشهور من كلام العرب أنهما عظام النحر والصدر، وواحدتها تربية^(١).

قال الخازن صاحب التفسير: (قيل إن المني، يخرج من جميع أعضاء الإنسان، وأكثر ما يخرج من الدماغ فينصب في عرق في ظهر الرجل، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة، وهي الترائب فلهذا السبب خصَّ الله تعالى، هذين العضوين بالذكر)^(٢).

المسألة الرابعة: ما الدلالة الإيمانية في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩)؟

والجواب: تشير الآية الكريمة إلى ما يجب أن يحذر منه كل عاقل، ألا وهو انكشاف الستر وظهور الخفى من الأعمال والأقوال والنيات يوم العرض على الله ﷻ، فهو يوم عظيم تظهر فيه كل خفايا العبد على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، قال الماوردي: (أن تبلى بظهور السرائر في الآخرة بعد استئثارها في الدنيا)^(٣).

فهذا هو اليوم العظيم، يوم أن تتكشف الخفايا وتعلن البلايا ولا يملك المرء من أمر نفسه شيئاً فلا قوة من ذاته تعينه ولا ناصر خارجي ينصره، والمستور من ستره الله بستره، قال ابن عمر ؓ: (بيدي الله يوم القيامة كل سرٍّ منها، فيكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه، يعني من أداها كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجهه مغبراً)^(٤).

فعلى العاقل أن يستعد لهذا اليوم العظيم بإصلاح دخيلته، وإخلاص نيته، ومراقبة ربه في السر والعلن، والمداومة على إصلاح سريرته كما يُظهر للناس حسن ظاهره، نسأل الله تعالى أن يسترنا بستره الجميل وألا يفضحنا بين خلقه ولا بين يديه.

(١) المرجع السابق ١٠ / ١٢٩ .
(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٧ / ٢٣٣ .
(٣) النكت والعيون ٦ / ٢٤٧ .
(٤) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ٦ / ٤٨١ .

المسألة الخامسة: ما الإعجاز فى وصف السماء بذات الرجع، والأرض بذات الصدع ؟

الجواب: وصف الله ﷻ السماء بصفة الرجع ووصف الأرض بصفة الصدع فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١)﴾ وعندما نتأمل هذين الوصفين نجد فيهما دقة بالغة وإعجازاً قرآنياً عجبياً على النحو الذى سنراه :

أولاً: وصف السماء بالرجع :

الرجع من الرجوع وهو العودة إلى نقطة البداية، معنى هذا أن هناك شيئاً يخرج من السماء ثم يعود إليها، ولذا وصفت بأنها ذات الرجع، والناظر فى كتب تفاسير القدامى يجد أنهم قد فهموا رجع السماء وحدوده بالمطر، فالمطر ينزل من السماء فى البحار ثم يتبخر جزء من ماء البحر ويصعد إلى السماء فيكوّن السحاب الذى ينزل منه المطر ثانية فيتبخر الماء ويعود وهكذا فى حركة رجع مستمرة من السماء وإليها، فلم يفهم المفسرون من هذا الوصف إلا أحد معاني الرجع، وهو إرجاع المياه التى تم تبخيرها من على سطح الأرض فى صورة أمطار تهطل على مناطق متفرقة.

ولكن اللفظ القرآنى لم يقل: ذات المطر، بل قال: ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ (١١)﴾ ويُفهم منه أن السماء تقوم بإرجاع أمور أخرى غير المطر، وأن دلالات الرجع يجب عدم حصرها فى هذا الإطار الضيق وهو رجع المطر، وفى العقود المتأخرة من القرن العشرين كشف العلم عن صور أخرى لرجع السماء، فمن ذلك :

١ - الرجع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداها):

تحتوي الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (نطاق التغيرات الجوية) على ٧٥ % من كتلة ذلك الغلاف، ويتكون أساساً من غاز النيتروجين (٧٨ % حجماً)، والأكسجين (٢١.٩٥ % حجماً)، وآثار

خفيفة من بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون، وبعض هباءات الغبار، وآثار أقل تركيزاً من الإيدروجين، الأرجون، الهيليوم، وبعض مركبات الكبريت.

وكل من التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية لهذا النطاق يعتبر من الضرورات الأساس للحياة الأرضية، ومنها القدرة على السمع، فلولا ما يمكن للاهتزازات المحدثة للأصوات وصداها أن تسمع.

فعندما تهتز أحبالنا الصوتية تحدث اهتزازاتها ضغوطاً في الهواء تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتصطدم بالجوامد وترتد على هيئة صدى الصوت أو تتلقاها طيلة الأذن لأفراد آخرين فتحدث بها من الاهتزازات والارتدادات ما يمكنهم من سماعها بوضوح، ولولا التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية المحددة لذلك النطاق ما سمع بعضنا بعضاً، ولاستحالت الحياة؛ وذلك لأن الصوت لا ينتقل في الفراغ لعدم وجود جزيئات الهواء القادرة على نقل الموجات الصوتية، وعندما تصطدم الموجات الصوتية بأجسام أعلى كثافة من الهواء، فإنها ترتد على هيئة صدى للصوت الذي له العديد من التطبيقات العملية.

والرجع الاهتزازي للهواء على هيئة الأصوات وصداها هو أول صورة من صور رجع السماء، ولولاه ما سمع بعضنا بعضاً وما استقامت الحياة على الأرض.

٢- الرجع المائي (المطر):

يغطي الماء أكثر قليلاً من ٧١ % من المساحة الكلية للكرة الأرضية، وهذا الماء اندفع كله أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتكثف في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض ليجري أنهاراً على سطحها، ويفيض إلى

منخفضاتها مكوناً البحار والمحيطات، ثم بدأ هذا الماء في حركة دائبة بين الأرض والطبقات الدنيا من الغلاف الغازي حفظته من التعفن ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا، وتعرف هذه الدورة باسم (دورة الماء حول الأرض).

وماء الأرض يتبخر منه سنوياً ٣٨٠.٠٠٠ كيلومتر مكعب أغلبها (٣٢٠.٠٠٠ كم^٣) يتبخر من أسطح المحيطات والبحار، والباقي (٦٠.٠٠٠ كم^٣) يتبخر من سطح اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وتحمله السحب حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو برداً، وبدرجة أقل على هيئة ندى أو ضباب.

وحينما ترجع أبخرة الماء من الجو إلى الأرض بعد تكثفها يجري قسم منها في مختلف أنواع المجاري المائية على اليابسة، وتصب هذه بدورها في البحار والمحيطات، كما يترشح جزء منها خلال طبقات الأرض ذات المسامية النفاذية ليكون مخزون الماء تحت سطح الأرض، وهناك جزء يعاود تبخره إلى الجو مرة أخرى.

وماء المطر يسقط على المحيطات والبحار بمعدل ٢٨٤.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وعلى اليابسة بمعدل ٩٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وذلك في دورة معجزة في كمالها ودقتها، ومن صور ذلك أن ما يتبخر من أسطح المحيطات والبحار في السنة يفوق ما يسقط فوقها بمعدل ٣٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب، وأن ما يسقط من مطر على اليابسة سنوياً يفوق ما يتبخر منها بنفس المعدل (٣٦.٠٠٠ كم^٣)، ولما كان الفارق في الحالتين متساوياً تماماً فإنه يفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات ليحفظ منسوب الماء فيها عند مستوى ثابت في الفترة الزمنية الواحدة.

هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض هي الصورة الثانية من صور رجوع السماء، ولولاها لفسد كل ماء الأرض الذي يحيا ويموت فيه بلايين

الكائنات في كل لحظة، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة شديدة بالليل.

٣- الرجوع الحراري إلى الأرض وعنها إلى الفضاء بواسطة السحب:

يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار؛ لأن ذراته وجزيئاته تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال موجات محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات بعيداً عن الأرض، كما يعمل النطاق الأسفل منه (نطاق الرجوع) كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت ويردها إلى الأرض.

ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويعاد إشعاع حوالي ٥٣ % منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض حوالي ٤٧ % منها، ولولا هذا الرجوع الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض، ولبخرت الماء، وخلخت الهواء.

وعلى النقيض من ذلك فإن السحب التي تردّ عنا ويلات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا (٩٨ %) من أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص حوالي ٤٧ % من أشعتها فتصل درجة حرارتها إلى ١٥ درجة مئوية في المتوسط، وبمجرد غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون فتدفع الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة التي ترتفع إليها من الأرض (٩٨ %) مرة أخرى إلى سطح الأرض وبذلك تحفظ الحياة الأرضية من التجمد بعد غياب الشمس.

ولو لم يكن للأرض غلاف غازي لأحرقتها حرارة الشمس بالنهار، ولولا السحب المتكونة في الجزء السفلي من غلاف الأرض الغازي ما رجع إلينا الدفء المنبعث من صخور الأرض بعد تعرضها لحرارة الشمس، ولتشتتت هذه الحرارة إلى فسحة الكون، وتجمدت الأرض وما عليها من صور الحياة في نصف الكرة المظلم بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجوع الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة الرجوع لسماء الأرض.

٤- رجوع الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض:

عندما تنثور البراكين فإنها تدفع بملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأتربة إلى جو الأرض الذي سرعان ما يرجع غالبية ذلك إلى الأرض، كذلك يؤدي تكون المنخفضات والمرتفعات الجوية إلى دفع الهواء في حركة أفقية ينشأ عنها الرياح، والغالبية العظمى من المنخفضات الجوية تتحرك مع حركة الأرض -أي من الغرب إلى الشرق- بسرعات تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلومتراً في الساعة، وعندما تمر المنخفضات الجوية فوق اليابسة تحتكّ بها فتبطؤ حركتها قليلاً وتحمل بشيء من الغبار الذي تأخذه من سطح الأرض، وإذا صادف المنخفض الجوي في طريقه سلاسل جبلية معترضة فإنه يصطدم بها مما يعين على إبطاء سرعتها وعلى عود الهواء إلى أعلى، ولما كان ضغط الهواء يتناقص بالارتفاع إلى واحد من ألف من الضغط الجوي العادي -أي عند سطح البحر- إذا وصلنا إلى ارتفاع ٤٨ كيلومتراً فوق ذلك المستوى، وإلى واحد من مئة ألف من الضغط الجوي إذا وصلنا إلى ارتفاع ألف كيلومتر، فإن قدرة الهواء على الاحتفاظ بالغبار المحمول من سطح الأرض تضعف باستمرار مما يؤدي إلى رجوعه إلى الأرض وإعادة توزيعه على سطحها بحكمة بالغة، وتعين على ذلك الجاذبية الأرضية.

٥- الرجوع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون:
تقوم طبقة الأوزون في قاعدة نطاق التطبيق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون (O3)، وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق، وبذلك تحمي الحياة على الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة التي تحرق كلاً من النبات والحيوان والإنسان، وتتسبب في العديد من الأمراض من مثل سرطانات الجلد وإصابات العيون وغيرها، ويمكن أن تؤدي إلى تبخير ماء الأرض بالكامل.

٦- رجوع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين:
في النطاق المتأين -بين ١٠٠ و ٤٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر- تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس من مثل الأشعة السينية، فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين، ونظراً لانتشار الإليكترونات الطليقة في هذا النطاق فإنها تعكس الإشارات الراديوية القادمة مع أشعة الشمس إلى خارج نطاق الأرض، كما تعكس موجات الراديو المبعثة من فوق سطح الأرض وتردها إليها فتيسر عمليات البث الإذاعي والاتصالات الراديوية، وكلها تمثل صوراً مختلفة من الرجوع.

٧- رجوع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض:

يمطر الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون، فتردها إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض، فلا يصل إلى سطح الأرض منها شيء، ولكنها تؤدي إلى تكون أشعة ثانوية قد يصل بعضها إلى سطح الأرض فتؤدي إلى عدد من ظواهر التوهج والإضاءة في ظلمة الليل من مثل ظاهرة الفجر القطبي.

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض، والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد غالبية الأشعة الكونية القادمة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وما يمكن أن يفلت منها ترده أحزمة الإشعاع، وهذه صورة من صور الرجوع لم تعرف إلا بعد زيادة الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

٨- إذا اعتبرنا السماء بمعنى الكون وما فيه من نجوم ومجرات وأجرام سماوية مختلفة، فإن كل شيء في الكون يرجع إلى ما كان عليه، هذا ما تسلكه الأجرام السماوية في حركتها الدورية في أفلاكها الخاصة. وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها (ذات الرجوع) في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد، وكل هذا في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ الذي تلقى هذا الوحي الحق هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض .

كما أن المتأمل في الوصف بالرجع يجد جمال الوصف ودقته، فلم يقل: "ذات المطر" فيخلق المجال أمام صور أخرى كثيرة لرجع السماء بخلاف المطر؛ بل عبّر بالرجع ليفهم منه القدماء ما يتناسب مع مداركهم وإمكاناتهم العلمية، ثم يترك الباب مفتوحاً أمام الأجيال التالية لهم ليكتشفوا المزيد من صور الرجوع على النحو الذي ذكرناه آنفاً، وما زال الباب مفتوحاً أمام الأجيال القادمة ليضيفوا ما يكتشفونه إلى معجزة رجوع السماء التي عبّر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير بما يصلح لكل زمان ومكان .

ثانياً : وصف الأرض بالصدع :

فسّر القدماء وصف الأرض بالصدع بأقوال منها: أنه صدع الأرض عن النبات، أو صدع الطرقات فيها، أو صدعها عن الموتى يوم البعث والنشور، أو نحو ذلك ، لكن دلالة الصدع أوسع من ذلك حيث قال العلم الحديث ما عجز القدماء عن اكتشافه، وبيّن أن أخص صفات الأرض التي تجعلها صالحة لحياة البشر هي صفة الصدع فيها— فهي صفة ملازمة للأرض على النحو الذي سنراه :

قوله ﷺ: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)﴾ في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه، ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع لا بد وأن تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

الصدع لغة هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة؛ وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من ٠.٠٠٤ من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقاقات متبادلة من كل من السيليكا (ثاني أكسيد السيليكون)، والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم، مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راق على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية، والمواد الغروية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريّها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتتشق لتفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسويقة المنبتقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام.

وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريّها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تتكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق.

كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط على الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد فتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصهارة الصخرية المنذفة من باطن الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تترك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيماً.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية، والينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض، وما يستتبعه

ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء، فتبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض، والأغوار، والخسوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف (الصدوع العملاقة) على سطح الأرض منذ زمن بعيد إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة (الصدوع العملاقة) التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس.

وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ - ٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين ١٠٠ - ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكون سلاسل من جبال

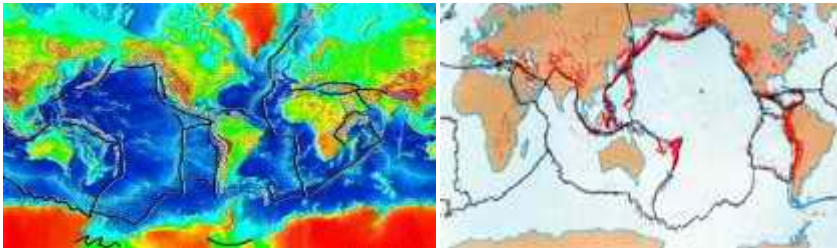
أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتي القارتين المقابلتين له، وتصابح العمليتان بالهزات الأرضية وبكم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من ٦٤٠٠٠ كيلومتر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاعه عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به. وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية، وتكون سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة (إفرست) أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة (الأودية الخسيفة) التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ - ١٥٠ كيلومتراً، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزقة

عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناجمة عن تحلل العناصر المشعة، ولولاها لانفجرت الأرض. وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية. وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تتطلق لتجددهما، وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها، وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا، ودرجة حرارة لهيبها ١٥ مليون درجة مئوية، ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقاب جاذبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع، ليس هذا فقط، بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكون أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة، وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكوناً من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وإن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكون عدداً من الجزر البركانية. ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم Mother Continent or Pangaea التي ما لبثت أن تفتتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ولا تزال تثرى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما، وثار البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تختزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها (من مثل البحر الأحمر) توجد أيضاً على اليابسة وتعمل على تكوين بحار طويلة شبيهة بالبحر الأحمر لتفتت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات، وتحاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل آارات في شرق تركيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بإيطاليا (١٣٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمنجارو في تنجانيقا (٥٩٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر).



صورتان توضحان مجموعة من الصدوع التي تحيط بالأرض والتي تشكل باتصالها صدعاً واحداً وهذا يطابق ما أخبر القرآن الكريم عنه

وجه الإعجاز: تعتبر الصدوع التي تقطع القشرة الصخرية الخارجية من الأرض لعشرات الآلاف من الكيلومترات، وفي جميع الاتجاهات، ولأعماق تصل إلى ما بين ٦٥ إلى ١٥٠ كم من أبرز علامات الكرة الأرضية، ولم تكتشف هذه الصدوع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية التي تمت صياغتها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥-١٥٠ كيلومترا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد. وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة ولل عمران، لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارَت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبـال.

وهنا نرى في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعد لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعد آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعد ثالث في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات. كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلومتراً، و ١٥٠ كيلومتراً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران. ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصداقاً لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي أوحى إليه القرآن، كان دوماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض .

المسألة السادسة: هل يوصف ربنا بالكيد كما في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾؟

والجواب : أنه لا يجوز أن يوصف الله ﷻ بالكيد، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ؛ لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله ﷻ، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعالجة للشيء بقوة وهذا ما أجمع عليه السلف.

وكيد الكفار كما قال الشنقيطى: (إنهم يكيدون للإسلام والمسلمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) أما كيد الله ﷻ لهم (والله يكيد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم، وقد وقع تحقيقه في بدر: إذ خرجوا محادة لله ولرسوله، وفي خيلائهم ومفاخرتهم، وكيد الله لهم: أن قلل المؤمنين في أعينهم، حتى طمعوا في القتال، وأمطر أرض المعركة، وهم في أرض سبخة، والمسلمون في أرض رملية فكان زللاً عليهم وثباتاً للمؤمنين، ثم أنزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم) (١) .

ولا بد من التنبيه على أن أسماء الله ﷻ توقيفية فلا مجال للاجتهاد فيها، أو إضافة أسماء إليها من غير دليل من القرآن الكريم أو السنة المطهرة، فيجب الوقوف في أسماء الله ﷻ وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه، فلا نسمي أو نصف الله ﷻ بمالم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله ﷻ وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر، أي: القرآن الكريم والسنة المطهرة .

المسألة السابعة: ما معنى رويدا فى قوله تعالى: ﴿فَمَهْلَ الْكَافِرِينَ أَْمَهُمْ رُودًا (١٧)﴾؟

الجواب: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يُنظرهم ولا يتعجل عليهم، ولا يسأل الله تعجيل إهلاكهم، وأن يرضى بما يدبره في أمورهم، قال ابن عجيبة: (لا تدع بهلاكهم، ولا تُشغل بالانتقام منهم، بل اشتغل بالله يكفك أمرهم) (٢)، ﴿أْمَهُمْ رُودًا (١٧)﴾ أى أمهلهم قليلاً ، وقد حدث هذا الإمهال ثم أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر فى غزوة بدر فقتل الله ﷻ فيها سبعين من أشرفهم، وأسر المسلمون منهم سبعين .

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨ / ٤٩٧ .

(٢) البحر المديد ٨ / ٤٣٥ .

﴿سورة البروج﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى : بم أقسم الله ﷻ وعلام أقسم في هذه السورة ؟

والجواب : أقسم ربنا في هذه السورة بثلاثة أشياء ألا وهي :

القسم الأول: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، قال ابن كثير: (يقسم الله ﷻ

بالسما و بروجها وهي النجوم العظام)^(١)، واختار ابن جرير أن تكون البروج هي منازل الشمس والقمر فقال: (والسما ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قول الله ﷻ ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ وهي منازل مرتفعة عالية في السما، وهي اثنا عشر برجاً، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلاث، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ثم يستتر ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر)^(٢) ولعل ابن جرير يعنى بها مطالع الشمس والقمر، وقيل إنها الأقسام الاثنا عشر من الفلك كالحمل والثور إلى آخرها

وأقول العلماء في البروج كلها تدور حول هذا المعنى .

القسم الثاني: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ (٢) أشهر أقوال المفسرين في بيان

المراد باليوم الموعود أنه يوم القيامة، وهو اليوم العظيم الذى وعد به الناس للقيام والسؤال بين يدي جبار السموات والأراضين.

القسم الثالث: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (٣٢) تعددت أقوال المفسرين في

تحديد ما الشاهد والمشهود، أما (الشاهد) فله معنيان: الأول: قد يطلق على الحاضر، تقول: "شهد فلان الحرب" أى حضرها، والثاني: يطلق على الناظر أو الرائي، تقول مثلاً: "شهدت الحادثة"، أى: رأيتهـا.

فمن معاني الشهادة: الحضور، ومن معانيها: الرؤية، ومن هنا تعددت أقوال المفسرين فمن العلماء من قال: المراد بـ (الشاهد): الحاضر، ومنهم من قال المراد بـ (الشاهد): الرائي والناظر.

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٦٣ .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن ٢٤ / ٣٣٢ .

فما الشاهد على تأويل الشاهد بالحاضر؟ للعلماء في ذلك أقوال:
القول الأول: أن (الشاهد): كل الخلائق، والمشهود: يوم القيامة،
فالمعنى على هذا التأويل: أن الله يقسم بالناس أو بالخلائق التي ستشهد
موقف الحساب، (فالشاهد) أي: الحاضر وهم الخلائق، و(المشهود): هو
يوم القيامة.

القول الثاني: أن (الشاهد) هم الذين يصلون الجمع، يعني: هم
الحضور الذين يحضرون صلاة الجمع، و(المشهود): هو يوم الجمعة.
القول الثالث: أن (الشاهد): هم الحجيج الذين يشهدون عرفات، و
(المشهود): هو جبل عرفة.

القول الرابع: أن (الشاهد): هم الحجيج، والمشهود: يوم النحر.
فهذه بعض الأقوال في تفسير (الشاهد) بمعنى: الحاضر.
أما قول من ذهب إلى تفسير (الشاهد): بمعنى: الرائي والناظر، أو
بمعنى أوسع: (الشاهد): الذي تقوم به الشهادة، وتثبت به الدعاوى، فقد
تعددت أقوالهم على النحو التالي:

القول الأول: إن (الشاهد) أي: الشاهد على الخلائق والذي تقوم به
الدعاوى، فـ (الشاهد) هو الله، و(المشهود): هو التوحيد، واستدل لهذا
القول بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (١).

والقول الثاني: إن الشاهد: هو محمد ﷺ، والمشهود: الخلائق أيضاً
مشهود عليهم، والذي يشهد للقول الثاني قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ
كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤١) (٢).
القول الثالث: إن (الشاهد): هم الأنبياء عموماً، والمشهود عليهم:
أممهم.

القول الرابع: إن (الشاهد): أمة محمد ﷺ، وتشهد على سائر الأمم؛
لقول النبي ﷺ: (أنتم شهداء الله في الأرض)، أو (يُدعى نوح يوم القيامة،

(١) سورة الأنعام / من الآية ١٩.

(٢) سورة النساء / آية ٤١ .

فيقال: يا نوح! هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول قومه: ما جاءنا من نذير، فيقال لنوح: من يشهد لك يا نوح؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته) .

هذه بعض الأقوال في تفسير (الشاهد) و(المشهد)، واختار قوم من أهل العلم العموم، فقالوا: كل ما يصلح أن يطلق عليه شاهد فهو شاهد، وكل ما يصلح أن يطلق عليه مشهود فهو مشهود، وهذا اختيار ابن جرير الطبري رحمه الله ﷺ، فعلى ذلك: يدخل في لفظ (الشاهد) الحجيج الذين يشهدون الحج، والمصلون الذين يشهدون الجمع، والمصلون الذين يشهدون الأعياد، ويدخل في لفظ (الشاهد) الشاهد الذي تثبت به الدعاوى، وعموم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأمة محمد ﷺ، وهذا المسلك يسلكه ابن جرير الطبري رحمه الله ﷺ في مواطن متعددة، فتجده دائماً يجنح إلى القول بالعموم وهو الأولى طالما أمكن الجمع بين الأقوال دون تعارض بينها، وهو ما ينبئك عن فصاحة القرآن واتساع معانيه .

لكن بعد استعراض أقوال العلماء المتنوعة في الشاهد والمشهد ينبغي لك أن تعلم أن أعظم الشاهدين هو الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾^(١)، فالله ﷻ من تكلم عنده كمن أسرّ، ومن ظهر كمن اختفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وطوبى لعبد خاف الله ﷻ واتقاه، وعلم أن الله ﷻ هو خير الشاهدين، فما أقفل على نفسه باباً إلا وتذكر عظمة الجبار ﷻ وأن الله ﷻ مطلع عليه، لا تخفى عليه من عباده خافية.

كل ما سبق هو ما أقسم به الله ﷻ، فما المُقسم عليه ؟
من العلماء من قال: إن جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي لُعِنُوا، وأصحاب الأخدود هم الذين قتلوا المؤمنين، وحفروا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها عقاباً لهم على إيمانهم كما سيأتى .

(١) سورة النساء / من الآية ٧٩ .

ومن المعلوم أن كلمة (القتل) كثيراً ما تأتي في القرآن بمعنى (اللعن) لا بمعنى القتل المعروف، كما في هذه الآية، ونظيره في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَصُونَ﴾ (١٠) ^(١) والخراصون هم الكذابون وهم ملعونون، ومثله قوله تعالى في سورة (عبس) متحدثاً عن الإنسان الكافر الذى أشرك بالله ﷻ فاستحق أن يكون ملعوناً مطروداً من رحمته ﷻ: ﴿قُتِلَ الْإِنْسُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ١٧ ^(٢) فالإنسان هنا هو الكافر فهو ملعون بسبب كفره؛ وعلى هذا القول بأن جواب القسم هو ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ فيكون الله ﷻ قد أقسم على أن أصحاب الأخدود ملعونون.

بينما يرى بعض العلماء أن جواب القسم ليس هذا، بل جاء متأخراً في أواخر السورة الكريمة، وهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) فيكون الله ﷻ قد أقسم بالسما وبروجها، وباليوم الموعود، وبالشاهد والمشهود على أن بطشه ﷻ بطش شديد، فعقابه أليم وأخذته للظالمين مفزعة مرهبة، وربنا الذى وصف نفسه بالغفور الودود هو الذى وصف بطشه بالشديد حتى يعيش المؤمن بين حالتى الخوف والرجاء فلا يجترئ على انتهاك حدود الله ولا يقنط من رحمته .

المسألة الثانية: ما قصة أصحاب الأخدود التى أوردتها السورة الكريمة ؟

الجواب : تعددت أقوال العلماء في أصحاب هذه القصة؛ ومن يكونون على أقوال لعل من أظهرها ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث صهيب بن سنان -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال : (كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: "إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر"، فبعث إليه غلاماً يُعلِّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّاً بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: "إذا خشيت

(١) سورة الذاريات / آية ١٠ .
(٢) سورة عبس / آية ١٧ .

الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر"، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: "اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟" فأخذ حجراً فقال: "اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس"، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: "أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ" وكان الغلام يبئ الأكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك - كان قد عمي - فأتاه بهدايا كثيرة فقال: "ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني"، فقال: "إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك"، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: "من رد عليك بصرك؟" قال: "ربي"، قال: "ولك رب غيري؟"، قال: "ربي وربك الله"، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام، فقال له الملك: "أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل" فقال: "إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله"، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقل له: "ارجع عن دينك"، فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقل له: "ارجع عن دينك" فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام فقل له: "ارجع عن دينك" فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: "اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه"، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: "اللهم اكفنيهم بما شئت"، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: "ما فعل أصحابك؟" قال: "كفانيهم الله"، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: "اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه" فذهبوا به فقال: "اللهم اكفنيهم بما شئت"،

فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: "ما فعل أصحابك؟" قال: "كفانيهم الله"، فقال للملك: "إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به"، قال: "وما هو؟" قال: "تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنائتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني" فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنائته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: "باسم الله رب الغلام"، ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: "آمنّا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام".

فأتى الملك فقيل له: "أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس"، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخذت وأضرم النيران، وقال: "من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له اقتحم"، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: "يا أمه اصبري، فإنك على الحق" (١).

فمن العلماء من اعتبر هذا الحديث الصحيح هو قصة أصحاب الأخدود التي تحدثت عنها سورة البروج، ومنهم من يرى أن العبرة بمضمون القصة لا في تحديد أشخاصها؛ ولذا أبهم القرآن الأسماء والأشخاص والزمان والمكان في هذه الحادثة الشنيعة التي قُتل فيها أهل الإيمان حرقاً في الأخاديد، فما دفعهم هذا العذاب الشديد وما عاينوه من الموت الأكيد إلى التخلي عن التمسك بدينهم والثبات عليه حتى الممات، وهي قصة متكررة متشابهة في أحداثها في كثير من الأزمنة والأمكنة؛ حين يتسلط الكفار المجرمون على بلاد المسلمين ويبدلون جهدهم لصد المسلمين عن دينهم، ودفعهم -بشتى صنوف الأذى والعذاب- للتخلي عن توحيدهم لله رب العالمين .

(١) صحيح مسلم ، ٢٢٩٩/٤ ، كتاب "الزهد والرقائق" ، ورقم الحديث: " ٣٠٠٥ " .

المسألة الثالثة: ما المراد بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (١٣) ؟

الجواب: قال الشنقيطي: (قيل: يبدئ الخلق ويعيده، كالزراع والنبات والإنسان، بالمولد والموت، ثم بالبعث)^(١)، وعلاقة ذلك بقصة أصحاب الأعدود أنها بمثابة تهديد من الله ﷻ للكفرة الظلمة أنهم سيعودون إلى الله ﷻ كما بدأهم، وفيها تصبير للمؤمنين المضطهدين أنهم سيرجعون إلى من بدأهم فيجازيهم أفضل جزاء على صبرهم .

وقيل في معنى البدء والإعادة أن المقصود بهما بدء العذاب وإعادته على الكفار، قال ابن عباس: (إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً ، فذاك هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (١٣))^(٢)، وفيه تهديد من الله ﷻ للظلمة والجبارين، وبيان أن عذاب الله ﷻ واقع بهم يوم الدين .

المسألة الرابعة: ما معنى اسم الله الغفور والودود ؟

الجواب: اسم الله (الغفور) على وزن فعول، وفعل واحد صيغ المبالغة الخمسة التي تدل على عظيم المغفرة وسعتها، قال الفخر الرازي: (قالت المعتزلة : هو الغفور لمن تاب ، وقال أصحابنا : إنه غفور مطلقاً لمن تاب ولمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) ولأن غفران التائب واجب، وأداء الواجب لا يوجب التمدح، والآية مذكورة في معرض التمدح)^(٤).

أما اسم الله (الودود) فمأخوذ من الود، قال الزجاج: (هذا يجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل، ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى مفعول) وعلى هذا فإذا كان الودود فعولاً بمعنى فاعل كان المعنى أن الله ﷻ يتودد إلى خلقه بإنعامه عليهم، ولطفه بهم، وتسيير مصالحهم، وقضاء حوائجهم، وإذا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨ / ٤٨٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ١ / ٤٧١٥ .

(٣) سورة النساء / من الآية ٤٨ .

(٤) مفاتيح الغيب ١ / ٤٧١٥ .

كان الودود فعولاً بمعنى مفعول فيكون المعنى أن عباده يحبونه ويتوددون إليه ﷺ لما يرونه من كريم عطائه الذى لا ينفد، ورحمته التى لا حدود لها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (١).

وفى السورة لطيفة يحسن الوقوف عليها:

ألا وهى العلاقة بين أول السورة وآخرها؛ فالمتدبر المتأمل فى بداية السورة التى أقسم الله ﷻ فيها بالسماء وبروجها وهى العالية المرتفعة فوق الناس لا يستطيع أحد منهم أن يصل إليها بيديه، ولا أن يُغَيِّرَ فيها شيئاً مهما حاول أو أوتى من قوة، ثم تأتى خاتمة السورة لتتكلم عن القرآن المجيد وحفظه، فى قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾ ليجد بين افتتاح السورة بالقسم بالسماء وخاتمتها بذكر القرآن المجيد صلة بديعة وعلاقة وثيقة كما سيأتى إيضاحه :

السماء لا تستطيع يد بشر أن تصل إليها ولا أن تمسها بسوء، وكذا القرآن المجيد محفوظ من التحريف والضياع، والسماء مرفوعة فوق الرؤوس عالية عن الناس، وكذا القرآن الكريم فى علوه وارتفاعه، كما أن القرآن الكريم نزل من السماء، أضف إلى ذلك أن السماء فيها الشمس والقمر وفيهما النور أو انعكاسه الذى ينير للناس ظلمة ليلهم البهيم، وكذا القرآن العظيم الذى يضىء لهم طريقهم ويحفظهم من ظلمة الفتن وشُرور الشيطان، كما أن الناس يهتدون بالنجوم فى السماء كي لا يضلوا الطريق، والقرآن المجيد كتاب هداية لهم يدلهم على طريق الراحة والرضوان والنعيم المقيم فى الجنة ... والله تعالى أعلى وأعلم .

(١) سورة البقرة / من الآية ١٦٥.

﴿سورة الانشقاق﴾

وفيها عشر مسائل :

المسألة الأولى: قال الله ﷻ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١)﴾ هل انشقت السماء أم لم تنشق بعد؟ وإذا كانت لم تنشق فلم عبرت الآية عنها بالفعل الماضي الذي يدل على انتهاء وقوع الحدث ؟

الجواب: إن هذا الانشقاق سيكون يوم القيامة، وقد عبرت الآية عن الانشقاق بصيغة الماضي ﴿انْشَقَّتْ﴾ الذي يدل على وقوع الانشقاق وانتهائه مع أنه لم يقع بعد لأنه سيكون يوم القيامة، للدلالة على تحقق وقوعه لأنه إخبار من الله ﷻ فكأنه قد وقع وحدث وانتهى، وله أمثلة في القرآن الكريم كثيرة، ومنه قوله ﷻ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (١)، فأمر الله ﷻ لم يأت بعد بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ولكن الله ﷻ عبر عنه بأنه قد أتى لتحقيق وقوعه، لأن أمر الله ﷻ لا ولن يتخلف .

المسألة الثانية: ما معنى قوله ﷻ: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ (٢)﴾؟

الجواب: ﴿وَأَذْنَتْ﴾ هنا بمعنى استمعت وأطاعت، ففي (التبيان في تفسير غريب القرآن): ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ سمعت لربها، وحق لها أن تسمع (٢)، وفي تفسير ابن كثير: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا أَي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق، ﴿وَحَقَّتْ (٢)﴾: أي: وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يُغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، وهذا هو المروي عن السلف، فقد روى ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ قال: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أطاعت، ومن طريق سعيد بن جبير: ﴿وَحَقَّتْ (٢)﴾ أي حق لها أن تطيع (٣).

(١) سورة النحل / من الآية ١ .
(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ، ص ٤٥٦ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ٨ / ٣٥٦ .

وفيه دليل على أن كل الكون خاضع للملك، متذلّل له، قد امتلأ خوفاً وخشية منه ﷻ .

المسألة الثالثة: ما دلالة حرف الجر (إلى) فى قوله قوله ﷻ : «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)»؟

الجواب: حرف الجر (إلى) يفيد انتهاء الغاية، فإذا قلت: (سافرت من السويس إلى القاهرة) فحرف الجر (من) هنا لابتداء الغاية أى بداية السفر، وحرف الجر (إلى) لانتهاء الغاية أى أن سفرى ستنتهى غايته إلى القاهرة، وفى هذه الآية «إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ» دلالة على أن الكدح والتعب ومشقة التكاليف ستنتهى عند لقاء الله ﷻ وبلوغ الغاية بدخول الجنة وعندئذ تتوقف التكاليف وتنتهى مشقة الطاعات، ليبدأ الثواب الأبدى والنعيم السرمدى الذى لا تعب فيه ولا نصب، فقد انتهى الكدح فى الدنيا ليأتى الثواب فى الآخرة، قال الفخر الرازى : (فى هذا التفسير نكتة لطيفة وذلك لأنها تقتضى أن الإنسان لا ينفك فى هذه الحياة الدنيوية من أولها إلى آخرها عن الكدح والمشقة والتعب؛ ولما كانت كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة، وذلك معقول، فإن نسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى رحم الأم، فكما صح أن يُقال: «يا أيها الجنين إنك كادح إلى أن تتفصل من الرحم» فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة إلى ما قبله خالصاً عن الكدح والظلمة، فخرجوا من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك^(١)، وقد صدق من قال: (إن مشقة الطاعة ستنتهى ويبقى نعيمها، ولذة المعصية ستنتهى ويبقى عذابها)، فالواجب على العاقل أن يصبر على جوع الصيام وتعب القيام وصدالنفس عن الفواحش والمنكرات فى الدنيا ؛ ليُفتح له باب النعيم فى الآخرة، وما الشجاعة إلا صبر ساعة .

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ٩٦ .

المسألة الرابعة: ما الذى ألقته الأرض وتخلت عنه فى قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)﴾ ؟

الجواب: إذا كان يوم القيامة فإن الأرض تلقى ما فى بطنها من الموتى والكنوز وتخرج ذلك على ظهرها وتخلى ما فى باطنها فلا يبقى فى بطنها شئ، قال الماوردى: (أنها ألقَتْ ما استودعت وتخلت مما استُحْفِظَتْ، لأن الله استودعها عباده أحياء وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارع وأقواتاً) ^(١) .

المسألة الخامسة: كيف يكون الحساب اليسير يوم القيامة ؟

الجواب: الحساب والعرض على الله ﷻ يختلف باختلاف أحوال العباد، وهو على نوعين:

حساب عرض، وحساب نقاش، فأما حساب العرض فهو الحساب اليسير وفيه لا يناقش الله ﷻ العبد وإنما (تُعرض أعمال العبد عليه ويعرف أن الطاعة منها هذه والمعصية هذه ثم يُنَاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة ولا يقال له: لم فعلت هذا؟ ولا يُطَالَب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه؛ فإنه متى طوَلَب بذلك لم يجد عذراً ولا حجة فيفتضح، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسروراً، فائزاً بالثواب، آمناً من العذاب، والمراد من أهله: أهل الجنة من الحور العين، أو من زوجاته وذرياته إذا كانوا مؤمنين) ^(٢)، ففي الصحيح عن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنه أخذ بيده؛ إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ فى النجوى؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن الله يُدْني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستتره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هَلْكَ، قال: سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته،

(١) النكت والعيون ٦ / ٢٣٥ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٩٦ .

وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأَشهاد: ﴿هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) (١) (٢)، وهذا ليس لكل الناس؛ إنما للمؤمنين فقط. أما النوع الثاني وهو حساب النقاش فصاحبه هالك لا محالة؛ ففيه مطالبة العبد بنتائج النعم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْتُمْ طَيِّبَتْكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠) (٣)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه: (فيلقى العبد فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني، فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟! فيُختم على فيه، ويقال لفضده ولحمه وعظامه: انطقي؛ فتتطق فضده ولحمه وعظامه بعمله؛ وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه) (٤).

المسألة السادسة: وصفت الآيات من أوتي كتابه وراء ظهره بأربع صفات: اثنتين منها في الدنيا، واثنين في الآخرة .. فما هذه الصفات ؟
الجواب: قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) فسوف

(١) سورة هود / من الآية ١٨ .
(٢) صحيح البخاري ٢ / ٨٦٢ ، ورقمه ٢٣٠٩ .
(٣) سورة الأحقاف / الآية ٢٠ .
(٤) صحيح مسلم ، ٤ / ٢٢٧٩ ، ورقمه ٢٩٦٨ .

يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) ﴿ فوصفت هذه الآيات حال من أخذ كتابه من وراء ظهره فخاب حاله، وخسر ماله ولا تعارض بين الآيات التي صرحت بأخذ الكتاب للفجار بشمائلهم وهنا أخذه من راء ظهورهم لأن الكافر قد يأخذه بشماله من وراء ظهره، أو يأخذه بشماله فيضعه وراء ظهره ليخفيه كحال من يخفى خبيته ويدارى جريمته، والله المستعان .

وهذا الخاسر الخائب سيدعو على نفسه بالثبور أى الهلاك والموت، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)﴾^(١) ثم يدخل النار السعير فيحترق فيها ويصطلى بحرّها، ثم وصفت هذه الآيات حال هذا الخاسر فى دنياه الفانية بأنه كان مسروراً سعيداً فى أهله، آمناً بين قومه، لا يخاف حساباً ولا نشوراً؛ ومن آمن الله فى الدنيا أخافه الله يوم القيامة، ومن خاف الله العظيم فى الدنيا آمنه الرب الرحيم يوم القيامة؛ فإن الله ﷻ برحمته لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين، ثم إنه ظن أنه لن يرجع إلى ربه ويحور إليه، فيلقى جزاءه ويأخذ حسابه، ولو تيقن بالبعث وآمن بالحساب ما فرط فى دينه ولا قصر فى طاعة مولاه .

المسألة السابعة: بم أقسم الله ﷻ فى السورة وعلام أقسم ؟

الجواب: أقسم ربنا ﷻ ﴿بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)﴾ وقد أقسم بهذه الأشياء على ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩)﴾ .

فأما أول ما أقسم به ربنا فى هذه السورة فهو الشفق (والمراد بالشفق شفقان: شفق أحمر، وشفق أبيض، والشفق هو الحمرة التي تكون في اتجاه غروب الشمس مستعرضة في السماء وهي التي بها يدخل وقت العشاء،

(١) سورة النبأ / الآية ٤٠

قال النبي ﷺ: (وقت العشاء ما لم يغيب الشفق) فالمراد بالشفق هنا الشفق الأحمر، أما الشفق الأبيض فقد يمتد إلى منتصف الليل أو إلى قريب الفجر، فالشفق المعول عليه في الحديث في انتهاء وقت المغرب هو الإحمرار الذي يكون في اتجاه غروب الشمس وإذا اختفى هذا الإحمرار دخل وقت صلاة العشاء) .

أما القسم الثاني فقد أقسم ربنا ﷻ بالليل وما وسق أى بالليل وما جمعه وضمه واحتواه تحت جناح الظلام، ومعلوم أن ظلمة الليل تحوى كل المخاوف والشرور؛ ففي ظلام الليل يجتمع الأشرار، وتُحَاك مكائد الفجار وتنتشر فيه الشياطين، وتسعى فيه الهوام والحيات، ولهذا استُعِذ بالله من شر الغاسق إذا وقب - وقد تقدم فى سورة الفلق - وقد قال رسول الله ﷺ: (إذا كان جناح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ)^(١). ثم أقسم ربنا ﷻ بالقمر إذا اتسق أى صار متسقاً تماماً كاملاً وهذا إنما يكون فى منتصف الشهر الهجرى وهى المعروفة بالليالى البيض والتى يُسَنُّ فيها الصيام؛ وذلك فى ليالى الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر .

هذا ما أقسم به ربنا لكن ما الذى أقسم عليه ؟
أقسم ربنا بما سبق على ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) والمراد بالطبق هنا الحال، وركوب الطبق بعد الطبق أى تبدل الأحوال وتغير الظروف، وفى قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى وخلف بالفتح (لَتَرْكَبُنَّ) فيكون المقصود بذلك الخطاب هو رسول الله ﷺ حيث أقسم ربنا على أن حال نبيه سيتغير من حال إلى حال؛ فهو فى مكة مستضعف وحيد، قليل الناصر والأتباع؛ ثم سيصير حاله فى المدينة قوياً، كثير الأصحاب مرهوب الجانب، أو لتعلون منزلة بعد منزلة، وشرفاً بعد شرف وقربة إلى الله ﷻ بعد قربة، أو أن القسم يشير إلى معراجهِ ﷺ وصعوده السموات

(١) صحيح البخارى ، ٣ / ١٢٠٣ ، ورقمه ٣١٢٨ .

سماء بعد سماء .

وقرأ الباقر بالضم ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ فالمخاطب به الناس جماعات وفردى، لتدل الآية على أن الأصل في الإنسان تقلب أحواله وعدم ثبوته على حال واحد ، فقد كان جنيناً فوليداً فصغيراً فبالغاً فشاباً يافعاً فرجلاً عاقلاً فكهنلاً فشيخاً فعجوزاً هرماً ، تتقلب به دنياه ما بين حال الفقر والغنى، والصحة والمرض، والسعادة والحزن، والضحك والبكاء، والشغل والفراغ، والجوع والشبع، والرى والظمأ، والنوم واليقظة، والاجتماع والانفراد، والراحة والتعب والعزة والذلة، والأنس والوحشة، إلى آخر هذه الأحوال التي لا تكاد تنتهى لتثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام إرادة القوى العزيز .

المسألة الثامنة: ما الدرس المستفاد من قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يُوعُونَ (٢٣)؟

الجواب: أن الله ﷻ أعلم بما يضمرونه فى أنفسهم ويخفونه فى دخائل صدورهم، وفى الآية درس للمؤمن فى وجوب مراقبة الله ﷻ فى سره وعلايته، وإخلاص قلبه لخالقه، ومراقبه سريرته التى لا يطلع عليها إلا من يعلم السر وأخفى، لأن الله ﷻ يعلم ما وعاه قلبه وانطوى عليه فؤاده .

المسألة التاسعة: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ البشارة تكون للأمر السار فكيف تكون

البشارة هنا لهم بالعذاب الأليم ؟

الجواب: فى قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ والأصل فى

البشارة أن تكون فى الإخبار عن الأمر السار وما يبهج القلب ويدخل عليه الفرح والسرور، ولكن الآية جاءت تبشر الكافرين بعذاب أليم، وهو لون من ألوان السخرية فى الأسلوب والاستهزاء بهم، والضغط على مشاعرهم وأحاسيسهم، وهو نوع من أنواع العذاب النفسى، حيث يأتى كلمة فبشرهم فينتبهون فى انتظار أن يقرع الخبر السار مسامعهم، فإذا البشارة التى انتظروها إنما هى العذاب الأليم .

المسألة العاشرة: كيف يكون الأجر غير ممنون، في قوله ﷻ: ﴿اللَّهُمَّ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥)؟

الجواب: أن الأجر يكون غير ممنون بتحقيق أمرين :
الأول: عدم انقطاعه واستمراره، والثاني: عدم منة صاحب الأجر لمن
يعطيه، وكلا الأمرين من الله واقع، فتوابه لا ينقطع ولا ينتهي، وأجره لا
منة فيه ولا تمنن .

﴿سورة المطففين﴾

وفيها ثمانى مسائل :

المسألة الأولى: من هم المطففون الذين تحدثت عنهم السورة
الكريمة ؟

الجواب: إن أفضل تفسير للمطففين أن نفسره بما فسرہ القرآن الكريم
ويدخل هذا تحت باب (تفسير القرآن بالقرآن) وهو أعلى درجات التفسير،
والتطيف هو التنقيص، وعندما ننظر فى الآيات بعدها نجدها تصف
المطففين بصفات، فهم :

﴿إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (٢) أى إذا أرادوا أخذ ما لهم
أخذوه بزيادة، فهم فى حال الوزن لهم يزنون بالزيادة فيظلمون الناس،
وإذا اشتروا من شخص طالبوه بأن يزيد فى الميزان ليأخذوا أكثر من
حقهم .

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (٣) أى إذا أرادوا أداء ما عليهم
أدوه منقوصاً غير مستوفٍ، ففى حال الوزن للناس يخسرون الميزان ولا
يرجعونه .

ولعل من أفضل ما ترشدنا إليه الآية هو مبدأ الحقوق والواجبات،
فطلب الحق الذى لك وإهمال الواجب الذى عليك هو عين التطيف،
فالمطففون ليسوا فى مجال الوزن والتجارة فحسب، بل إن مفهوم الآيات
أشمل وأوسع ليشمل كل معاملة فيها الحقوق والواجبات، فالزوج الذى
يطلب حقوقه كاملة من زوجه ولا يؤدى ما عليه من واجبات تجاهها هو
من المطففين، والوالد الذى يطالب أبناءه ببره وأداء حقه ثم هو يهمل
واجبات أبوته تجاه أبنائه هو من المطففين، وكذا المدير فى إدارته الذى
يسعى لنيل كافة حقوقه من عماله ثم يغمطهم حقوقهم ولا يوفيهم جزاءهم
هو من المطففين، وهكذا يمكن أن تتسع دائرة المطففين ولا تقتصر على

من يبخس حق الناس فى ميزان التجارة ويستوفى الوزن لنفسه فحسب، بل تشمل الدائرة كل من له حق وعليه واجب، حيث يجب على الجميع كما يطالبون بحقوقهم كاملة أن يؤدوا واجباتهم غير منقوصة، ليأخذ كل ذى حق حقه، فيعم السلام وتنتشر المحبة والوئام وهذا مراد القرآن وغايته .

المسألة الثانية: ما الدرس الإيمانى المستفاد من قوله ﷺ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾؟

الجواب: تشعرك الآيتان أن هؤلاء المطففين ما فعلوا هذا الجرم ولا اجتروا على أكل حقوق الناس إلا لأنهم نسوا يوم البعث والوقوف بين يدى الله ﷻ؛ ولذا كان من أعظم ما يمنع به الإنسان نفسه من الوقوع فى الزلل أن يجعل يوم البعث والوقوف بين يدى الله ﷻ ماثلاً نصب عينيه؛ فيكون ذلك له رادعاً عن الوقوع فى المعاصى، ومن ثم فقد حثنا رسول الله ﷺ على الإكثار من ذكر هادم اللذات وهو الموت، فلا يُذكر الموت فى سعة إلا ضيقها ولا فى ضيق إلا وسعه ... والله المستعان .

المسألة الثالثة: ما كتاب الفجار ؟ وما كتاب الأبرار ؟ وأين يكونان ؟

الجواب: كتاب الفجار هو ذلك الكتاب الذى كُتبت فيه أعمال الكافرين، وكتاب الأبرار هو الكتاب الذى كُتبت فيه أعمال الأبرار المتقين، وقد وصفت الآيات كتاب الفجار بأنه فى سجل، وورد فى تفسير سجل أقوال عدة كلها تدور حول الخسارة والسفال والنار وقد رجح نفر من العلماء - منهم فضيلة شيخنا أبى عبد الله مصطفى العدوى - أن يكون المراد من سجل سجن فى الأرض السابعة السفلى، ودل على ذلك حديث النبي ﷺ فى مصنف ابن أبى شيبة فى قصة نزع روح المؤمن وروح الكافر (أن روح الكافر تصعد فلا تفتح لها أبواب السماء ويقول الله: اكتبوا كتاب عبي فى سجين فى الأرض السفلى)^(١)، فهو سجن فى الأرض السابعة السفلى .

(١) المصنف فى الأحاديث والآثار، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى شيبة، ٣ / ٥٤ ، ورقمه ١٢٠٥٩، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ .

أما كتاب الأبرار فهو فى عليين على عكس كتاب الفجار الموضوع فى سجين، وعليون من العلو والارتفاع وهو مستقر كتب الأبرار فى السماء السابعة بنص حديث البراء السابق (اكتبوا كتاب عبدي فى عليين فى السماء السابعة)^(١) ثم هو مع رفعة مكانه وعلو شأنه يشهده ويراه ويطلع عليه المقربون وهم الملائكة المقربون من الله ﷻ، وفي قوله ﷻ: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١) حث للعبد على أن يحسن عمله لأن كتاب أعمال المؤمن فى عليين ينظر إليه الملائكة المقربون فى السماء، ولو علم العبد أن سريره وعلايته ستعرضان على إخوانه من أهل الدنيا لاجتهد فى إصلاحهما فما بالك إذا كانت أعمالك ستعرض على الملائكة المقربين؛ يطلعون على ما فيها من أفعال، ويقرأون ما فيها من أقوال، فالأحرى بالعبد أن يستحى من الله ﷻ حق الحياء، ثم يستحى من الملائكة المقربين التى لا تعصى الله تعالى ولا تفعل إلا ما يرضيه .

المسألة الرابعة: ما الران الذى ورد فى قوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ؟

الجواب: الران هو أثر المعاصى فى القلب وهو سواد يعترى القلب ويغشاه فكلما فعل العبد معصية نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا تكرر الذنب بعد الذنب تكررت النكات السوداء فغطت القلب وصارت حاجزاً ومانعاً لنور الإيمان أن يصل إلى القلب، فإذا استمع إلى القرآن والموعظة لم يجد لذلك أثراً فى قلبه، لكن العبد إذا استغفر وتاب مُحيت أثر هذه المعاصى من قلبه، ولذا فإن للمعاصى أثر فى موت القلب، وللاستغفار أثر فى حياة القلوب. وقد أخبر النبي ﷺ: (إذا أذنب العبد ذنباً نكتت على قلبه نكتة سوداء فإن تاب وأقْلَع مُحيت، وإن عاد وأصر نكتت نكتة أخرى سوداء حتى يغطي القلب كله، ثم قال: هذا هو الران الذى ذكر الله فى كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)).

(١) هذا جزء من الحديث السابق .

المسألة الخامسة: قال الله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ (٢٦) وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ وصفت هذه الآيات شراب الأبرار بصفات.. فما هي ؟

الجواب: الرحيق هو الخمر وهو شراب من بين أشربة الجنة الكثيرة، وقد وصفته الآيات بأنه مختوم قيل: إن كؤوس الخمر التي أُعدت للأبرار مختوم بأختام من مسك فلا يفكها إلا من أراد الشرب منها، قال القرطبي: (وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسه ماس إلى أن يفك ختامها الأبرار)^(١)، وهذا الختم تكريم لهذه الأواني حتى لا يمسه غيرهم، وقد بلغ من ترفهم ونعيمهم أن جعلت هذه الأختام من مسك .

وقيل: بل المختوم هنا بمعنى المخلوط فهذا الرحيق مخلوط بالمسك، قال ابن كثير: (وقال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾ أي خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك)^(٢). وقيل: بل المعنى أن آخر الشراب وخاتمته رائحة المسك، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة، وقد صارت هذه الجملة مضرب المثل في حُسن ختام الأمور، فيقال: "ختامه مسك" .

ثم إن هذا الرحيق ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يقال: امتزج الشيء بغيره إذا اختلط به، والمعنى أن هذا الرحيق أي الخمر مخلوط بشيء من التسنيم، والتسنيم هو اسم عين راقية قد أعدها الله للمقربين؛ يشربون منها خالصة صافية، ويؤخذ منها فيخلط في شراب غيرهم من أهل الجنة، ولذا قال الله عنها: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ أي أن عين التسنيم، (عين يُمزج بها الرحيق لأصحاب اليمين، وأما المقربون فيشربونها صيرفاً)^(٣)، ومعنى صيرفاً أي خالصة غير مختلطة بغيرها .

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم ، ١٩ / ٢٦٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٨ / ٣٥٣ .

(٣) تفسير الطبري ، ٢٤ / ٣٠٠ .

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي: وفي ذلك النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليترغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله ﷻ وثوابه العظيم .

المسألة السادسة: ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾؟

الجواب: إن الآية الكريمة تفتح باب المنافسة في ميدان الطاعة، والمنافسة في الإقبال على الله ﷻ، فهذا هو باب التنافس الحقيقي الذي يجب أن يسعى إليه المؤمن، فينظر إلى من هو أعلى منه في الدين، ويحرص على منافسته ومزاحمته على أبواب المساجد، وحلق العلم، وميادين الإنفاق، ومجالات الخير، على عكس ما عليه حال أغلب الناس اليوم؛ فمجال المقارنة والمنافسة عندهم في أمور الدنيا، حتى صار الحال في بعض دول الإسلام أن كتبوا هذه الآية الكريمة: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ على أبواب ميادين الرياضة وستادات كرة القدم، فجعلوا المنافسة في هذا المجال، وحولوا اهتمام الشباب المسلم من التنافس في ميادين العلم والجهاد إلى بذل الجهد وإفراغ الطاقة وفتح باب التعصب من أجل كرة من الجلد تتقاذفها أرجلهم وتلعب بعقولهم، وما هذا - والله - إلا من البعد عن تدبر كتاب ربنا وتتكب طريقه وإبعاد شباب الأمة عن المسارعة في أبواب الخير وميادين الثواب .

المسألة السابعة: وصفت الآيات إجرام المجرمين في الدنيا بأربع صفات ... فما هي ؟

الجواب: وصفت الآيات المجرمين في الدنيا في تعاملهم مع المؤمنين بأنهم: ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَظْهَكُونَ (٢٩)﴾ أي كانوا في الدنيا يأخذون من المؤمنين مادة للتندر والسخرية والضحك والاستهزاء .

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)﴾ أي: يغمز بعضهم لبعض بإشارات أيديهم وحركات وجوههم؛ كفعل أهل البطالة وسوء الأدب؛ في محاولة منهم لاستجداء الضحك من التافهين وإحراج المؤمنين .

﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَمْثَلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ أى: إذا عاد هؤلاء المجرمين إلى بيوتهم وأصحابهم رجعوا وهم فى حالة من الابتهاج والفرح بما فعلوه مع المؤمنين، وهو ما يوضح موت الضمير عندهم، وخبث أنفسهم، وانعدام مبدأ محاسبة النفس ومراجعة الأخلاق .

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)﴾ ومن العجب أن يتكلم هؤلاء الضالون المجرمون عن الهداية والضلال وينسبون أهل الإيمان إلى الضلال ويبرئون أنفسهم منه، وتلك عادة المجرمين منذ بدء الدعوة إلى الله وإرسال الرسل من لدن نوح - عليه السلام - إلى يومنا هذا منذ أن سخر مشركو قوم نوح منه ومن مؤمنى قومه، وقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم: ﴿مَا نَرَكُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِهِ الرَّأْيِ﴾^(١) وتستمر حملة السخرية من المؤمنين، والخط من أقدارهم، والاستهزاء بتمسكهم بدينهم حتى يومنا هذا، والناظر إلى أصحاب الأفكار الغربية من العلمانيين ومن سار على دربهم من بعض الإعلاميين وممن يسمون أنفسهم أهل النخبة والفكر فى كثير من مجتمعاتنا العربية لا يجد لهم همًّا إلا السخرية من تمسك المسلم بدينه وسنة نبيه ﷺ فيسخرون ممن أعفى لحيته، أو قصر ثوبه، أو حمل السواك فى جيبه، أو لبست النقاب واتشحت بالسواد، ويعتبرون هذا من باب التخلف والرجعية، فى الوقت الذى تجدهم يصفقون لكل وارد من بلاد الغرب مهما خالف قواعد الدين وأصول الأخلاق ... والله المستعان .

فلتحذر - أذى الحبيب - من أن تقع فى هذا الذنب العظيم ولتحرص على إحياء سنة نبيك ﷺ مهما قابلتك عواصف السخرية وصيحات الاستنكار، ولتكن من الغرباء المعتصمين بالكتاب والسنة فى مآهات الفتن حتى يجمعنا ربنا مع نبينا ﷺ على الحوض .

(١) سورة هود / من الآية ٢٧ .

المسألة الثامنة: كيف كانت عقوبة الكافرين في الآخرة ؟

الجواب: لما كان الجزاء من جنس العمل، فقد عاقب الله المجرمين الساخرين والمستهزئين من المؤمنين في الدنيا بأن أدخلهم النار، وأدخل المؤمنين الجنة، جالسين على الآرائك، متكئين فيها، ينظرون إلى الكفار وهم في النار يُعذبون، فيضحكون منهم، ويتذكرون نعمة الله عليهم وانتقامه لهم .

قال الله ﷻ: ﴿هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾، قال السعدى - رحمه الله - : (أي: هل جوزوا من جنس عملهم ؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال، نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم)^(١) .

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ٩١٦/١ - ٩١٧ .

﴿سورة الانفطار﴾

وفيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: ما علامات القيامة التي ذكرتها السورة الكريمة ؟

الجواب: ذكرت السورة في افتتاحها أربعة أشراف لقيام الساعة وبدء القيامة، اثنتين منه علوية، واثنتين سفلية فأما العلوية فهما: الأولى والثانية، وأما السفلية فهما: الثالثة والرابعة ...

فالأولى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١)﴾ والانفطار هو الانشقاق؛ ولكن هل

بينهما فرق من حيث المعنى ؟

أغلب المفسرين على أنهما بمعنى واحد، فالانشقاق فُسر بالانفطار وكذا الانفطار بالانشقاق؛ فانفطرت أى انشقت، وهذا ما اختاره ابن جرير، وابن عاشور، وغيرهم من المفسرين، قال ابن عاشور: (والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضاً في سورة الانشقاق؛ وهو حدث يكون قبل يوم البعث، وأنه من أشراف الساعة، لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب وحركة الأرض؛ وذلك يقتضيه قرنه بانتثار الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور)^(١)، بيد أن البعض يوجد بينهما فرقاً دقيقاً ، فقد قال الراغب في "مفردات القرآن" في مادة فطر: (أصل الفطر: الشق طويلاً)^(٢)، ومعنى كلامه: أن بين الفطر والشق عموماً وخصوصاً مطلقاً: فكل فطر شقٌ، وليس كل شق فطراً، لأن الفطر هو الشق الذي يكون بالطول، والشق يكون على أي جهة، وقيل إن الانفطار يقع أولاً في السماء ثم يتبعه الانشقاق، ويُستدل على ذلك بتقديم سورة الانفطار في ترتيب المصحف على سورة الانشقاق. والله أعلى وأعلم ...

والثانية: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢)﴾: وهذا مترتب على انفطار

(١) التحرير والتنوير ، ٣٠ / ١٥١ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، ٢ / ١٩٨ .

السماء وما يحدث فيها من شقوق وتصدعات؛ فتنثثر الكواكب أى: تسقط متفرقة؛ لأن الانتثار هو السقوط مع التفرق .

أما الثالثة: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: (فَجَّرَ الله بعضها فى بعض)^(١) فإذا فُجِّرَتْ اختلطت فتداخل المالح مع العذب، وزالت تلك الحدود والحواجز بينها، قال الفخر الرازى: (ينفذ بعض البحار فى البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً، وحينئذ يصير الكل بحراً واحداً، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها)^(٢) .

والرابعة: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ أى أثيرت وقُلِبَ أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها، فتخرج أثقالها بسبب هذه البعثرة، وأثقالها: إما الأموات تخرج من قبورها، وإما الكنوز تخرج من بطونها، وذلك لأن من أشرط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى. قال الفخر الرازى فى ترتيب هذه العلامات هذا الترتيب المتقن الدقيق: (فائدة هذا الترتيب واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف، والسماء كالسقف والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف وذلك هو قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ (١)﴾ ثم يلزم من تخريب السماء انتشار الكواكب وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أُنْتَثَرَتْ (٢)﴾ ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض وهو قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)﴾ ثم إنه ﷻ يخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهراً لبطن وبطناً لظهر)^(٣) .

المسألة الثانية: ما الوقفة الإيمانية فى قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الْإِنْسُ مَا

غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيم (٦)﴾؟

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٥٨٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٧١ .

(٣) المرجع السابق ٣١ / ٧١ .

الجواب: هذه الآية لها وقع شديد فى نفس المؤمن اللوامة على وجه الخصوص؛ إذ فيها تذكير للعبد بإحسان الله له ثم عقوب العبد وجرأته على سيده ومولاه، نعم ... ما غرك أيها العبد الفقير الضعيف بربك وسيدك الغنى القدير، أتعصيه وهو القادر عليك ؟ أتستتر بالمعاصى وهو معك أينما كنت ؟ أتحارب شريعته وتهاجم ملته ورزقك وحياتك وأنفاسك بين يديه ؟ سل نفسك: ما غرك ؟ حلمه عليك وأنت تُعاديهِ ؟ ستره لك وأنت تجاهر بمعاصيه ؟ رزقه إياك وأنت تضيع الصلاة تلو الصلاة ... ما غرك أيها الضعيف مع قوته ؟ ما غرك أيها الفقير مع غناه ؟ ما غرك أيها البعيد مع قربهِ ؟

ولما قيل للفضيل بن عياض: "لو أقامك الله يوم القيامة فقال: ما غرك بربك الكريم ماذا كنت تقول ؟ قال: "أقول غرنى ستورك المرحاة " ، وقال يحيى بن معاذ : "لو أقامني بين يديه فقال ما غرك بي ؟ فأقول: غرنى بك برُّك بي سالفاً وأنفاً، وقال أبو بكر الوراق "لو قال لي: ما غرك بربك الكريم، لقلت: "غرنى كرم الكريم" .

ومن أجمل ما قرأت فى هذه الآية قول بعضهم: "إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه يلقنعبده الإجابة حتى يقول :غرنى كرم الكريم". فيا أكرم الأكرمين ما أوسع رحمتك وأكرم سترك وأجمل عفوك، وأنت أهل البر والإحسان فالخير فيك مأمول والجد منك موصول ... اللهم كما سترتنا فى الدنيا بجميل عفوك مع قبح معاصينا؛ فاسترنا يوم العرض عليك فإن الكريم إذا ستر لا يفضح، والجواد إذا منح لا يقطع .

المسألة الثالثة: امتن الله ﷻ على الإنسان فى خلقته ... فما وجه المنة

فى ذلك ؟

والجواب: إن الله ﷻ قد هيا الإنسان فى خلقته ليكون خليفته فى هذا الكون، وسيداً لسائر المخلوقات على ظهر الأرض، فخلقه فى أحسن

طريقة وأعدل هيئة، فكل الحيوانات منكوسة الوجه لأسفل، وتمشى على أربعة أرجل، أما الإنسان فقد أكرمه الله ﷻ بحسن الخلقة واستواء القامة والسير باعتدال، (وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية)^(١).

(١) تفسير السراج المنير ٣٦٢/٤ .

﴿سورة التكوير﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما علامات الساعة التي بدأت بها السورة الكريمة ؟
الجواب: ذكرت سورة التكوير اثنتى عشرة علامة من علامات الساعة ست منها فى الدنيا وهى الست الأول، وست فى الآخرة وهى الست الآخر... وتفصيل هذه العلامات كما يلى :

الأولى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾: وقد تعددت أقوال المفسرين فى بيان معنى التكوير على أقوال عدة بلغت قرابة عشرة أقوال، فمنها : لف بعضها على بعض فانطمس نورها، وقيل: ألقيت فى البحر، وقيل: دخلت فى العرش، وقيل: اضمحلت، وقيل: نكست، وقيل غير ذلك، لكن الملاحظ أن كل هذه الأقوال تدور حول انتهاء دور الشمس ودخول الاختلال على نظامها الدقيق، قال الشنقيطى: (والذي يشهد له القرآن أن هذا كله راجع إلى تغير حالها فى آخر أمرها، لأن الله تعالى جعل لها أجلاً مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها) (١).

ولعل أقرب الأقوال المنقولة فى ذلك هو القول بأن تكوير الشمس بمعنى نكست أي رُدَّتْ إلى حيث أتت ، كما هو معروف من طلوعها من مغربها إذا كانت الساعة، وعليه فتجتمع مع القمر.

الثانية: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)﴾ أى تساقطت على الأرض وذهب نورها، قال البغوى: (قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع) (٢).

الثالثة: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)﴾ أى تحركت من أماكنها، وزحزحت عن مواضعها، فصارت كأنها السحاب فى السير.

(١) أضواء البيان ٨ / ٤٣٧ .
(٢) معالم التنزيل ، ٨ / ٣٤٦ .

الرابعة : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)﴾ العشار هي النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر، (جمع عشاء مثل نساء ، وهي أحب أموال العرب إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن الوبر)^(١) وأما تعطيلها فهو إهمالها وعدم الاهتمام بها والإقبال عليها، وإنما خصت النوق العشار بالذكر لأنها كانت من أنفس أموال العرب، فإذا انشغل أصحابها عنها وأهملوها مع كرامتها عليهم دل هذا على عظم الأمر الذى نزل بهم فأشغلهم عن نفائس ممتلكاتهم وكرائم أموالهم .

الخامسة : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)﴾ الوحش هو غير المستأنس من الدواب، وحشره أى جمعبين يدي الملك الجليل يوم الدين، وإذا جُمعت الوحوش وهى غير مكلفة فكيف يُغفل عن الإنس والجن المكلفين، ثم إن حشر الوحش لإحقاق العدل فيها ورد المظالم بينها دليل على العدل الربانى، فالشاة الجلاء من غير قرون تأخذ حقها من الشاة القراء التي اعتدت عليها استضعافاً لها، حتى يسأل العصفور قاتله لم قتلتنى ؟ فما بالك بالإنسان الذى يستحل دماء إخوانه وينتهك أعراضهم ولا يعتبر بالوقوف بين يدي الملك الحق .

كما أن جمع الوحش مع الإنس فى أرض المحشر فيه إشارة إلى أهوال يوم القيامة التي تشغل الناس والوحش مع ما بينهم من عداوة طبيعية أدت إلى أن يأكل بعضهم بعضاً فى الدنيا، لكنهم فى أرض المحشر يقفون متجاورين قد نزل بهم من الخطب العظيم، والخطر الجليل ما يشغل كل نفس عما حوله ... والله تعالى المستعان .

السادسة : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)﴾ قيل فى تسجيل البحار أقوال منها: إن التسجيل هو الاشتعال بالنار، فالبهار تشتعل ناراً، فإذا كانت البحار فى الدنيا مصدراً للماء فستتحول يوم القيامة مصدراً للنيران، وقيل

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٣٣٧/٨ .

التسجير هو التفجير، فالبحار ستنفجر يوم القيامة وليس بين القولين تعارض، قال البقاعي في الآية: (فُجِّرَ بعضها إلى بعض حتى صارت بحراً واحداً، ومُلِّتْ حتى كان ما فيها أكثر منها، وأُحْمِيتْ حتى كانت كاللتور التهاباً وتسعراً فكانت شراباً لأهل النار وعذاباً عليهم، ولا يكون هذا إلا وقد حصل من الحر ما يذيب الأكباد)^(١)، وقيل: التسجير هو الاختلاط؛ فالبحار يوم القيامة يختلط عذبها بالمالحا، ويمكن الجمع بين كل هذه المعاني بأن البحار إذا انفجرت زال ما بينها من برزخ وحدود فاختلف ماؤها العذب بالمالح ثم سُجِّرَتْ واشتعلت فيها النيران .

السابعة: ﴿وَإِذَا أَلْأَفْئُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾ التزويج معناه الاقتران فالنفوس يوم القيامة ستقترن بأشكالها ومن على ملتها؛ فيُحْشَرُ أهل كل ملة معاً؛ فالفجار سيقترنون ببعضهم، وكذا الأبرار معاً، والمنافقون يحشرون مع بعضهم، وعباد الأوثان يحشرون مع أوثانهم، وعباد القمر يتبعون قمرهم، وعباد الصليب يسيرون وراء صليبانهم، ويُحْشَرُ المرء مع من أحب ... فاللهم إنا نُشْهَدُكَ أنا نحب رسولك ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلى، وسائر أصحاب النبي ﷺ فاحشرونا يارب في زمرة من أحبهم وإن عجزت أعمالنا عن بلوغ غايتهم .

وقيل: بل تزويج النفوس واقترانها في الآخرة إنما يكون بأن يجمع بين كل نفسٍ بشرية وقرينه الجنى الذى كان معه فى الدنيا يزين له المعاصى ويحبب إليه المنكرات، فيُجمَعان معاً ثم يُطْرَحان فى النار .

الثامنة: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ الموءودة هى البنت الصغيرة المقتولة، وكان العرب يدفنون بناتهم وهن أحياء مخافة الوقوع فى الأسر وجلب العار لأهاليهن، وقد سُمِّيت بالموءودة من الوأد وهو الثقل لأنها كانت توضع فى حفرة، ويُرْمى عليها التراب

(١) المرجع السابق ٣٣٧/٨ .

والحجارة حتى يئدها أى يثقل عليها فتموت مختنقة، فالوَاد هو الثقل ومنه قوله ﷺ فى آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ (١) أى لا يثقله حفظهما ولا يعجز ﷺ، فهذه الموعودة ستسأل عن سبب قتلها، ومعلوم أن سؤالها ليس من أجل حسابها فهى لا ذنب لها، وإنما المقصود من سؤالها تقييع وتعنيف وتبكيت من قتلوها من غير ذنب ولا جريرة إلا الاعتراض على رزق الله لهم فى الذرية، ومن العجب أن تجد بعض المسلمين اليوم يكرهون أن يُرزقوا بالبنات؛ وربما نشبت الخلافات والأحزان فى بعض البيوت لأن المرأة لا تلد إلا بناتاً، وهذا فيه من الاعتراض على رزق الله ﷺ ما لا يخفى على عاقل، فضلاً عما فيه من الجهل بما فى القدر من الخير والشر، فما يدرى هذا المعترض على رزق البنات علّ منفعته تكون فى ابنته وهلاكه على يد ولده، ولعل الله ﷺ يودع فى البنت من الخير والرحمة والبركة ما لا يتوافر فى العصبة من الرجال، فهذه فاطمة بنت محمد وهى خيرٌ من ملء الأرض من مثل ابن نوح الكافر، وهى أنثى وهو ذكر لكنه من الكافرين وهى سيدة نساء العالمين.

التاسعة: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)﴾ الصحف هنا هى صحائف أعمال العباد التى تكتبها الملائكة الحفظة فى الدنيا، وتسجّل فيها أعمال العباد من خير وشر، وهى فى الدنيا مطوية مكتومة لا يعلم دخالها إلا علّام الغيوب، فإذا كان يوم الدين نُشِرَتْ هذه الصحف وأُعلنت، وصار المخبوء فيها معلناً، والمستور فيها مكشوفاً، فكم من سوءة أخفاها صاحبها عن أعين البرايا ثم هى يوم العرض مشهودة، وكم من معصية تلبس بها صاحبها فى خفية عن أعين الناس ثم هى يوم الدين منشورة، فمن هول هذا اليوم أنه يوم الحقائق الناصعة من غير تلوّن ولا تزييف ... والمستور من ستره الله بستره الجميل .

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٥٥ .

العاشرة: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١) الكشط هو الإزالة، قال الفراء: (ومعنى "الكشط" رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه، كما يكشط الجلد عن السنام)^(١)، وقال الفراء في (معانى القرآن):
 ("كُشِطَتْ": أى نُزِعَتْ فطويت)^(٢)، وهذا مصداق قوله ﷺ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾^(٣) .

الحادية عشرة: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (١٢) أى أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إيمانها، يقال: سعرت النار وأسعرتها، وقراءة العامة بالتخفيف من السعير، وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة، قال قتادة: "سَعَّرَهَا غضب الله وخطايا بني آدم"^(٤)، وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة"^(٥)، وروي موقوفاً.

قال الفخر الرازى: (واحتج بهذه الآية من قال النار غير مخلوقة الآن؛ قالوا لأنها تدل على أن تسعيرها معلق بيوم القيامة)^(٦)، وليس فى الآية دليل على قولهم لأن التسعير بالتشديد هو الإيقاد عليها مرة بعد مرة، والمراد أنها موجودة ومخلوقة ومشتعلة الآن؛ لكنها يوم القيامة تُسَعَّر وتُحْمَى زيادة على ما كانت عليه .

الثانية عشرة: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (١٣) أى أُدْنِيَتْ وَقُرِّبَتْ للمتقين وذلك لعظيم مكانتهم عند خالقهم، وقيل: ليست هى التى تُدْنَى، وإنما يُقَرَّبُ إليها المتقون، وعند القرطبي: (قال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها)^(٧)، وقد أحسن الفخر الرازى حين قال معقباً على

(١) معالم التنزيل ٨ / ٣٤٨ .
 (٢) معانى القرآن للفراء ٣ / ٢٤١ .
 (٣) سورة الأنبياء / من الآية ١٠٤ .
 (٤) الكشف والبيان ، ١٠ / ١٤٠ .
 (٥) الجامع الصحيح سنن الترمذى ، ٤ / ٧١٠ ، ورقمه ٢٥٩١ .
 (٦) مفاتيح الغيب ٣١ / ٦٥ .
 (٧) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٣٥ .

قوله ﷺ: «وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)»^(١) حيث قال: (الجنة لا تُزَال ولا تُتَقَل ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب، فإن قيل فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله: «وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ»، نقول إكراماً للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يُمشي إليه ويُدني منه)^(٢) .

وقيل: إن القرب هنا ليس قرباً مكانياً، بل هو قرب حصول دخول المؤمنين فيها، فقد اقترب أوان الجائزة، ودنا موعد الثواب الذي طالما اشتاقت إليه أرواح المؤمنين في الدنيا، فحرموا أنفسهم من اللذات، وهجروا الشهوات انتظاراً لهذه اللحظة - لحظة أن يطأوا بأقدامهم أرض الجنة - وعندها ينتهى التعب لتبدأ الراحة الأبدية .

المسألة الثانية: بم أقسم ربنا في هذه السورة المباركة؟ وعلام أقسم؟

الجواب: قال الله ﷻ: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ □ (١٩)» فأقسم ربنا بالخنس وبالليل وبالصبح على أن هذا الكلام قول رسول كريم .

قال ﷻ: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُسِ (١٦)» وهذا قسم من الله ﷻ بالنجوم، وقد وصفها بثلاث صفات، فهي خنس، جوار، كنس، فأما الخنس فهذه صفة لها من الخنس وهو الرجوع والتقهر ومنه سُمي الشيطان خناساً، لأن المرء إذا استعاذ منه بالله ﷻ خنس أى رجع في وسوسته وتقهر عن قلب الإنسان، فالنجوم تخنس أى تختفى عن الأعين بالنهار قبل أن تظهر بالليل، وهى جوار من الجرى أى تجرى فى أفلاكها

(١) سورة ق / الآية ٣١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٥٠ .

من غير توقف، ثم هي كنس أى تغيب وتستتر في بيوتها، وهي مأخوذة من دخول الأطباء أكناسها أى بيوتها وهي الكناس أى أغصان الأشجار. ثم أقسم ربنا فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (١٧) قيل: أقسم ربنا بالليل إذا أدبر، وقيل: بل هو الليل إذا أقبل، فلفظ عسعس من المشترك اللفظي ويعرفه أهل اللغة بأنه: "هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة"، فعسعس يحمل اللفظ وضده فى وقت واحد، وهو بمعنى الإقبال والإدبار، قال المبرد: (هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في وله، وإدباره في آخره) (١).

وفى القسم الثالث قال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٨) أى الصبح إذا انتشر ضوؤه ، ومعنى التنفس خروج النفس من الجوف، وتنفس الصبح أى هب نسيمه اللطيف وفى الآية مجاز على قولين:

(الأول: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز، فقيل: تنفس الصبح، الثاني: أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي خنس بحيث لا يتحرك ، فإذا تنفس وجد راحة، فها هنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس) (٢) هذا ما أقسم به ربنا فأما ما أقسم عليه فهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ □ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ □ (٢٠) مُطَاعٍ □ ثُمَّ أَمِينٍ □ (٢١)﴾.

والرسول الكريم هنا ليس هو الرسول ﷺ بل هو أمين الوحي جبريل، على قول جمهور المفسرين فقد أقسم الله ﷻ على أن القرآن الكريم أوحى به جبريل للنبي، ولا يعنى أنه ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ □ (١٩)﴾ أن هذا القرآن كلام جبريل، بدليل قوله: ﴿رَسُولٍ □﴾ أى مرسل من غيره، (فبين

(١) الباب فى علوم الكتاب لأبى حفص عمر بن على بن عادل الدمشقى، ١٨٧/٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
(٢) المرجع السابق، ١٨٧/٢٠.

بوصف الرسالة أنه ليس بقوله إلا لكونه مرسلاً به ومبلغاً له ، وأنه في الحقيقة قول من أرسله ، وصفه بما أفهمه الوصف مما يوجب حفظه من غير تحريف ما ولا تغيير أصلاً بوجه من الوجوه (١)

ثم بينت الآيات كرامة هذا الملك الأمين ومكانته عند ربه فوصفته بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي قوى شديد القوة، وقد بلغ من قوته أنه رفع قرى قوم لوط إلى السماء بريشة من جناحه، ثم كفأها، قال الله ﷻ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ (٥٣) (٢)، وأنه عظيم الخلقة إذا ظهر بصورته الحقيقية سد ما بين المشرق والمغرب، وقد أخبر رسولنا ﷺ أنه رآه وله ستمائة جناح، ومن المفسرين من وسّع مدلول القوة فجعلها قوة الخلقة، وقوة أداء طاعة الله ﷻ، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وعلى القوة في معرفة الله ﷻ وفي مطالعة جلال الله ﷻ، وهذا هو الأولى .

ثم استكملت الآية وصفها لجبريل بأنه ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) أي لجبريل مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة، ثم هو مطاع عند الملائكة، فهو رئيسهم والمقدم فيهم قال الله ﷻ: ﴿مُطَاعٌ﴾ ثُمَّ آمِينَ □ (٢١) فهو مسموع القول ذو وجهة في المأ الأعلى، ﴿ثُمَّ﴾ وثم هنا تعنى: هناك أي في المأ الأعلى عند الملائكة، فجبريل مطاع هناك في المأ الأعلى، قال أبو الليث السمرقندي: (ويقال: ﴿مُطَاعٌ﴾ يعني طاعته على أهل السموات واجبة كطاعة محمد ﷺ على أهل الأرض) (٣)، ﴿آمِينَ﴾ وهو أمين على ما أرسله الله ﷻ به من الوحي لا يغير ولا يخون ولا يبدل، لا كما يقول بعض فرق الشيعة: إنه خان الرسالة، فنزل بها على محمد ﷺ وكان الأصل أن تكون لعلى بن أبي طالب، تعالى الله عما يقولون ويحرفون علواً كبيراً .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/ ٣٤٢ .

(٢) سورة النجم / الآية ٥٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

المسألة الثالثة: بم وصفت السورة الرسول ﷺ ؟

الجواب: قال الله ﷻ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾، وصاحبهم هو رسول الله ﷺ وقد وصفته الآية بأنه صاحبهم أى ليس غريباً عنهم، بل هو منهم، لازمهم أربعين سنة حتى نزلت عليه الرسالة، فهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه وأمانته فكيف يثنون على أخلاقه ثم يصفونه بأبشع الصفات ويرمونهم بالسحر والكهانة والكذب؟ فنفت الآية عنه ما رماه به المشركون من جنون، ثم أثبتت له الآية أنه ﷺ قد رأى جبريل الذى يأتيه بالرسالة على هيئته الحقيقية التى خلقه الله عليها وله ستمائة جناح كما ثبت فى الصحيح، (وقد أثبتت هذه الآية رؤية الرسول ﷺ لجبريل - عليه السلام - مرة، مع أنه قد ثبت أنه رآه على هيئته الحقيقية مرتين، وذلك لأن المرة الثانية كانت فى رحلة الإسراء والمعراج، والظاهر - والله أعلم - أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ لَأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَا وَهِيَ الْوَلَى، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ فَتِلْكَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ النَّجْمِ وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (١).

وهذه الرؤية كانت بلا شك ولا تخيل ولا غموض، بل هى رؤية واضحة، وصفتها الآية بقول الله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ وهذا دليل على وضوح هذه الرؤية وعدم تلبسها بشئ، فقد كانت بالأفق، وقيل: إن الأفق هو مطلع الشمس، ولذا فهو مبين، أى: واضح ظاهر؛ لما فى هذا التوقيت من النور والضياء الذى يزيل ظلمة الليل وتتضح فيه رؤية الأشياء .

(١) بحر العلوم ٣ / ٥٣٠، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى، دار الفكر، بيروت .

ثم وصفته بأنه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينَ (٢٤)﴾ أى وما رسول الله ﷺ بضنين على الغيب، ومعنى ضنين: أى بخيل، وقرأ ابن مسعود "بظنين" بالطاء، وهكذا قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: "بظنين" يعني بمتهم، والباقون بالضاد يعني البخيل، ويكون المعنى فى القراءتين أن الرسول ﷺ ليس ببخيل بما أوحى به الله إليه، بل يبلغه كله للناس، ولا يكتُم منه شيئاً، أما على المعنى الثانى للضنين وهو المتهم، فإن الرسول ﷺ مؤتمن وليس بمتهم لا عند الله ولا عند الناس، بل هو الصادق الأمين، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينَ (٢٤)﴾ أى: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أى: بمتهم.

ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أى: ببخيل، بل يبذله لكل أحد، قال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أرادَه (١).

المسألة الرابعة: ما المراد بالمشيئة هنا فى قوله ﷻ: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾؟ وهل يصح الاستدلال بالآيتين على أن الإنسان مُجَبَّرٌ مُسَيَّرٌ، وليس مُخَيَّرٌ؟

الجواب: مثل هذه الآيات التى تحدثت عن المشيئة تحتاج إلى حذر عند التناول والتفسير، فبسبب الفهم الخاطئ لمثل هذه الآيات فى القرآن الكريم زلت كثير من الأقدام وحارت فيها عقول وأفهام، وانحرفت بسبب الخطأ فى فهمها فرق وأحزاب، فخرجت الجبرية الجهمية التى ترى أن الإنسان مُسَيَّرٌ فى مشيئته مُجَبَّرٌ على أفعاله، وظهرت المعتزلة القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله، وكلا المذهبين منحرف عن جادة الاعتقاد السليم والدين القويم .

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

فأهل السنة والجماعة يفرقون بين نوعين من المشيئة: مشيئة العبد، ومشيئة الرب، فيثبتون أن للعبد مشيئة لا كما ينفىها الجبرية، ودليل مشيئة العبد قوله ﷺ: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)» فأثبت للعبد مشيئة وفعلاً، لكن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الرب، وهذا رد على المعتزلة القدرية فيكون المعنى: لولا أن الله ﷻ شاء أن تكون للعبد مشيئة ما كانت، ولو شاء العبد شيئاً لم يشأه الله لن يحدث، لأن ملك الله لا يكون فيه إلا ما يشأه ﷻ، وعلى هذا فلا تنافي بين إثبات المشيئتين، لأن مشيئة الله شاملة لمشيئة العبد. والدليل على ذلك، أن العبد إذا شاء الرب لم يشأ، لم تقع مشيئة العبد، لقوله تعالى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩» لكن يجب عدم إنكار أن العبد له مشيئة حقيقية، فليس مضطراً ولا مكرهاً ولا مجبوراً على أفعاله الاختيارية بل يفعل ما يريد ويترك ما يريد بمحض اختياره وسبق إصراره، وهذا أمر يعلمه كل عاقل ويفرق بين أعماله الاضطرارية، وأعماله الاختيارية، وفي ذلك دليل على كمال عدل الله وعلمه؛ لأن إثبات مشيئة الله العامة تدل على إثبات علمه لوقوع الأشياء وفق معلومه، وكونه سبحانه أعطى العبد مشيئة وفعلاً واختياراً رتب عليه الثواب والعقاب، يدل على كمال عدله. والله أعلم.

وأنقل هنا كلاماً قيماً قاله د. محمد راتب النابلسي في محاضرة له في هذا الباب: (الحقيقة أن مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻ مشيئة فحص واختبار، الإنسان يختار، لكن الله ﷻ يتفحص اختياره، فإن كان صادقاً في اختياره، ودفع ثمن اختياره، يشاء الله له ما شاء من طلب للخير، لئلا نقع في سوء فهم لهذه الآية، ولئلا نفهمها فهماً جبرياً ما أراده الله.. «إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)»^(١).

(١) سورة الإنسان/ الآيتان ٢٩ - ٣٠ .

تماماً كما لو قدّم طالبٌ طلباً يختار في طلبه كلية الطب، إدارة الجامعة تفحصت الطلب، مجموعه قليل، ترفض هذا الطلب، مجموعة مناسب، تقبل هذا الطلب، مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻ مشيئة فحص واختبار، فمن كان صادقاً في اختياره ودفع ثمن اختياره، فالله ﷻ يحقق له مراده في دخول الجنة.

وهناك وقفة دقيقة في هذه الآية: فلهذه الآية معنى آخر وهو: أنه لولا أن مشيئة الله شاعت أن تشاءوا لما شئتم، أنت الآن مخير، وهذا الاختيار سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، هذه المشيئة التي تتمتع بها أيها الإنسان، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، لما كنت ذا مشيئة.. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾.

سورة «عبس»

وفيها ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: ما سبب نزول هذه السورة الكريمة ؟ وما دلالة هذا السبب ؟

الجواب: بداية هذه السورة الكريمة نزلت - عند جمهور المفسرين - في إعراض الرسول ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم ﷺ قال الواحدى: (هو ابن أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، وعباس بن عبد المطلب، وأبياً وأمياً ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي"^(١)، وهذا السبب مُجمَع عليه من قِبَل المفسرين .

لكن الأهم من ذلك هو دلالة هذا السبب وما يُستفاد منه، فمن ذلك:

- الدلالة على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله وليس من عند الرسول ﷺ، إذ لا يُعقل أن يكون هذا القرآن من عند محمد فيأتي فيه بهذا الموقف ويُعاتب نفسه بنفسه، ويُعلن ذلك للناس.
- الدلالة على أمانة الرسول ﷺ في تبليغ هذا القرآن للناس، وعدم كتمان أى حرف منه، ولو كتم الرسول ﷺ منه شيئاً ولم يبلغه للناس - كما يدعى الشيعة الروافض الجهلاء - لأخفى عن الناس مثل هذه الآيات التى فيها عتاب له ﷺ.

(١) أسباب النزول للواحدى ، ص ٢٩٧ .

- أن الرسول ﷺ بشر يجوز في حقه كل الصفات البشرية التي لا تقتضي نقصاً، وقد عبس في وجه الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حين جاءه يسترشد، مقدماً غيره عليه ظناً منه أن في ذلك مصلحة للدعوة، فلما خالف الأولى عاتبه القرآن على ذلك .
- أن الإسلام أول من وضع وراعى حقوق هذه الطائفة التي يسميها العالم الغربي اليوم " ذوى الاحتياجات الخاصة"، وقد سبق الإسلام غيره لتقرير وإثبات هذه الحقوق لها، حتى أن القرآن الكريم يدل على ذلك بدلالة لطيفة ألا وهى عتاب الرسول ﷺ لأنه عبس في وجه أعمى، الأصل أنه لن يرى هذا العبوس ولن يلاحظه إلا إذا كان مبصراً، لكن حتى هذا الأمر الذى لن يراه الأعمى طلب الإسلام مراعاته، فما بالك بمن يؤذى صاحب الإعاقة بكلمة جارحة أو تعليق ساخر أو شماتة مهينة أو انتقاص مزرٍ، فليس هذا من خلق الإسلام فى شئ .
- وإذا عاتب القرآن نبيه ﷺ لعبوسه فى وجه أعمى لن يراه، فإن كراهة العبوس والإعراض عن المبصر ستكون أشد، وفى ذلك درس لنا جميعاً فى التخلق بجميل الأخلاق، وطيب المقابلة، والحرص على التبسم فى وجوه إخواننا من المؤمنين خاصة عند المقابلة، والبشاشة عند المصافحة، والترحيب عند الزيارة، وكل هذا من حق المسلم على أخيه المسلم ومن بواعث الألفة وعوامل المحبة فى المجتمع الإسلامى، كما دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ.
- وإن قال قائل كيف نجمع بين عبوس الرسول ﷺ فى وجه هذا الأعمى وبين مدح القرآن الكريم للرسول ﷺ بعظيم الخلق فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) (١)، فيُجاب على ذلك:

(١) سورة القلم / الآية ٤ .

بأن الرسول ما أعرض عن الأعمى لكونه أعمى؛ بل فعل ذلك لما ظنه من مصلحة الدعوة طمعاً منه في إسلام كبراء قريش علَّ الله أن يفتح بإسلامهم قلوب أتباعهم، ثم إنه من عظيم خلقه لم يأت بفعل يجرح فيه كرامة هذا السائل الأعمى؛ فلم يكلمه بكلمة تؤذيه، أو يوبخه ويعنفه بشئ يكرهه، بل غاية ما فعل ﷺ أنه عبس بوجهه وقطَّب جبينه، وهي حركة مرئية لا مسموعة، والحال: أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة، ولن يُضار منها لأن العبوس لا يراه إلا المبصرون فكأنهم يلق إساءة منه؛ وبالرغم من ذلك فقد عوتب ﷺ من باب التسامي بأخلاقه إلى أعلى غاية وأقصى مدى، إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه .

المسألة الثانية: ما الحكمة من ذكر الآية لوصف يكرهه الناس؟ ألا

يدخل هذا في باب التنايز بالألقاب؟

الجواب: إن ذكر الآية للفظ الأعمى لا يدخل في باب التنايز بالألقاب، وذلك لأن ذكره في هذا السياق ليس من أجل التتقص والاستهزاء بهذا الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم بل ورد ذكره لحكم، منها :

- بيان عذره وعدم تعمد مقاطعة الرسول وصرفه عما هو فيه من دعوة أشراف قومه، لأنه أعمى لم ير انشغال الرسول بما هو فيه، ولو رآه لربما انتظر حتى يفرغ .

- التأكيد على حسن خلقه ﷺ فهو لم يزجر الرجل أو يدفعه عنه بسوء القول وعنيف الفعل، بل اكتفى بأن عبس بوجهه بحيث لا يراه هذا الأعمى فلا يؤذيه هذا الفعل من الرسول ﷺ.

- ولعل ذكر هذا الوصف فيه من التهكم والتعريض بسادة قريش أصحاب الأعين المبصرة والقلوب التي أصابها العمى، فصدوا عن سبيل الهدى ولم يروه، بينما رأى هذا الرجل أعمى البصر

مبصر القلب نور الهدى وطريق الحق فجاء مسرعاً متلهفاً يطلب
من الرسول أن يدلّه على طريق الحق، فما أعظمها من مفارقة
بين مبصر العين أعمى القلب، وأعمى العين مبصر القلب .

المسألة الثالثة: كيف عقدت الآيات مقارنة بين فريقى الضلالة

والهداية ؟

الجواب: أوضحت الآيات الفارق الكبير بين من أعرض واستغنى عن
الهداية وبين من يسعى ويحرص عليها، فقال الله ﷻ واصفاً الفريق الأول:
﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧)﴾ أى يا
محمد أنت تتصدى وتعرض لمن استغنى عن الإيمان بسبب جاهه وماله
وبنيه وتأمل أن يهديه الله ﷻ فتقبل عليه وهو مستغن عنك معرض عنك،
ولا حرج عليك ولا إثم إذا لم يؤمن بك، فدورك هو الإبلاغ والهداية بيد
الله ﷻ .

أما هذا الباحث عن الحقيقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى
(٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ فهو على نقیض الصنف الأول، فقد جاء
يسعى إليك مجتهداً طالباً الهداية والرشاد، وهو خائف وجلّ من الله ﷻ،
فإذا بك تعرض عنه وتتصرف إلى غيره، ﴿كَلَّا﴾ أى ليس الأمر كذلك، وما
كان ينبغى أن يحدث ذلك منك فى حق هذا السائل الحريص على الهداية .

المسألة الرابعة: ما الصحف التى تحدثت عنها الآيات ؟

الجواب: قال الله ﷻ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ
(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ وقد اختلف العلماء فى المراد
من هذه الصحف على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن المراد بها صحف اللوح المحفوظ، وعلى هذا فتأتى
الصفات بعدها تابعة لهذا المعنى، فهى صحف مرفوعة عالية، قال
الشوكانى: (إنها رفيعة القدر عند الله، وقيل مرفوعة فى السماء السابعة)^(١)

(١) فتح القدير ٥ / ٥٤٠ .

مطهرة لأنها فى المأ الأعلى لا يمسها إلا الملائكة المطهرون، وهم
السفرة أى (الكتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ، قال
الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ﷻ ورسوله،
من السفارة وهو السعي بين القوم وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومي * ولا أمشي بغير أب نسيب^(١)**
فوصفتهم الآيات بأنهم سفرة؛ أى جعلهم الله ﷻ سفراء بينهم وبين
رسله .

ثم أكملت الآيات وصف هؤلاء الملائكة الأطهار؛ فهم كرام أى: كرام
عند ربهم بترك المعاصى، والمداومة على الطاعة، وبررة جمع بار أى:
أتقياء مطيعون صادقون فى إيمانهم .

أما القول الثانى: فى تفسير الصحف المكرمة فهى كتب الرسل
السابقين التى أوحى الله بها إليهم، كصحف إبراهيم والزيور والتوراة
والإنجيل، وتكون هذه الأوصاف هى أوصاف هذه الكتب، وفيها تذكرة
أى: أن هذه الكتب قد جاء فى أصولها مثل ما جاء فى القرآن من دعوة
للتوحيد والأخلاق .

والقول الثالث: إن الصحف المطهرة هى القرآن الكريم وفى الآية
إشارة إلى أن القرآن سيتم جمعه فى صحف مكتوبة، وكتابة القرآن فى
الصحف وإن وجدت فى حياة الرسول ﷺ إلا أنها كانت مفرقة غير
مجموعة، ثم تم جمع القرآن الكريم كاملاً فى مصحف واحد فى عهد
ال خليفة الراشد الصديق أبى بكر ؓ فالقرآن مجموع فى صحف مكرمة،
لأنها نزلت من كريم، وكرامة الكتاب من كرامة صاحبه، ألا ترى بلقيس
وقد وصفت رسالة سليمان لها بأنها كتاب كريم، مرفوعة عن العبث
والتحريف، مرفوعة القدر عند الله ثم عند الناس، مطهرة فلا يمسها إلا
المطهرون ويحرم مسها على الحائض والجنب والنفساء، ثم امتدحت

(١) المرجع السابق ٥ / ٥٤٠ .

الآيات كتاب الوحي وحفاظه وقراءه فهم السفرة (قال أبو عبيدة: سفرة: كتابة، واحد هم سافر وهي لغة كنانة) ^(١)، وقيل: هم أصحاب الرسول ﷺ، قال ابن العربي المالكي في الأحكام: (لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة، كراماً بررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في تناولها غيرهم) ^(٢).

المسألة الخامسة: ما المعنى المراد من القتل في قوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾؟

الجواب: ذكرنا من قبل أن لفظ (القتل) كثيراً ما يأتي في القرآن الكريم بمعنى اللعن، وقد ورد هذا في أكثر من موضع، كما سبق ذكره في سورة البروج، في قوله ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)﴾ ^(٣)، وفي هذا الموضع فإن الإنسان المقصود هنا ليس جنس الإنسان؛ بل هو الإنسان الكفور، بدليل قوله: ﴿مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾ فالمعنى: لعن الإنسان الكافر، ما أشد كفره، أو ما الذي دفعه للكفر مع أن نعم الله ﷻ عليه ظاهرة لا ينكرها إلا مكابر؟

وعلى هذا... ففي قوله: ﴿مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾ معنيان :

الأول: أن يكون الأسلوب أسلوباً بلاغياً يدل على شدة كفر الإنسان وعناده مع شدة ضعفه وعجزه، كما تقول ما أحلى طعم العسل، أو ما أشد سواد الليل، أو نحو ذلك مما يُعرف عند أهل البلاغة بأسلوب التعجب

أما المعنى الثاني: فيكون أسلوب استفهام، أي ما الذي جعل هذا الإنسان مع إحسان الله ﷻ له يكفر بخالقه المتفضل عليه بالإنعام؟، ونظيره قوله تعالى ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ ^(٤).

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٤٤٩ .

(٢) أحكام القرآن ٨ / ٣٢ .

(٣) سورة البروج / الآية ٤ .

(٤) سورة الانفطار / الآية ٦ .

وفى الآية استتعار بحلم الله ﷻ على عباده - خاصة الكافرين منهم - فمع أنهم يستحقون اللعن والطرده من رحمة الله؛ إلا أن الله ﷻ حلّهم بهم يمهّلهم ولا يعجل لهم العقوبة، وفى الحديث: (ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم) (١).

المسألة السادسة: ما العلاقة بين قوله: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧)، وبين: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨)؟

الجواب: المتأمل لترتيب هاتين الآيتين يجد العلاقة بينهما واضحة، فالثانية تذكير لهذا الإنسان المتعطرس بقوته المفتون بسلطانه بأصل خلقته، ومراحل نموه، وضعفه وعجزه، فهو يتقلب فى رحمة خالقه، ويعيش فى إحسانه منذ اللحظة الأولى من نشأته، فإذا خرج إلى هذه الدنيا واشتد ساعده قابل النعمة بالجحود، والعطاء بالإنكار فكفر بربه وقد خلقه .

المسألة السابعة: ما معنى التقدير فى قوله: ﴿مِنْ نُّطْقَةٍ خَلَقَهُ﴾ فَقَدَرَهُ (١٩)؟

الجواب: أصل التقدير الضبط والإتقان ووضع الشئ فى موضعه، وهذا ملحوظ من أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان حتى المحطة الأخيرة من حياته، فالله ﷻ قدّر مراحل خلق الإنسان وتطور نموه من نطفة، فعلاقة فمضغة، ثم يبدأ تكوين العظام، ثم تُكسى العظام، لحماً، ثم يولد، ويكون طفلاً، ففتى، فشاباً، ثم كهلاً، فشيخاً فهرماً، وكلها مراحل يسلم بعضها بعضاً فى غاية السلاسة وتمام الانضباط .

وهناك تقدير آخر معلوم مشاهد فى ضبط أعضاء الإنسان وترتيبها على النحو الذى يُحسّن خلقته ويعينه على معيشتة، ويميزه عن غيره من سائر الوحش والبهائم، كتنسوية العينين فى مكانهما اللائق بهما، وكذا الفم،

(١) صحيح مسلم ٤ / ٢١٦٠، ورقمه (٢٨٠٤)، من حديث عبد الله بن قيس .

والأذنين، واعتدال القامة، وحسن الخلقة، إلى غير ذلك من الأمور المشاهدة التي لو حدث في أي منها خلل لظهر في الإنسان التشويه والنقصان، قال البقاعي: **﴿فَقَدَرَهُ﴾** أي هياؤه لما يصلح من الأعضاء الظاهرة والباطنة والأشكال والأطوار إلى أن صلح لذلك^(١).

المسألة الثامنة: ما المراد من قوله: **﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)؟**

الجواب: للعلماء في المراد من السبيل في الآية السابقة أقوال، منها: أولاً: السبيل هو طريق خروج الإنسان من رحم أمه، فقد يسر الله ﷻ للجنين سبيل الخروج من رحم أمه وهو مروي عن جماعة منهم ابن عباس قال: (خروجه من بطن أمه يسره له)^(٢).

ثانياً: وقيل المراد بالسبيل هو قوله ﷻ: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾** (٣) وهو طريق الخير وطريق الشر، وهو قول مجاهد، ورحجه ابن كثير في تفسيره^(٣).

ثالثاً: أو أن السبيل هنا هو معرفة الإنسان - بما حباه الله ﷻ من عقل - ما ينفعه فيقبل عليه، وما يضره فيبتعد عنه، وهو في ذلك مدفوع إلى منفعه منذ ولادته بفطرته، ثم بعقله وخبراته في مراحل حياته المتتابعة بعد ذلك، وهذا من تيسير الله ﷻ له.

ويمكن الجمع بين كل هذه المعاني فكلها ممكنة إذ لا تعارض بينها، وهو ما يبين اتساع اللفظ القرآني وتعدد معانيه.

أما فيما يتعلق بقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾** (٢١)، فهيمنة عظيمة من الله ﷻ على عباده أن علمهم كيف يقبرون - أي يدفنون - موتاهم، وقد حدث هذا في القصة المعروفة في حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل، ثم ما كان من إرسال الله ﷻ للغراب الذي قتل أخاه فحفر له في الأرض،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢١ / ٢٦١.

(٢) تفسير الطبري ٢٤ / ٢٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٢٢.

وواراه الثرى، وابن آدم ينظر إليه حتى انتهى، فقلده، وحفر قبراً وارى فيه جثمان أخيه المقتول، ولولا هذا لظل الميت مطروحاً على ظاهر الأرض حتى ينتن جسده وتخرج رائحته، لكن إكرام الله ﷻ للإنسان بأن يسر له سبيل دفن الموتى وعلمه ذلك منذ نشأة الخليقة بما يحفظ على الموتى كرامتهم ويبسر سبيل الحياة على ظاهر الأرض للأحياء وفى باطنها مستقر للأموات .

المسألة التاسعة: ما الحكمة من تنوع استعمال الآيات لحرفى العطف
ثم ، والفاء فى الآيات السابقة؟

والجواب : إن استعمال الآيات لحرفى العطف (ثم) التى تفيد التريث تارة، و(الفاء) التى تفيد السرعة تارة أخرى، هو استعمال ينسجم مع المرحلة الزمنية والفترة الوقتية التى تفصل بين كل مرحلة وأخرى . فعند حديث القرآن عن خلق الإنسان من نطفة مخلوقة فقَدَّر لهذه النطفة أقدارها، وما يصلحها على وجه السرعة فجاءت الفاء قال: ﴿فَقَدَرَهُ﴾، ومكث هذا الجنين فى بطن أمه حتى حان موعد خروجه ثم يسر الله تعالى له سبيل الخروج من بطن أمه بعد مكثه فى بطنها تسعة أشهر فجاء بحرف (ثم) ﴿ثُمَّ أَلَسَّيْلَ يَسْرَهُ﴾، لأن الأمر على التراخى، ثم عاش الإنسان عمره الذى قد يطول عشرات السنين لتحين لحظة الرحيل التى عبرت عنها الآيات بحرف (ثم) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ لأن الفترة طويلة بين تيسير الخروج له من بطن أمه حتى موته، لكنه لما مات احتاج إلى سرعة دفنه ومواراة جثمانه، فجاء حرف العطف (الفاء) ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾، ليفيد سرعة هذه المرحلة ما بين موته حتى دفنه فى قبره، ليملك فى قبره ما شاء الله له أن يملك، وفترة المكث فى القبر فترة طويلة فقد يقضى المرء فى قبره الآف السنين، حتى يأتى أمر الله تعالى بالبعث والنشور، فاستعملت الآيات حرف العطف (ثم) ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾، لإفادة البعد ما بين نزول الميت فى قبره حتى خروجه منه للعرض والنشور والحساب، فما أروع هذا الاستعمال وأبلغه ودقته فى موضعه .

المسألة العاشرة: عددت الآيات ثمانية من أنواع نبات الأرض ... فما

هى ؟

الجواب: قال الله ﷻ ممتناً على عباده بعظيم فضله وجزيل نعمائه: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)﴾.

هذه الأصناف الثمانية مما تخرجه الأرض الواحدة التى تُسقى بماء واحد، فيخرج منها الحب، والزيتون، والقضب والنخل، والحدايق، والفاكهة، والأب .

فأما الحَب فهى كلمة شاملة لسائر أنواع الحبوب، قال الزمخشري: (هو كل ما حُصِد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما) ^(١) .

والعنب فاكهة معروفة حلو مذاقها، عظيم فائدتها، والعرب تجففه فيكون زبيباً تدخره لقوتها، قال عنه ابن القيم: (قد ذكر الله سبحانه العنبَ فى ستة مواضع من كتابه فى جملة نعمه التى أنعم بها على عباده فى هذه الدار وفى الجنة، وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع، وهو يؤكل رطباً ويابساً، وأخضرً ويانعاً، وهو فاكهة مع الفواكه، وقوت مع الأقوات، وأدم مع الإدام، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة) ^(٢)، كما عدّه ابن القيم أحد ملوك الفاكهة الثلاثة: (العنب، والرطب، والتين) ^(٣).

والقضب قال ابن قتيبة: (القَضْبُ) القَتُّ، يُقال: سمي بذلك: لأنه يُقَضَبُ مرّة بعد مرة؛ أي يُقَطع ^(٤) والقت كما عرفه بعض المعاصرين بأنه البرسيم، ويمكن حمله على كل المزروعات التى يقطعها المزارع ثم تنمو ثانية، قال الشيخ مساعد الطيار: (وأن حمل تفسير السلف على المثال لا

(١) الكشف ٤ / ٧٠٤ .

(٢) زاد المعاد ٤ / ٣٤٠ .

(٣) انظر المرجع السابق ٤ / ٣٤٠ .

(٤) غريب القرآن ١ / ٥١٤، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

التعيين في هذا الوضع، فإن القضب يطلق على ما يقضب من النبات؛ أي ك يقطع ثم ينمو، ويشمل ذلك أصنافاً كثيرة تشبه العلف في هذا الوصف؛ كالجرجير والكراث والنعناع، وغيرها، والله أعلم^(١).

والزيتون: وهو معروف مشهورة فوائده، ويعصر منه الزيت، والنخل جمع النخلة ومنها يجمع الرطب، والحدائق جمع حديقة، والفرق بين الحديقة والبستان، أن الحديقة تسمى بهذا الاسم إذا كان لها سور، فإن لم يكن لها سور سميت بستاناً، (قال الكلبي: وكل شيء أحيطَ عَلَيْهِ مِنْ نَخِيلٍ أَوْ شَجَرٍ فَهُوَ حَدِيقَةٌ، وَمَا لَمْ يُحِطْ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ)^(٢)، وقد وصفها الله تعالى بالغلب، وفي لغة العرب أن الرجل الأغلب هو غليظ الرقبة، ويُسمى الأسد بالأغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً، فهذه الحدائق أشجارها غليظة الجذوع، ضخمة الأغصان، عالية طوال، والفاكهة ما يتفكه به الإنسان من شتى أنواع الفواكه وثمار الأشجار، وأما الأبُّ فقد اختلف المفسرون في بيانه قال القرطبي: (هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، ما يأكله آدميون هو الحصيد، ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

له دعوة ميمونة ريحها الصبا *** بها ينبت الله الحصيد والأب^(٣))

المسألة الحادية عشرة: لم سُمي يوم القيامة بالصاخة ؟

الجواب: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، (والصخ الضرب بالحديد على الحديد، وبالعصا الصَّلْبَة على شيء مصمت، فيسمع إذ ذاك صوت شديد والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة في سورتها، وهي الطامة الكبرى، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض، ومن ثم سميت صاخة وقارعة)^(٤).

(١) تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سالم الطيار، ص ٥٦، دار ابن الجوزي، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .

(٤) تفسير المراغي ٣٠ / ٤٩ ، أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة .

وقال ابن قتيبة: (صخت تصخ صخاً، أي تصم، ويقال: رجل أصخ وأصلخ؛ إذا كان لا يسمع)^(١)، فهي تدل على الصوت الشديد المرتفع الذي يصخ الأذان، وحكى الفخر الرازي أن المفسرين يرون المقصود بها (صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة) ، لأنها تصخ وتصدم الأذان بشدتها فلا يبقى أحد من الخلائق على كثرتهم إلا ويصل صوتها لأذنيه .

وللصاخة معنى آخر ألا وهو الإنصات والاستماع بتركيز واهتمام وهو وجه ذكره صاحب (الكشاف)، فقال: (يقال صخ لصخه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً، لأن الناس يصخون لها أي: يستمعون)^(٢) وليس بين المعنيين - الصوت الشديد والإنصات - تعارض، إذا إن الخلائق تنصت للصوت المرتفع، فتأتي نفخة القيامة شديدة مرتفعة، عالية مدوية فتتصت لها الأذان، وتخشع لها القلوب، وتقزع لهولها العقول.

المسألة الثانية عشرة: ما الحكمة في ترتيب الآيات لفرار المرء يوم القيامة من أخيه أولاً ثم أمه وأبيه ثم صاحبتة وبنيه ؟

الجواب: جاء ترتيب فرار المرء يوم القيامة بهذا الترتيب من الأخ فالوالدين ثم الزوجة والأولاد للتعبير عما يصيب المرء يوم القيامة من هول يشغله عن كل أحد مهما كانت قرابته في الدنيا وعظيم تعلقه به، وبدأت الآيات بذكر الأقرب فالأكثر قرباً، فالأخ وقد كان عوناً له في الدنيا، ثم يزداد الهلع فيفر من والديه وكان يحرص على خدمتهما ورعايتهما، ثم زوجه وقد كان يبذل نفسه في الدنيا للدفاع عنها، فأولاده وهم فلذات أكباده وقد كان في الدنيا يفديهم بماله وروحه، ولا يغمض له جفن إن مسهم ضرر مهما قل، واليوم يفر من هؤلاء جميعاً لما نزل به من الكرب والهم .

قال شيخ الإسلام في (مجموع الفتاوى) لما سئل عن حكمة ابتداء الآية بفرار المرء من أخيه، ومن عادة العرب أن تبدأ بالأهم؟ فأجاب السائل

(١) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ٧٠٦ .

بقوله: (قلت: إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى، لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائفة، فإنه يُعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب، فقل أولاً: ﴿يَفِرُّ أَلَمَرَّةً مِنْ أَخِيهِ ٣٤﴾ فَعَلِمَ أَنْ ثَمَّ شِدَّةٌ تَوْجِبُ ذَلِكَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ غَيْرِهِ وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَفِرَّ، فَقِيلَ: ﴿وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾ فَعَلِمَ أَنَّ الشِدَّةَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ بَحِيثٍ تَوْجِبُ الْفِرَارَ مِنَ الْأَبَوَيْنِ، ثُمَّ قِيلَ: ﴿وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ فَعَلِمَ أَنَّهَا طَائِفَةٌ بَحِيثٍ تَوْجِبُ الْفِرَارَ (١).

وذهب بعض المفسرين إلى أن فرار المرء من قرابته المذكورة إنما يكون خوفاً منه من مساءلتهم لتقصيره في حقهم قال الزمخشري: (وقيل: يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات، يقول الأخ: لم تواسني بمالك، والأبوان: قصرت في برنا، والصاحبة: أطمعتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا .

وقيل: أول من يفرّ من أخيه: هابيل؛ ومن أبويه: إبراهيم؛ ومن صاحبتة: نوح ولوط؛ ومن ابنه نوح) (٢).

المسألة الثالثة عشرة: كيف قارنت الآيات بين وجوه المؤمنين ووجوه الفاجرين يوم الدين ؟

الجواب: أوردت الآيات وصفاً لوجوه أهل الإيمان والطاعة يوم القيامة وكذا وصفاً لوجوه الكفر والفجور، بما يسهل على القارئ وضوح الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، فبضدها تتميز الأشياء فأهل الإيمان وجوههم مسفرة، وهو من أسفر الصبح إذا ظهر نوره، فوجوههم يعلوها النور

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٧٤ .

(٢) الكشف ٤ / ٧٠٦ .

والبهاء، فما سر هذا النور؟ تعددت أقوال المفسرين في بيان سر نور وجوه المتقين، فقال بعضهم: "من قيام الليل"، فمن قام في ظلمة الليل ونصب قدميه بين يدي مولاه والناس رقود كوفئ بالنور في وجهه والبشر في محياه، وهذا ملحوظ في دنيا الناس بما يرونه من نور الطاعة على وجوه الصالحين، فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد سئل الحسن البصري: "ما بال المتهجدين بالليل منأحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلو بالرحمن فألبسهم من نوره"، وقال سعيد بن المسيب: "إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل اللهفي وجهه نوراً يحبه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط فيقول إني لأحب هذا الرجل"، فنور الطاعة يظهر على وجوه أهل الإيمان في عرصات يوم القيامة، وقيل "هو نور الوضوء"، وقيل "هذا النور جزاء ما علا وجوه المجاهدين من غبار الحرب ونقع المعارك في سبيل الله"، وبالجملة فكل الطاعات وكثير القربات لها أثر في نور الإيمان الذي يظهر على وجه العبد الصالح في الدنيا ويكون معه في قبره يؤنس وحشة قبره وينير له ظلمة رمته؛ ثم يقوده بعد البعث في عرصات يوم القيامة حتى يعبر به الصراط فيوصله لمقعده في الجنة .

وأهل الإيمان مع هذا النور يضحكون والناس يبكون، يستبشرون والناس وجلون، مطمئنون والناس خائفون — فأى فضل للطاعات في هذه الدنيا الفانية، ورحم الله عاقلاً أثر دينه على دنياه، وقدم طاعة ربه على نفسه وهواه .

أما أهل المعاصي والمنكرات فتعلو وجوههم كدرة معاصيهم وغبرة البعد عن طريق الله، فهي وجوه سوداء بالمعاصي مظلمة بالآثام، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (١)، وقد صدق من قال: (لا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه) .

(١) سورة الزمر / من الآية ٦٠.

﴿سورة النازعات﴾

وفيها احدى عشرة مسألة :

المسألة الأولى: بم أقسم الله ﷻ في أول السورة ؟ وعلام أقسم ؟

الجواب: بدأت هذه السورة المباركة بواو القسم، وما بعدها يكون مجروراً وهو المقسم به، وقد أقسم الله ﷻ بخمسة صفات وأحوال لجنس واحد من خلقه ألا وهو الملائكة، قال السعدى: (هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره)^(١)، وقد ابتدأ القسم بأول حال من أحوالهم، وهو:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١)﴾: تكاد أقوال المفسرين تجمع على أن المراد بها حال الملائكة حين تنزع أرواح الكافرين من أجسادهم، فتجذبها بعنف وقسوة حتى إذا كادت روح الكافر تخرج ردتها ملائكة الموت ثانية إلى جسده حتى تعيد نزعها مبالغة في عذابه وإيلامه، والنزع هو إخراج الروح من الجسد، ومنهم قولهم عن المحتضر: هو في النزع الأخير، أما **﴿غَرْقًا﴾** قال البغوى: (والغرق: اسم أقيم مقام الإغراق، أي والنازعات إغراقاً، والمراد بالإغراق: المبالغة في المد)^(٢)، ويتفق هذا التعذيب لروح الكافر وبدنه على السواء مع قول ابن مسعود: (ينزعها ملك الموت من تحت كل شعرة، ومن الأظافر، وأصول القدمين، ويردها في جسده بعد ما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها في جسده بعد ما ينزعها، فهذا عمله بالكفار)^(٣) وإذا بُشِّرَ الكافر بعذاب الله وغضبه تفرقت نفسه في جسده خوفاً وهلعاً فتجذبها الملائكة وتخرجها بشق الأنفس كالغريق في الماء .

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢)﴾: هي عكس الأولى فهي حال الملائكة حين تنزع أرواح المؤمنين، فتسلها سلاً خفيفاً وتنزعها نزعاً رقيقاً، وأصل

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٠٨ .

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٥ / ٢٠٤ .

(٣) المرجع السابق ٥ / ٢٠٤ .

(النشط) فى لغة العرب قولهم: "نشطت العقال من يد البعير" إذا حللته منه بسهولة ويسر، أما أنشط العقال أى عقده بالأنشطة قال الفراء: (والذى سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت وكأنما أنشط من عقال، وربطها: نشطها، فإذا ربطت الحبل فى يد البعير فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته) ^(١) وروح المؤمن إذا رأت مقعدها من الجنة تنشطت للخروج واندفعت له، فتتلقفها ملائكة الموت بيسر وسهولة .

﴿وَالسَّابِّحَاتِ سَبْحًا (٣)﴾: تنوعت فيها أقوال المفسرين، فمنهم من ذهب إلى أنها خيول المجاهدين، فالعرب تطلق على الفرس السريع "سابع" وذهب البعض إلى أن المقصود بها النجوم والشمس والقمر فكلها فى الفلك سابعة، وقال عطاء: هى السفن التى تسبح فى البحار، وقد تكون كل هذه المعانى صحيحة لكن الأولى حملها على صفات الملائكة لاستكمال صورة القسم وتتمة معناه، وعلى هذا فالسبح هو السرعة ومعنى الآية أن الملائكة تنزل مسرعة من السماء لتنفيذ أمر الله ﷻ .

﴿فَالسَّابِّغَاتِ سَبِّغًا (٤)﴾: هى الملائكة السبابة ، لكنها تسبق أى شئ ؟ قيل: (تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، قاله مسروق ومجاهد، وعن مجاهد أيضاً: هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه، وعن مجاهد أيضاً: الموت يسبق الإنسان، وقال مقاتل: هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة) ^(٢).

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾: قول الجمهور إن المراد بها الملائكة، ومعلوم أن مقادير الأمور وتدبير الأكوان بيد الله ﷻ وحده لا شريك له فى تدبير ملكه ولا منازع له فى حكمه، أما الملائكة فهى تنزل مسرعة لتنفيذ تدابير الله ﷻ فى خلقه، ونسبة التدبير إليها نسبة مجازية لا حقيقية، بل هى منفذة

(١) معانى القرآن ٣ / ٢٣٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٩٣ .

لتدبير الله ﷻ، (قال الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل) ^(١)، ونظائر هذا في القرآن الكريم كثيرة ، فمن ذلك قوله ﷻ عن جبريل - عليه السلام - : «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» ^(٢) فنسب النزول إلى جبريل مع أنه ما نزل بالقرآن الكريم إلا بإذن الله ﷻ.

هذا هو ما أقسم الله ﷻ فما المقسم عليه ؟

تعددت أقوال المفسرين في المقسم عليه فذهب البعض إلى أن المقسم عليه هو قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» (٢٦) لكن هذه الآية رقم (٢٦) في السورة أى جاءت متأخرة بعد ذكر المقسم به من الملائكة وأحوالهم ولذا اعترض على ذلك بعض أهل اللغة كابن الأنباري، إذ ليس من البلاغة أن يكون الفاصل كبيراً بين المقسم به والمقسم عليه، وقيل: جواب القسم «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥)» لأن المعنى قد أتاك، وذهب القرطبي إلى أن جواب القسم مضمر، (كأنه قال: والنازعات وكذا وكذا لتبعثن ولتحاسبن، أضمر لمعرفة السامعين) ^(٣).

المسألة الثانية: ما الراجفة ؟ وما الرادفة ؟ وما الفرق بينهما ؟

الجواب: الأصل في الرجف الاضطراب، والمراد بها - والعلم عند الله - النفخة الأولى التي يموت فيها الخلق، قال الشوكاني: (وهى الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد) ^(٤)، ثم تتبعها وتتلوها الرادفة وهى النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسميت الرادفة لأنها تردف أى تتبع النفخة الأولى، قال ابن قتيبة: (يقال ردفته وأردفته؛ إذا جئت بعده) ^(٥). وعلى هذا فإن الفرق بينهما أن الراجفة هى النفخة الأولى وتكون

(١) تفسير القرآن العظيم ٣١٥ / ٨ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٩٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩٤ / ١٩ .

(٤) فتح القدير ٣٧٤ / ٥ .

(٥) غريب القرآن ٥١٢ / ١ .

للموت، والرادفة هي النفخة الثانية وتكون للبعث .

المسألة الثالثة: ما المعنى المراد من قوله ﷺ: «فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)» ؟

الجواب: جاءت هذه الآية لتبين إنكار المشركين للبعث، وتعجبهم من الحياة بعد الموت وفناء أجسادهم فى الحافرة أى القبور المحفورة بعد أن صاروا عظاماً بالية وأشلاء ممزقة، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم الموت فماتوا ثم أحياهم الله ﷻ «فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)» أي: إذا هم على وجه الأرض أحياء بعد أن كانوا فى بطنها أمواتاً، وهذه الأرض هى أرض المحشر، (وهي لا تعد من هذه الأرض وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يهراق عليها دم) ^(١)، ولو أراد الله ﷻ أرضنا هذه لعبّر عنها بالأرض لكنه ﷻ سماها الساهرة إشارة إلى اختلافها عن أرض الدنيا؛ فهى أرض وصفتها آيات أخرى فى الكتاب العزيز بالاستواء والامتداد، وخلوها من الجبال والمنخفضات .

المسألة الرابعة: ما الوادى الذى نادى الله ﷻ فيه موسى؟ وأين يقع؟

الجواب: نادى الله ﷻ نبيه موسى - عليه السلام - فى وادٍ وكلمه فيه، ولذا سُمى موسى بالكليم، والوادى هو المنخفض بين جبلين، وقد وصفه الله ﷻ بأنه واد مبارك مقدس أى مطهر، ولذلك اختاره الله ﷻ مكاناً ليكلم فيه نبيه واسم هذا الوادى "طوى" فهو واد مقدس اسمه "طوى"، ويقع فى سيناء بمصر، وهو معروف عند سكانها .

المسألة الخامسة: ما معنى اسم "فرعون" ؟ وما الفرق بين "فرعون

موسى" و"ملك مصر" فى قصة يوسف ؟

الجواب: استخدم القرآن الكريم لفظ "الفرعون" فى حق من حكم مصر من أبنائها، أما حين تتعرض مصر لاحتلال خارجى ويحكمها رجل من

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣١٦ .

غير أبنائها فإن القرآن الكريم يسميه بالملك، كما هو الحال مع فرعون موسى وهو من أبناء مصر، أما من كان يحكم مصر وقت قدوم يوسف - عليه السلام - إليها فهم الهكسوس الملوك الرعاة المحتلين، فعبر القرآن عن حاكم مصر وقتها بالملك.

وفى هذا دلالة على إعجاز القرآن التاريخي ودقته اللغوية فى استعمال الألفاظ .

ولفظ "فرعون" مأخوذ من اللغة المصرية القديمة، وهو مكون من كلمتين: "فر" وتعنى: القصر الضخم أو المبنى الفخم، و"عون" وتعنى: العظيم، وفرعون أى عظيم القصر، وتلك عادة الفراعنة فى اتخاذ القصور والتفنن فى البناء الشاهق كما يدل على ذلك آثارهم ومعابدهم التى خلفوها. وقد اختلف المؤرخون فى تحديد هوية الفرعون الذى أرسل له موسى، وإن كان هذا الأمر لا يشغلنا فما نزل القرآن الكريم ليكون كتاب تاريخ، ولا ساق القصة فيه لإشغال الناس بتفاصيل دقيقة، المعرفة بها لا تنفع، والجهل بها لا يضر.

بيد أن هناك ملمحاً فى قصة فرعون تحسن الإشارة إليه، وهو ما ذهب إليه بعض المؤرخين وعلماء الآثار من أن جثة فرعون المحنطة فى المتحف المصرى بالقاهرة، هى جثة فرعون موسى، وأنها محفوظة بشكل كامل، حتى أنك ترى فيها شعرها وأظفارها، وقد قرأت أن هناك عينات أُخذت من هذه المومياء المحنطة وتم تحليلها فى معامل أجنبية لتعطى النتائج مؤشرات على وجود أملاح فى الجثة تمت مطابقتها بأملاح البحار فانطبقت على أملاح مياه البحر الأحمر ، فضلاً عن أن (اكتشاف كسور فى بعض عظامها، من غير أن يكون فيها جروح فى الجلد، مما يدل على أن الكسر فيها كان نتيجة ضغط المياه عليه عند غرق صاحب الجثمان، وقد ذكر الله ﷻ فى ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ

لَمَنْ خَلْفَكَ عَايَةً^(١)، فبعدما غرق في البحر، وأماته الله ﷻ قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه وحنطوه، وبقي بأمر الله ﷻ إلى يومنا هذا ليكون لمن خلفه آية^(٢) .

المسألة السادسة: أشارت آيات قصة موسى إلى أدب يجب أن يتحلى به الدعاة، فما هو؟

الجواب: تَعَلَّمْنَا آيَاتِ قِصَّةِ مُوسَى الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ (النَّازِعَاتِ) أدباً رفيعاً في بذل الدعوة وتقديم النصيحة للناس مهما كانت درجة إعراضهم وشدة عدائهم، فإن الواجب على الداعية ألا يستعلى على الناس ولا يأمرهم وينهاهم، بل يتبع في نصحه أسلوب الحث والحض بدلاً من الأمر المباشر، فإن النفوس قد جُبِلَتْ على حب الإحسان والبعد عن التسلط والأوامر .

ولينظر الداعية الناصح إلى أمر الله ﷻ لنبيه موسى - عليه السلام - لما أرسله إلى فرعون وأمره بأن يخاطبه باللين وأن يدعو به بالإحسان، وهو ما أوضحه قوله ﷻ: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)﴾، قال صاحب الظلال: (فعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب لعله ينتهي ويتقي غضب الله وأخذه)^(٣)، فلم يأمره موسى بالتوحيد أمراً صريحاً، بل عرضه عليه عرضاً رقيقاً مع أنه طاغية من أظلم الطواغيت لنفسه ولشعبه.

وقد علق ابن القيم في كتابه (التباین فی أقسام القرآن) على ما في هاتين الآيتين من لين الخطاب، أنقله بطوله لما فيه من الفائدة، قال: (ثم أمره أن يخاطبه باللين خطاب، فيقول: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)﴾، ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

(١) سورة يونس / من الآية ٩٢ .
(٢) راجع إشرافات قرآنية، سلمان العودة، ص ٩٩ بتصرف، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط ٢، ١٤٣٣هـ .

(٣) في ظلال القرآن ٧ / ٤٤٤ .

الأول: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام، هو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾^(١)، ولم يقل: "كلوا".

الثاني: قوله: ﴿إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ﴾، والتزكي: النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولا يردده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿تَزْكَىٰ﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿وَأَهْدِيكَ﴾؛ أي: أكون دليلاً لك، وهادياً بن يدك، فنسب الهداية إليه، والتزكى إلى المخاطب؛ أي: أكون دليلاً لك وهادياً، فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: "أعطيتك".

الخامس: قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أن يدعو ويوصله إلى ربه: فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنيناً، وصغيراً، وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام: كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك، وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك .

السادس: قوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خاف، ومن لم يعرف لم يخفه، فخشية الله مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿هَلْ لَّكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو إرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته؛ لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك^(٢) انتهى كلامه .

(١) سورة الذاريات / آية ٢٧.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ٨٨.

المسألة السابعة: علام يعود الضمير (ها) فى قوله ﷻ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُلَهَا (٣٢)﴾ ؟

الجواب: لما تعرض المفسرون لقوله ﷻ ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُلَهَا (٣٢)﴾ أرجعوا الضمير إلى الجبال فكانت عملية الإرساء تتعلق بالجبال على أساس أن الضمير فى العربية يعود على أقرب اسم إليه، وانطلاقاً من ذلك فقد فهموا من الآية الكريمة معنى تثبيت الجبال فى الأرض، فالجبال هى التى أُرْسِيت وتُبِتت فى الأرض حتى لا تقع ولا تسقط .

لكن المتأمل فى الضمير يجده قد ورد فى هذه الآيات أربع مرات كلها تعود على الأرض، ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالِ أَرْسُلَهَا (٣٢)﴾ فىكون المعنى هنا: وبالجبال أرساها، فالأرض قد أُرْسِيت وتُبِتت بالجبال، بينما المعنى الأول يتعلق بإرساء الجبال على سطح الأرض، والمعنيان صحيحان صحة كاملة حسب معطيات علوم الأرض الحديثة؛ فالجبال مَثْبَتَةٌ ومُثَبَّتَةٌ، فقد ثبتها الله فى الغلاف الصخري للأرض، وهى أيضاً مَثْبَتَةٌ للأرض كى لا تميد وتضطرب، فالأرض تدور بسرعة كبيرة تتجاوز الـ ١٦٠٠ كيلومتراً فى الساعة، وعند هذه السرعة يختل توازن الأرض ولكن الجبال لها جذور تمتد لأكثر من خمسين كيلو متراً فى الأرض، وهذا يعنى مزيداً من التثبيت والإحكام لطبقات الأرض، لذلك فإن الله ﷻ قد أرسى هذه الجبال لنستمتع باستقرار الأرض، فقال ﷻ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُلَهَا (٣٢)﴾.

وهنا لا بد أن يأتى السؤال: مَنْ الذى جاء بهذه الحقائق العلمية قبل أربعة عشر قرناً؟ أليس هذا دليلاً على صدق كتاب الله ﷻ ؟

المسألة الثامنة: هل نفهم من قوله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ أن خلق السماء سابق لخلق الأرض؟

الجواب : الحقيقة أن هذه الآية قد أحدثت إشكالية عند البعض فيما يتعلق بأسبوعية خلق السموات والأرض فهناك آيات فى القرآن تبين أن

الأرض قد خُلِقَتْ قبل السماء، ومن ذلك قوله ﷺ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (١) ولكن هذه الآية تكلمت عن السماء وبنائها ثم قال الله ﷻ: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» (٣٠) فهذا مما يحدث الإشكال .

لكن الإشكال يندفع بكلام حبر الأمة ابن عباس الذى أورد الطبرى فى تفسيره، قال: (عن ابن عباس قال حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء، ثم ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أن الله خَلَقَ الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسوَّاهنَّ سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك) (٢). ومعنى ذلك أن الله خلق الأرض قبل السماء غير مدحوة ثم خلق السموات ثم بعد ذلك دحا الأرض، ومعنى دحاها أى يسر الانتفاع بها بمدّها وبسطها، وإخراج الماء منها، وإنبات المرعى فيها، وإنبات النبات يحتاج لليل والنهار ولذا فإن الله خلق الأرض، ثم خلق السموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، قال ابن عباس: (ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار) (٣) .

المسألة التاسعة: لم سمي يوم القيامة بالطامة ؟ وما معناها ؟

الجواب: (الطامة) فى لغة العرب هى الداهية العظيمة التى لا دافع لها، قال ابن الجوزى: (وفى الحديث ما من طمة إلا وفوقها طمة، يَعْنِي: داهية عظيمة) (٤) .

وقد سُميت الساعة بالطامة إذ لا مصيبة تقزع قلوب الكفار وتذهب عقولهم مثلها، إذ تعرض عليهم أعمالهم ويوقنون بالهلاك، ويرون النار بارزة أمام أعينهم، فلا مصيبة أدهى من مصيبتهم، ولا ندم أعظم من ندمهم .

(١) سورة البقرة / الآية ٢٩ .
(٢) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، ٢٤ / ٢٠٨ .
(٣) المرجع السابق ، ٢٤ / ٢٠٨ .
(٤) غريب الحديث ، ٢ / ٤٠ ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

المسألة العاشرة: ما الدرس الذى يشير إليه قوله ﷺ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَهَا (٤٣)﴾ ؟

الجواب: هذه الآية نزلت رداً على المشركين الذين كانوا يسألون الرسول ﷺ عن موعد قيام الساعة وهو سؤال سخرية واستهزاء، واستبعاد لوقوعها. فأجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَهَا (٤٣)﴾ أى: لست يا محمد معنياً بميعادها، ولا مستولاً عن وقتها فعلمها عند الله ﷻ، وإنما دورك إنذار الناس بها .

لطيفة يحسن الوقوف عندها :

فيما قررناه آنفاً درس لنا فى الانشغال بعظائم الأمور وترك الجدل الذى لا ينفع، وطلب الأهم قبل المهم، وفيه كذلك تنبيه على المعلم والمفتى أن يصرف سؤال المستفتى الذى لا فائدة منه؛ ولا طائل من جوابه إلى جواب مسألة أخرى أهم، وهذه قاعدة قرآنية عظيمة الفائدة، حيث نجد القرآن الكريم يسوق من الفتاوى ما فيه نفع الناس وإفادتهم، ويُعرض عما لا يفيد، بل يجيب عن سؤال غير مفيد بجواب له فائدة حتى وإن لم يكن له تعلق بالسؤال المذكور، كما حوت سنة الرسول ﷺ الهدى ذاته فى أكثر من موضع، ولذا لما سئل ﷺ عن الساعة قال للسائل: " ما أعددت لها؟ " ^(١) ولم يجبه عن سؤاله، بل أعرض عن الجواب إلى غيره مما فيه فائدة عملية للسائل، ودفعاً له للانشغال بالاستعداد والإعداد لها بدلاً من الانشغال بتوقيت مجيئها.

المسألة الحادية عشرة: ما الدرس المستفاد من قوله ﷺ: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ ؟

الجواب: تشير الآية الكريمة إلى قصر الدنيا وتقاهة عقل من تعلق بها، فإن المرء يولد وينشأ ويسعى فى الأرض ويفنى عمره فى أمور الدنيا

(١) صحيح البخارى، ٢٢٨٣/٥، ورقمه ٥٨١٩، باب "علامة الحب فى الله عزوجل"، وأخرجه "مسلم" فى كتاب "البر والصلة والآداب" باب "المرء مع من أحب"، ٢٠٣٢/٤، ورقمه ٢٦٣٩.

وملذاتها ثم يموت، وعندئذٍ تتكشف حقيقة الدنيا ووضاعتها، وقلة أمرها وخستها، وأن الأعوام التي ظنّها العبد في الدنيا طوالاً إذا قيسَتْ بعمر المكث في القبور والبعث والنشور والعرض والحساب فكأنّها وقت العشى وهو آخر النهار، أو وقت الضحى وهو أوله .

فيا خسارة من أضاع العمر الأبدى، والزمن السرمدى في الآخرة، بساعة لذة في ليل الدنيا، أو معصية في نهارها، ثم يموت فتذهب عنه لذة معاصيه، وتبقى أوزارها في كتابه، فيندم وقت العرض ولكن لا فوت، فياليت العبد ادّكر، وأخذ من الفانية للباقية، وصبر نفسه الأمانة على مشقة الطاعة وقتاً يعادل العشى أو الضحى ليربح بعدها الدوام التام في جنات عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿سورة النبأ﴾

وفيها عشر مسائل:

المسألة الأولى: من الذين يسألون ؟ وعن أى شئ يتساءلون ؟
الجواب: ابتدأت هذه السورة الكريمة بهذا الاستفتاح التساؤلى المبدوء بصيغة الاستفهام (عَمَّ) وهى صيغة مكونة من كلمتين: (عن و ما)، ثم أدغمتا معاً فصارتا (عَمَّ) وحذفت الألف فى (ما) لدخول حرف الجر (عن) عليها، ومعناها عن أى شئ يسألون ؟

والذين يسألون هنا هم المشركون المكذبون، والمسئول هنا هو الرسول ﷺ، وأما المسئول عنه فقد أوردته الآية الثانية ﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ والنبأ غير الخبر، فالنبأ هو الأمر العظيم والخبر المهور، وهو يوم القيامة، وقد وصفته الآية بالعظيم زيادة فى بيان أهميته وخطورته، ويكفى أن الله ﷻ سماه نبأً ووصفه بالعظيم. وكان المشركون يكثرُونَ من سؤال الرسول ﷺ عن الساعة، وسؤالهم ليس للتعلم، أو البحث عن الحقيقة للإيمان بها، بل هو سؤال سخرية واستهزاء، وإنكار وتكذيب، ويتضح هذا فى الوعيد الأكيد والتهديد الشديد الذى جاء بعد ذلك فى قوله ﷻ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾.

المسألة الثانية: ما الدرس المستفاد من قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)﴾ ؟

الجواب: إن من شقاء الناس ابتعادهم عن المنهج القرآنى الذى جاء لإصلاح دينهم ودنياهم، ومن ذلك تلكم الإشارة بالغة الأهمية فى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)﴾، فالأصل اللغوى لكلمة السبت تعنى الراحة، قال ابن فارس: ("سبت" السين والباء والتاء أصل واحد يدل على راحة وسكون، يقال للسَّير السهل اللَّين: سَبَتٌ) (١)، فجعل الله ﷻ النوم بالليل سباتاً، أى انقطاعاً عن العمل وراحة للبدن بخلوده للنوم، حتى

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٩٥ ، أحمد بن فارس بن زكريا، الناشر اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣، ٢٠٠٢م.

يحصل للبدن الراحة، وللنفس الاستجمام استعداداً لبدء يوم جديد ملؤه النشاط والتفؤل .

ولكن ... أين الناس اليوم من هذه الآية ؟ إن كثيراً من الناس قد قلب ليله نهاراً وجعل نهاره ليلاً ، فتراه يقظاً بالليل نائماً بالنهار، وهذا تغيير للفطرة السوية ورفض للنعمة الإلهية، مما ينعكس بالتوتر والإجهاد الدائم على بدن الإنسان وروحه ، وكلام الأطباء معلوم في أثر السهر، وتأكيدهم على حاجة الجسد للراحة والنوم ليلاً وأن هناك غدد في الجسد التي لا تفرز إلا في ساعات الليل وهو أمر لابد منه للجسم وعافيته، وبالسهر تضطرب تلك الغدد بما لا يمكن تعويضها حتى بساعات النوم الطوال بالنهار ... فسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

المسألة الثالثة: لم سميت الشمس بالسراج الوهاج ؟

الجواب: في هذه التسمية سر من أسرار الإعجاز العلمي لذى لم يُكتشف إلا في عصور متأخرة، فتسمية الشمس بالسراج هو أنسب تسمية تبين حقيقة أمرها، فالسراج الوهاج هي صفة الشمس، وقد وصفت بالسراج تشبيهاً لها بالمصباح الذى يضيئ للناس فهي مصدر نورهم، ووصفت بالوهاج وهو (الحار المضطرم الاتقاد المتعالي اللهب) ^(١) دلالة على حرارتها العالية وأنها مصدر الحرارة والدفع للناس على ظهر الأرض .

المسألة الرابعة: كيف تكون جهنم مرصداً للكافرين ؟

الجواب: المرصاد مفعال بمعنى راصد، فجهنم ترصد الكافرين؛ فكل الخلق يمرون على الصراط وقد نصب على شفير جهنم، فمن وفقه الله في عمل الدنيا نجا، وإلا هوى من على الصراط في نار جهنم، قال الحسن وقتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)﴾ (يعني أنه لا

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥ / ٤٢٤ .

يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس^(١)
المسألة الخامسة: ما معنى أحقاباً ؟

الجواب: الأحقاب جمع حقب وهى فترة زمنية طويلة، وقيل: الحقب الواحد: ثمانون سنة، وليس المقصود تحديد فترة زمنية محددة، (قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿لَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣) فوالله ما هو إلا إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود^(٢).

وقيل: إن هذه الآية التى ورد فيها تحديد مدة العذاب بالأحقاب منسوخة ارتفع حكمها بقوله ﷺ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) ولكن هذا القول ضعيف - والله أعلم - لأن الأحقاب فى اللغة هى المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، وبالتالي تحمل معنى الخلود فلا داعى للقول بالنسخ فيها .

المسألة السادسة: ما الفرق بين الحميم والغساق ؟

الجواب: قال ابن عطية: (الحميم هو الحار الذائب، وأكثر استعماله فى الماء السخن، والعرق ومنه الحمّام)^(٣)، وأما الغساق فقد اختلف كلام المفسرين فى بيانه فقال بعضهم: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرح: إذا سال منه قيح ودم، وقال بعضهم: الحميم هو البارد شديد البرد، قال ابن كثير: (أما الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وأما الغساق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المؤلم)^(٤)، وعلى هذا فإن عذاب أهل النار اجتماع الضدين عليهم، فالحميم حار قد انتهى إلى الغاية فى الحر، والغساق بارد قد بلغ الغاية فى البرد.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٩ / ٨ .

(٢) معالم التنزيل فى تفسير القرآن ٢٠١ / ٥ .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٤٢٧ / ٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧٨ / ٧ .

المسألة السابعة: ذكرت الآيات جملة من ثواب المتقين ... اذكرها ؟
 الجواب: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَادِّقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥)﴾ فهذه الآيات وعدت المتقين بالمفاز، وهو الفوز بمطلوبهم، والظفر بمرغوبهم؛ وهو الجنة وفيها من أنواع النعيم ما عدته الآيات؛ ففيها الحدائق والبساتين التي تحوى كل أنواع الثمار والفواكه، وفيها كروم الأعناب المتنوعة من كل ما تشتهيهِ النفوس، قال النيسابورى: (وخص منها الأعناب لشأن مزيته على سائر الفواكه) ^(١)، والكواعب الأتراب وهن الحور العين نساء الجنة وهن فتيات عذراوات كواعب، والكواعب مفرد كاعب وهى الفتاة البكر التى قد بلغت وبدأ ظهور ثديها أماراة على تمام البلوغ ونضرة الشباب، قال السعدى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أى اللاتي هن على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر) ^(٢)، والكأس هى القدر المملوء بالشراب، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان مملوءاً بالشراب، ولذا وصفها بالدهاق أى المترعة المملوءة ، وقيل: بل الدهاق هى المتابعة أى التى تدور على القوم فلا ينقطع الشرب منها، وقيل: بل الدهاق هى الصافية، ولا يمنع أن تكون كلها من صفات كؤوس أهل الجنة فهى مملوءة بالشراب الصافى الذى يشرب منه الشارب مرة بعد مرة من غير انقطاع، وأهل الجنة فى نعيم ممدود من غير كدر ولا تنغيص، ولا يخالط أذانهم قبيح قول من لغو وهو الكلام الباطل، ﴿وَلَا كِذَابًا﴾ قُرِئَتْ بالتشديد والتخفيف، فالأصل فيمن يشرب الخمر من أهل الدنيا أن تتعقد مجالسهم

(١) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ٦ / ٤٣٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ٢٢ .

على الباطل ويكثر فيها فحش القول والأكاذيب من أثر مخالطة الخمر لعقولهم، وتأثيرها السلبي على إدراكهم، أما خمر الآخرة فلا تغير عقول شاربها من أهل الجنة، ولا يجرى على ألسنتهم لغو الكلام وباطله، ولا يكذب بعضهم بعضاً، بل هم فى صفاء ووثام، إخوانٌ قد طهر الله قلوبهم من الغل، وألسنتهم من الكذب ... فاللهم اجعلنا منهم .

المسألة الثامنة: ما دلالة استخدام القرآن الكريم اسم " الرحمن " فى موقف الحساب يوم القيامة ؟

الجواب: لعل القرآن الكريم استخدم اسم الرحمن دون غيره من الأسماء الحسنى فى هذا الموقف المهيّب، وهو موقف الحساب، وقيام الخلائق بين يدى الله ﷻ فى خشوع وخضوع، فلا يستطيع أحد منهم أن يتكلم إلا من أذن له الرحمن بالكلام، وقد امتلأت القلوب بالخوف والوجل منه ﷻ فى مثل هذا الموقف ورد اسم الرحمن لبيان شدة غضبه وعظيم انتقامه من الكافرين والمعاندين، فالرحمن إذا غضب فمن يقوم لغضبه ؟ والحليم إذا انتقم فمن يتحمل وقع انتقامه ؟

فهذا يوم الهول والفرع، والخوف والوجل، حتى أن الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين يقولون : "سلم . سلم " ولعل هذا المعنى يتضح بجلاء مع ورود اسم الرحمن فهو ﷻ قد غضب مع رحمته، ولو قال الجبار لكان الغضب منه متوقفاً .

المسألة التاسعة: كيف يتخذ العبد إلى ربه مآباً ؟

الجواب: المآب هو المرجع والمنزل والسبيل، فمن شاء أن يجعل نفسه عند الله منزلاً، وأن يكون له فى هذا اليوم الحق سبيلاً إلى رضا الله، ومرجعاً إلى الجنة، فليؤمن به حق الإيمان وليستزد من أعمال البر والإحسان، والتقوى والإيمان، قال الطبرى: (فمن شاء من عباده اتخذ

بالتصديق بهذا اليوم الحقّ، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله (مآبًا) ، يعني: مرجعاً^(١) .

المسألة العاشرة: لم يتمنى الكافر أن يكون تراباً يوم القيامة ؟
الجواب: للعلماء فى تفسير أمنية الكافر أن يكون تراباً يوم القيامة أقوال :

الأول: إن الكافر لما يرى العذاب، ويعاين النيران، ويوقن بالهلاك، يتمنى لو كان تراباً عدماً فى الدنيا، وأنه لم يخلق من الأصل .

الثانى: لما يرى الكافر ما يكون بين البهائم العجماءات يوم القيامة حين تُبعث فيقتص من للشاة الجلحاء من الشاة القرناء؛ ثم يُقال لها: كوني تراباً فتموت، ولا تدخل الجنة ولا النار، لأنها فى الدنيا كانت غير مُكفّة، وليس لها مهمة إلا خدمة الإنسان، عندئذ يتحسر الكافر لأنه سيدخل النار، ويتمنى ساعتها لو كان بهيمة كالبهائم التى جُعِلت تراباً حتى يصير تراباً معها، فيموت مودة أبدية - ولم يكن فى الدنيا شئ أكره عليه من الموت - لكنه يتمناه فى الآخرة حتى لا يُحاسب ويُخلد فى النار .

الثالث: قال بعض المفسرين إن هذه المقولة هى لإبليس؛ حيث يتحسر على رفضه أمر الله ﷻ له بالسجود لآدم، لاحتقاره أصل آدم الترابى، وافتخاره بأصله النارى، فيتمنى وقتها لو كان مخلوقاً من تراب، إذ لو كان كذلك لما وقع فى معصية الكبر، ورفض أمر الله ﷻ له ، ولكن هذا القول ضعفه كثير من أهل العلم .

قلت: والحق أن عدم قصره على إبليس أولى، فهذه الآيات جاءت فى سياق عام تتحدث عن أحوال المتقين والكافرين، فحملها على العموم أولى، ولو تمنى الكافر أن يكون تراباً؛ فإبليس من باب أولى سيدخل فى هذا النطاق لأنه سيد الكافرين وقائدهم إلى النار .

(١) جامع البيان فى تأويل آى القرآن ٢٤ / ١٧٩ .

المصادر والمراجع

- ١- الإِتقان فى علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة سنة ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م .
- ٢- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله بن العربى، دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٣- الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل البخارى، دار البشائر، بيروت، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ
- ٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادى، دار إحياء التراث العربى ، بيروت - لبنان .
- ٥- أسباب النزول للواحدي ، دار الباز للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م.
- ٦- الاستذكار، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ٧- إشرافات قرآنية ، سلمان العودة ، مؤسسة الإسلام اليوم ،الرياض، الطبعة الثانية، سنة ١٤٣٣ هـ
- ٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- ٩- أيسر التفاسير لكلام علي الكبير ، جابر بن موسى الجزائرى ،مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .
- ١٠- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى، دار الفكر، بيروت.
- ١١- البحر المديد، أحمد بن محمد بن عجيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م
- ١٢- بدائع الفوائد، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان .

- ١٣- البرهان فى علوم القرآن، محمد بن بهادر الزركشى، دار المعرفة، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ
- ١٤- التبيان فى تفسير غريب القرآن ، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا ، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ م .
- ١٥- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ١٦- تفسير البضاوى ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- ١٧- تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سالم الطيار، دار ابن الجوزى، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠ .
- ١٨- تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- ١٩- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م .
- ٢٠- تفسير المراغى، أحمد مصطفى المراغى، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة .
- ٢١- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١ م .
- ٢٢- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م .
- ٢٣- جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، محمد بن جرير الطبرى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هـ
- ٢٤- الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل البخارى، دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م .
- ٢٥- الجامع الصحيح سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

- ٢٦- جامع العلوم والحكم ، عبد الرحمن بن فرج بن رجب ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ
- ٢٧- الدر المنثور للسيوطي ، دار الفكر، بيروت - لبنان ، ١٩٩٣م .
- ٢٨- الرحيق المختوم ، صفى الرحمن المباركفوري ، دار الوفاء ، مصر، الطبعة السابعة عشرة ، ١٤٢٦هـ.
- ٢٩- الزاهر فى معانى كلمات الناس ، أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنبارى، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .
- ٣٠- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين أبوبكر البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .
- ٣١- شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفى ،المكتب الإسلامي ،بيروت ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١هـ
- ٣٢- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٣٣- صحيح ابن حبان ، محمد بن حبان ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ
- ٣٤- صفوة التفاسير، محمد على الصابونى ، دار الصابونى للطباعة ، الطبعة التاسعة .
- ٣٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م
- ٣٦- غريب الحديث ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥م . ب ١٦٧ .
- ٣٧- غريب القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
- ٣٨- فائدة جلية فى قواعد الأسماء الحسنى، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، الناشر غراس، الكويت، ط١، سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .

- ٣٩- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة - لبنان، الطبعة الثانية.
- ٤٠- فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر بيروت - لبنان ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- ٤١- في ظلال القرآن، سيد قطب، مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ٤٢- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٤٣- الكشف والبيان، أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
- ٤٤- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. ب ١٤٦.
- ٤٥- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٤٦- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
- ٤٧- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السمرائي، دار عمار، الأردن، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- ٤٨- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- ٤٩- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ.
- ٥٠- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- ٥١- المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد، عالم الكتاب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

- ٥٢- مختار الصحاح ، محمد بن أبى بكر الرازى ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ .
- ٥٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبى بكر ابن القيم ، دار الكتاب العربى - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م .
- ٥٤- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م .
- ٥٥- المصنف فى الأحاديث والآثار، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى شيبة ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ .
- ٥٦- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا، الناشر اتحاد الكتاب العرب، الطبعة ١٤٢٣، ٢٠٠٢ م.
- ٥٧- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازى ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م .
- ٥٨- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، يحيى بن شرف النووى ، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٢ هـ .
- ٥٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٢ م.
- ٦٠- النكت والعيون، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .

تم الكتاب بحمد الله ﷻ

تم الكلام وربنا المعبود *** وله الشا والعلا والجود
ثم الصلاة على النبي محمد *** ما ناح قمرى وأورق عود

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٢
مقدمة الكتاب	٥
سورة الناس	٩
سورة الفلق	١٣
سورة الصمد	١٧
سورة المسد	٢٢
سورة النصر	٢٧
سورة الكافرون	٣٣
سورة الكوثر	٣٦
سورة الماعون	٤٢
سورة قريش	٤٧
سورة الفيل	٥٠
سورة الهمزة	٥١
سورة العصر	٥٥
سورة التكاثر	٥٧
سورة القارعة	٦١
سورة العاديات	٦٧
سورة الزلزلة	٧٢
سورة البينة	٧٤
سورة القدر	٧٧

٨٢	سورة العلق
٨٧	سورة التين
٩١	سورة الشرح
١٠٢	سورة الضحى
١٠٩	سورة الليل
١١٤	سورة الشمس
١١٨	سورة البلد
١٢٥	سورة الفجر
١٣٩	سورة الغاشية
١٥١	سورة الأعلى
١٥٦	سورة الطارق
١٧٧	سورة البروج
١٨٥	سورة الانشقاق
١٩٣	سورة المطففين
٢٠٠	سورة الانفطار
٢٠٤	سورة التكوير
٢١٦	سورة عبس
٢٣٠	سورة النازعات
٢٤١	سورة النبأ
٢٤٧	فهرس المصادر
٢٥٣	الفهرس